

قِصَّةُ نَبِيِّنَا

الْقِصَّةُ الْحَقِيقَةُ

تأليف

عبد القادر شيبه الحمد

عضو هيئة التدريس بمسجد الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

والدريس بالجمعية لبيروت الشريف

يوزع مجاناً ولا يُباع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
تَقْبَلُ مِنْكَ
إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

يُوزَعُ مَجَّانًا وَلَا يَبَاعُ

ح عبد القادر شيبية الحمد، ١٤٣٢هـ
فهرسة مكتبة فهد الوطنية أثناء النشر
شيبية الحمد، عبد القادر
قصص الأنبياء: القصص الحق/ عبد القادر شيبية الحمد- ط٤-
الرياض، ١٤٣٢هـ
٢٠٠ ص؛ ٢٤ سم
ردمك ٩-٧٧٩٣-٠٠-٦٠٣-٩٧٨

١- قصص الأنبياء ٢- قصص القرآن أ.العنوان

ديوي ٥، ٢٢٩ ١٤٣٢/٦١٥٧
رقم الإيداع: ١٤٣٢/٦١٥٧
ردمك ٩-٧٧٩٣-٠٠-٦٠٣-٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الرابعة

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

قِصَصُ الْأَنْبِيَاءِ

الْقِصَصُ الْحَقِيقِيُّ

عَبْدُ الْقَادِرِ شَيْبَةُ الْحَمْدُ

عُضُوهُ هَيْئَةِ التَّدْرِيسِ بِقِسْمِ الدِّرَاسَاتِ الْعُلْيَا
بِالْجَامِعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ سَابِقاً
وَالْمُدْرَسُ بِالْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الكتاب

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، والصلاة والسلام الأتمّان الأكملان على محمد خاتم النبيين، وقائد الغرّ المحجلين، ورسول رب العالمين، النبي الأمي الصادق الأمين، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، ومن سلك سبيلهم وتَرَسَّم خُطاهم ونَهَجَ مناهجهم إلى يوم الدين.

أما بعد:

فهذا كتاب قصص الأنبياء «القصص الحق» في طبعته الأولى منفرداً عن القصص الحق في سيرة سيد الخلق محمد ﷺ، وهو بحمد الله صورة مشرقة للقصص الحق، قد جردته بفضل الله وتوفيقه مما ألحق بقصص الأنبياء من الأباطيل وردية الأقاويل التي اعتمد مُرَوِّجُوهَا على الأخبار الكاذبة عن بني إسرائيل، أو الأحاديث الضعيفة أو الموضوعية التي لا تحل روايتها إلا ببيان وَصْفِهَا عند المحدثين، حيث إنه مما أطبق عليه علماء السلف من أهل السُنَّة والجماعة أنه لا يجوز لأحد أن يقول على الله بغير علم، وأن ينسب إلى الله شيئاً بغير الحق، وأنه لا يُوصَفُ اللهُ ﷻ إلا بما وَصَفَ به نفسه في كتابه الكريم، أو وَصَفَ به رسوله محمد ﷺ شيخ المرسلين، بما ثبت من صحيح الأخبار عنه ﷺ التي خلت من العلة والشذوذ. كما أنه لا يجوز أن يوصف أحد من رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين إلا بما صحت به الأخبار. وقد اعتمد أهل السنة والجماعة في ذلك على الأدلة اليقينية حيث يقول ﷻ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١].

وقال تعالى: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿ [المائدة: ٧٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْسِنَا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

وكما قال ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما ووصفه المنذري في الترغيب والترهيب بأنه بلغ مبلغ التواتر من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»، كما روى مسلم من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من حدثتني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين». كما روى مسلم في صحيحه من حديث المغيرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن كذباً عليّ ليس ككذب عليّ أحد، فمن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار».

وقد انفرد أهل السنة والجماعة بأنهم إذا سئلوا عن مسألة تتعلق بالله أو برسوله ﷺ رجعوا في الجواب إلى آية من كتاب الله، أو حديث صحيح عن رسول الله ﷺ بخلاف غيرهم من أهل الأهواء الذين لا يستندون في عقائدهم أو حتى فروع فقههم إلا على أقوال مرسلّة، لا يكادون يستدلون بآية من كتاب الله أو بحديث صحيح عن رسول الله ﷺ.

وعلى هذا؛ فالواجب على كل من ينتمي إلى العلم أن يلتزم بهذا الأصل، فلا يقول على الله إلا بعلم، كما لا يقول على أحد من رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم إلا بعلم.

وعلى الله قصد السبيل، والحمد لله رب العالمين.

حُرِّرَ فِي ٢٥/١/١٤١٩ هـ

المؤلف

عبد القادر شيبه الحمد

عضو هيئة التدريس بقسم الدراسات العليا

بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة سابقاً

والمدرس بالمسجد النبوي الشريف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الفصل الأول

الحمد لله، وسلامٌ على عباده الذين اصطفى.

أما بعد:

فقد عني القرآن العظيم عناية فائقة بقصص الأنبياء، وحدد في أكثر من موضع من الكتاب الكريم أهداف هذا القصص، حيث يقول: ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثِثُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠]، وكما قال: ﴿لَقَدْ كُنَّا فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

لقد أورد القرآن الكريم القصة - ولا سيما قصص الأنبياء والمرسلين - في ألوان شتى، فيوردها أحياناً على سبيل الإطناب إن كان المقام للإطناب، وعلى سبيل المساواة إن كان المقام للمساواة، وعلى سبيل الإيجاز إن المقام للإيجاز، وقد يورد القصة في سورة كاملة كسورة يوسف عليه السلام في قصة يوسف، وقد يورد القصة مطولة وهي لرسول واحد كموسى عليه السلام، يوردها في سورة البقرة، وفي سورة الأعراف، وفي سورة يونس، وفي سور شتى من القرآن العظيم على أشكال متفاوتة؛ لكل مقام منها مقاله الذي يناسبه، لقد أشار إلى صحف موسى وإبراهيم في آية واحدة عندما ذكر آلاءه على خلقه، ووجوب تسيححه وتقديسه وحده، فقال عليه السلام: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غَنَاءً أَحْوَى (٥) سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّمُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (٧) وَنُبَيِّرُكَ لِلسَّرَى (٨) فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (٩) سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْتَى (١٠) وَنَجِّنَهَا مِنَ الشَّقَى (١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (١٣) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤)﴾

وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤَثِّرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٧﴾ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴿الأعلى: ١ - ١٩﴾، وفي سورة النجم يشير إلى قصة موسى وإبراهيم نفسيهما فيقول: ﴿أَمْ لَمْ يُبَيِّنَّا بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٣٧﴾ أَلَا نَزَّرْنَا وَزَرَ ﴿٣٨﴾ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿٣٩﴾ وَأَنْ سَعِيهِ سَوْفَ يُرَى ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوَّلَ ﴿٤١﴾ وَأَنْ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴿٤٢﴾ وَأَنْهُ هُوَ أَصْحَكَ وَابْكَى ﴿٤٣﴾ وَأَنْهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنْهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٤٥﴾ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ﴿٤٦﴾ وَأَنْ عَلَيْهِ النَّشْأَةُ الْآخِرَى ﴿٤٧﴾ وَأَنْهُ هُوَ أَعْنَى وَأَقْنَى ﴿٤٨﴾ وَأَنْهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى ﴿٤٩﴾ وَأَنْهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ﴿٥٠﴾ وَنَمُودًا فَمَا أَبْقَى ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى ﴿٥٢﴾ وَالْمُؤَنَفَكَةَ أَهْوَى ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا عَشَى ﴿٥٤﴾ فَيَأْتِي آيَاتِ رَبِّكَ تَنَمَائِي ﴿٥٥﴾ هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذِيرِ الْأُولَى ﴿النجم: ٣٦ - ٥٦﴾. يورد القصة على حسب المقام.

وأنت إذا لاحظت تجد أن القصة في كتاب الله أو في سنة رسول الله ﷺ تشتمل على أرقى درجات البلاغة وأعلى أساليب البيان؛ من العبرة والدقة والصدق، والوفاء بالمطلوب ووضوح القصد، لما أشار الله ﷻ وذكره من ثمار هذه القصة من التأسى بالأنبياء والمرسلين؛ فإن قصص الأنبياء إنما تُذكر للتأسي والاعتداء بهم، والابتعاد عن محاذيرهم، والوقوف معهم، وتعزيزهم وتأيدهم، ونصرتهم، فإن هذا هو المقصود من ذكر قصص الأنبياء في القرآن الكريم.

ولكن الواقع أن هذا الطريق في ذكر قصص الأنبياء في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ امتدت إليه اليد اليهودية، وحاولت تشويهه بكل ما تطيق، وهذا دأب اليهود؛ فقد حَرَّفُوا دين عيسى ﷺ على يد شاول اليهودي، وقال شاول للنصارى: «أنا أحدثكم عن يسوع - وهذا بعد رفع المسيح بقليل - ولا يجوز لكم أن تسمعوا شيئاً من التعاليم المسيحية إلا عن طريقي» فأفسد دين المسيحيين، وجاء بدين لا يعرفه المسيح عيسى ﷺ، ولا يعرفه الحواريون، ولذلك أَلَّفَ برنابا إنجيله من أجل تكذيب شاول، إذ يقول برنابا في مقدمة إنجيله: «أيها الأعداء! إن الله العجيب العظيم قد افتقدنا في هذه الأيام بنبيه يسوع المسيح برحمة عظيمة للتعليم. والآيات التي اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى

التقوى مبشرين بتعليم شديد الكفر، داعين المسيح ابن الله، ورافضين الختان الذي أمر الله به دائماً. مجوزين كل لحم نجس الذي ضل في عدادهم أيضاً بولس (شاؤول اليهودي) الذي لا أتكلم عنه إلا مع الأسى. وهو السبب الذي لأجله أسطر ذلك الحق الذي رأيته». أه.

وسيجيء مزيد تحقيق لذلك في قصة المسيح ﷺ إن شاء الله تعالى. فقد أفسد شاؤول دين المسيح ﷺ، وادعى أن المسيح ابن الله!

كما حاول عبد الله بن سبأ اليهودي الصنعاني أن يفسد دين الإسلام، وأخذ يتربص ويبحث عن قوم يكونون حديثي عهد بدين ممن يسكنون المدينة من الأعاجم وغيرهم، أو ممن في قلوبهم مرض على الإسلام وأهله، وأخذ يدس عليهم تعاليم ضد أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، ويفتري على كتاب الله، وعلى رسول الله ﷺ؛ إذ أخذ يذيع بين من انضم إليه من عصابة الشيطان أن محمداً ﷺ سيعود إلى الدنيا قبل يوم القيامة، ويقول لأصحابه: كيف تصدقون أن عيسى يعود قبل يوم القيامة، ولا تصدقون أن محمداً يعود مع أن محمداً أفضل من عيسى، وأن في القرآن ما يؤكد رجعة محمد إلى الدنيا، إذ يقول الله: ﴿إِنَّ أَلَدَىٰ فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدِكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥]، وحمل هذا اليهودي الآية على غير ما أريد بها، وحاول تحريف الكلم عن مواضعه كما هو دأب اليهود وشأنهم، وقد استمر هذا الدس ومحاوله تشويه شريعة الإسلام من عبد الله بن سبأ اليهودي، حتى استطاع هو وعصابته أن يقتلوا الخليفة الراشد ذا النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه، ثم أوحى إلى بعض تلاميذه أن علياً هو إله السموات والأرض، وأمرهم أن يقفوا عند باب مسجد الكوفة، فإذا رأوا علياً رضي الله عنه قالوا له: أنت هو! وقال لهم عبد الله بن سبأ: إذا سألكم عليّ وقال لكم: من هو؟ فقولوا له: أنت الله، فلما فعلوا ذلك أمر علي رضي الله عنه بأن تحفر لهم عند باب المسجد حفرتان، وتملآن بالنار، ثم يطرح فيها هؤلاء، ولما أخذ أتباع علي رضي الله عنه في إلقاء هؤلاء في النار كانوا يصرخون ويقولون: أيقنا أنك الله؛ لأنه لا يعذب بالنار إلا الله، وقد حاول عليّ إلقاء ابن سبأ في النار مع هؤلاء غير أن بعض

خاصته أشاروا عليه ﷺ أن ينفيه فنفاه إلى ساباط المدائن، ولما جاءه الخبر - كما ذكر الشعبي عنه - بأن علياً ﷺ قتلته عبد الرحمن بن ملجم المرادي الخارجي قال ابن سبأ: والله ما قُتل علي ولا ذاق طعم الموت، وأن الذي قتله ابن ملجم هو شيطان تصور في صورة علي، أما علي فقد صعد إلى السماء يمشي فوق السحاب، والرعد صوته، والبرق سوطه.

لكن بحمد الله ومنته قد جرد الله تعالى من أئمة الدين وحماة الشريعة ودعاة الإسلام في كل عصر وفي كل مصر من يكشف زيف هؤلاء المنحرفين، ويرد عليهم مطاعنهم.

وإني أذكر من عهد بعيد يزيد على أربعين سنة أني وقفت على كتيب بعنوان: الحب. يقول فيه كاتبه: أليس الحب هو الذي حرك قلب النبي محمد ﷺ إلى زينب بنت جحش حينما رأى ساقها الدقيق تحت ثوبها الرقيق كما يرويه بعض المستشرقين. فلما قرأتها سارعت إلى تفسير ابن جرير، وإذا به مع الأسف يذكر نحو ما في هذه القصة الباطلة المختلقة المكذوبة على رسول الله ﷺ دون أن يعلق عليها بشيء، فيقول: حدثني يونس قال: أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد: كان النبي ﷺ قد زوّج زيد بن حارثة زينب بنت جحش ابنة عمته، فخرج رسول الله ﷺ يوماً يريد، وعلى الباب سترة من شعر، فرفعت الريح الستر، فانكشف، وهي في حجرتها حاسرة، فوقع إعجابها في قلب النبي ﷺ، فلما وقع ذلك كرهت إلى الآخر، فجاء فقال: يا رسول الله! إنني أريد فراق صاحبتني. قال: ما لك أرابك منها شيء؟ قال: لا والله ما رابني منها شيء يا رسول الله، ولا رأيت إلا خيراً. فقال له رسول الله ﷺ: أمسك عليك زوجك واتق الله، فذلك قول الله: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَخُفِيَ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧] تخفي في نفسك إن فارقتها تزوجتها. ١. هـ.

وهذا كذب وافتراء على حبيب الله ورسوله وأكمل خلقه وأفضلهم

إن القرآن العظيم ينص على العلة في زواج النبي ﷺ من زينب بنت جحش، ويسوق في سورة الأحزاب عندما يقول: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفَيْهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ الَّتِي تُظَاهَرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ كَمَا قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾﴾ أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤ - ٥].

وأصل القصة أن الجاهليين كانوا إذا تبناوا شخصاً جعلوه كولد الصلب، فلا يتزوج من تبناه امرأة هذا الولد المتبني إذا طلقها، وأراد الله أن يبطل هذه القاعدة الجائرة الظالمة؛ لأنها لا حقيقة لها. وكان زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي قد خرجت به أمه سعدى بنت ثعلبة من طيئ لتزيره أهلها، فأصابته خيل من بني القين، فباعوه بسوق حباشة - وهو سوق من أسواق العرب - وزيد يومئذ ابن ثمانية أعوام، وقد اشتراه حكيم بن حزام بن خويلد من الشام، ووهبه لعمته خديجة بنت خويلد زوج رسول الله ﷺ، فاستوهبه منها رسول الله ﷺ فوهبته له، فأعتقه رسول الله ﷺ، وكان أبوه حارثة قد جزع عليه جزعاً شديداً، وبكى عليه كثيراً حين فقده، فهو يقول:

بكيت على زيد ولم أدر ما فعل
فوالله لا أدري وإني لسائل
أحيي فيرجى أم أتى دونه الأجل
أغالك بعدي السهل أم غالك الجبل
ثم يقول فيها:

تذكرينه الشمس عند طلوعها
سأعمل نص العيس في الأرض جاهداً
وتعرض ذكره إذا غربها أفل
ولا أسأم التطواف أو تسأم الإبل
فكل امرئ فانٍ وإن غره الأمل
حياتي أو تأتي عليّ منيستي

وقد أخبر أبوه بأن زيداً عند محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بمكة، فقدم هو وأخوه إلى مكة، وجاء إلى بيت رسول الله ﷺ وذلك قبل البعثة النبوية، فسألا رسول الله ﷺ أن يعطيها زيداً، فقال له رسول الله ﷺ: يا زيد، هذا أبوك وهذا عمك، إن شئت فأقم عندي، وإن شئت فانطلق معهما، فنظر زيد

إلى وجه رسول الله ﷺ مرة ونظر إلى وجه أبيه ووجه عمه مرة أخرى، ثم قال: بل أقيم عندك، ولا أختار عليك أحداً أبداً، فأخذه رسول الله ﷺ إلى الملاء من قريش، وقال: يا معشر قريش، أشهدكم أن زيدا ابني يرثني وأرثه.

والى فصل قادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الثاني

ذكرت في الفصل السابق سبب تبني رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة، وكان التبني في الجاهلية يُنزل الابن المتبني بمنزلة الابن من الصلب، فجميع ما يحرمه الجاهليون حول الابن من الصلب يحرمونه للابن المتبني، ولما أراد الله تبارك وتعالى إبطال عادة قبيحة من عادات أهل الجاهلية - وهي أنهم كانوا إذا تزوج الابن المتبني زوجة ثم طلقها لا يحل للذي تبناه أن يتزوجها - فلما أراد الله أن يبطل هذا العادة ولم يكن أحد يتحمل ذلك إلا رسول الله ﷺ أمر الله رسوله ﷺ أن يزوج زينب بنت جحش ابنة عمته من زيد مولاه فرفضت وقالت: لا أتزوج من مولى، ورفض أخوها كذلك أن يتم هذا الزواج، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦] فرضيت زينب بنت جحش بأمر الله وأمر رسوله، ورضي أخوها بأمر الله وأمر رسوله كذلك. وتزوج زيد بن حارثة من زينب بنت جحش ﷺ، وكانت تحس في قلبها بأنه دونها، فكانت تناله أحياناً بما يكره من القول، حيث تقول له: تزوجتك وأنت مولى، فيأتي زيد بن حارثة إلى رسول الله ﷺ ويشكو زينب، فيقول له رسول الله ﷺ: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، ورسول الله ﷺ يعلم أن ما ألقاه الله في قلب زينب نحو زيد هو تمهيد للفراق بينهما، لئتم ما قضاه الله ﷻ من أن يتزوج رسول الله ﷺ من زينب؛ حتى تبطل عادة الجاهلية في تحريم نكاح زوجة الابن المتبني إذا فارقتها، فلما قضى زيد منها وطراً طلقها زيد بن حارثة للعلة التي ذكرها الله ﷻ حيث قال: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطْرًا وَزَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي زَوْجِ أَدْعِيَابِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطْرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (٣٧) مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا

مَقْدُورًا ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ يُبْغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَحْشُونَهُ وَلَا يَحْشُونَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٢٩﴾ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿الأحزاب: ٣٧ - ٤٠﴾.

وقد أخذ المغرضون والخرافيون والحاقدون والمرجفون هذه القصة الجميلة الممتلئة بالحكمة والتشريع والخير للإنسانية ووضع الأمور في نصابها الحقيقي والقضاء على خرافات أهل الجاهلية، فدرس هؤلاء الحاقدون على رسول الله ﷺ قصة رفع الريح طرف الخباء عن زينب وهي تحت زيد بن حارثة، وإعجاب النبي ﷺ بها، وإخبار زيد رسول الله ﷺ أنه يريد فراقها ليتزوجها رسول الله ﷺ ما دام قد أحبها، إذ تدس هذه الأباطيل أن رسول الله ﷺ لما رأى ساقها وأعجب بها قال: سبحان مقلب القلوب. وأيقنت زينب أن رسول الله ﷺ ما قال هذه الكلمة إلا للدلالة على أنه أحبها ووقعت في قلبه لما رأى ساقها، برأه الله مما قالوا وعصمه مما زعموا، لقد جهل هؤلاء أو تجاهلوا العلة المنصوصة لزواج رسول الله ﷺ من زينب بنت جحش، وأن المقصود منها إبطال خرافات الجاهليين ووضع الأمور في نصابها، وأن التبني لا يمكن أن يجعل المتبني ولداً من الصلب أو كولد الصلب، فإن الإنسان إذا كتب على كيس السكر هذا ملح لا يمكن أن يصير السكر ملحاً بهذه الكتابة، ولو كتب على كيس الملح هذا سكر لا يمكن أن يصير الملح سكرًا حلوًا بهذه الكتابة؛ فالعناوين التي لا تطابق الواقع لا قيمة لها ولا تغير من الحقيقة شيئاً.

فلما أراد الله أن يبطل هذه العادة الجاهلية الكاذبة أمر رسوله محمداً ﷺ أن يزوج زيد بن حارثة مولاه من زينب بنت جحش، وقد مهّد لذلك في مقامات من سورة الأحزاب، حيث يقول في مطلعها: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ الَّتِي تَظْهَرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤] وقد لفت الانتباه في هذا المقام حيث أكد هذه الحقيقة إذ يقول: ﴿ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ ﴿٤﴾ أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوْلَاكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ

بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿الأحزاب: ٤ - ٥﴾ كما أشرت إلى ذلك في الفصل السابق.

وأشار إلى قصة إرغام زينب على الزواج من زيد وما كان بينهما حيث يقول:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿الأحزاب: ٣٦ - ٣٧﴾ ومعنى أنعم الله عليه يعني بالإسلام، وأنعمت عليه أي بالحرية، وقوله: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ هو من مقالة رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة يوصيه بالصبر على أذى زوجته له، ومخافة الله فيها. وقوله تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ أي: وتكتم في نفسك ما علمت أنه كائن لا محالة من أن زيداً يطلق زينب ليتزوجها رسول الله ﷺ للقضاء على عادات أهل الجاهلية. وقوله: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ﴾، هو ترغيب لرسول الله ﷺ في الإقبال على الزواج من زينب بنت جحش، وأن يزيل من خاطره كل ما قد يمر به مما يخاف أن يتحدث به الجاهليون بأن محمداً تزوج زوجة ابنه بعد أن فارقها ابنه.

وقد حرّف المبطلون الكَلِمَ عن مواضعه وقالوا في قوله: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ﴾ أي: حب زينب، ﴿مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ يعني من حبها، وتخشى الناس في حبها. حاشا لرسول الله ﷺ ولمن دونه من المؤمنين أن يرضى بذلك أو أن يفعله. وقد سقت هذه القصة لأبين كيف استطاع اليهود ومن ينحو نحوهم أن يدخلوا على قصص الأنبياء والمرسلين الشيء الكثير من الكذب والباطل والافتراء، كما افترؤا على داود وغيره من الأنبياء، وذلك بناءً على مذاهب لهم، فاليهود لا يتورعون عن وصف الله ورسله بكل شر ونقص، ففي الإصحاح الأول من سفر التكوين من التوراة التي حرفوها بأيديهم في الفقرة السادسة والعشرين «٢٦» وقال الله: نعمل

الإنسان على صورتنا كشبهنا. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فالله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١ - ٤]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]. ثم يزعمون أن الله تعب لَمَّا خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ فَاسْتَرَحَ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ يَوْمَ السَّبْتِ، فيقول في الإصحاح الثاني من سفر التكوين في الفقرة الأولى والثانية والثالثة منه: فأكملت السموات والأرض وكل جندها، وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل، فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل، وبارك الله اليوم السابع وقدس؛ لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقاً. تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً؛ فالله لا يتعب، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، ولذلك جاء في الرد عليهم قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨] أي: وما أصابنا تعب في هذا الخلق؛ لأنه سهل علينا يسير، وقد قامت الأدلة العقلية والبراهين النقلية القطعية على أن الله منزّه عن اللغوب والتعب. وكما يعتقد اليهود أن الله يلحقه الحزن والندم على ما فات؛ ففي الإصحاح السادس من سفر التكوين في الفقرة الخامسة والسادسة منه: ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض، وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم. فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه. وهذا المعتقد الفاسد اليهودي في ذات الله يبين أن اليهود يعتقدون أن الله لم يحط علمه بالمخلوقات قبل وجودها؛ ولذلك أدى بهم هذا إلى القول بالبداءة على الله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

وكذلك يعتقد اليهود أن الأنبياء غير معصومين من الخطايا والذنوب، بل جوزوا عليهم أن يرتكبوا المنكرات كالزنا وشرب الخمر وسلب النساء من أزواجهن، وأنهم كانوا يقبحون في عين الرب. فقد جاء في الإصحاح التاسع من سفر التكوين في الفقرات من (٢٠) إلى (٢٥) ما نصه: وابتدأ نوح يكون فلاحاً وعرس كرمًا. وشرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه، فأبصر حام أبو كنعان

عورة أبيه وأخبر أخويه خارجاً. فأخذ سام وياث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما ووجهاهما إلى الوراء، فلم يبصرا عورة أبيهما. فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير فقال ملعون كنعان عبد العبيد يكون لإخوته.

وكما وصفوا نوحاً بالسكر رموا لوطاً بالسكر وبالزنا بابنتيه، ففي الإصحاح التاسع عشر من سفر التكوين في الفقرة الثلاثين إلى الفقرة السادسة والثلاثين ما نصه: وصعد لوط من صوغر وسكن في الجبل وابنتاه معه؛ لأنه خاف أن يسكن في صوغر، فسكن في المغارة هو وابنتاه. وقالت البكر للصغيرة: أبونا قد شاخ وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض، هلم نسقي أبانا خمراً ونضطجع معه فنحیی من أبينا نسلًا؛ فسقتنا أباهما خمرًا في تلك الليلة ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة: إني قد اضطجعت البارحة مع أبي، نسقيه خمرًا الليلة أيضاً فادخلي اضطجعي معه. فسقتنا أباهما خمرًا في تلك الليلة أيضاً وقامت الصغيرة واضطجعت معه ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. فحبلت ابنتا لوط من أبيهما.

وكما افترى اليهود على داود عليه السلام فرموه بالزنا وسلب النساء من أزواجهن واتهام أم سليمان عليها السلام بالزنا، ففي الإصحاح الحادي عشر من سفر صموئيل الثاني ما نصه: وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك، فرأى من على السطح امرأة تستحم، وكانت المرأة جميلة المنظر جداً. فأرسل داود وسأل عن المرأة فقال واحد: أليست هذه بثشبع بنت أليعام امرأة أوريا الحثي، فأرسل داود رسلاً وأخذها، فدخلت عليه فاضطجع معها وهي مطهرة من طمئتها ثم رجعت إلى بيتها. وبعد أن يسوق سفر صموئيل الثاني محاولة داود التخلص من أوريا زوج المرأة وإرساله إلى الحرب ليقتل بعد ذلك يقول السفر: فلما سمعت امرأة أوريا أنه قد مات أوريا رجلها ندمت بعلها. ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها إلى بيته وصارت له امرأة وولدت له ابناً. وأما الأمر الذي فعله داود فقبیح في عيني الرب.

وفي الإصحاح الثاني عشر من سفر صموئيل الثاني يذكر قصة رجل فقير له نعجة واحدة صغيرة، ورجل غني له غنم وبقر كثيرة جداً؛ فجاء ضيف إلى الرجل الغني فلم يأخذ من غنمه ومن بقره ليهيئ للضيف الذي جاء إليه، فأخذ نعجة الرجل الفقير، ثم يتابع السُّفْرُ سرد معاتبة الرب لداود وإماتة الله للولد الذي جاءت بشبع به، ثم توبة داود وصيامه، ثم دخوله على امرأة أوريا واضطجاعه معها، فتحمل وتلد ولداً اسمه سليمان.

وبهذه النصوص نعرف مقدار أنبياء بني إسرائيل في نفوس اليهود، وإن تعجب فعجب أن يجيء بعض المفسرين ويأخذ هذه القصة المكذوبة المختلقة على داود ﷺ. ويفسر بها قول الله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَعِيَ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْمَةً وَاِلَى نَعْمَةٍ وَاحِدَةٍ فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ لِسْوَالِ نَعْمِكَ إِلَى نَعْمَتِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لِيَبْغِيَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾﴾ [ص: ٢١ - ٢٤]. ففسرها هؤلاء بأن داود أخذ امرأة أوريا وتسبب في قتله، أو أن هذا كان جائزاً عندهم، وكان لداود تسع وتسعون امرأة، ولأوريا امرأة واحدة، وأن الله أرسل له ملكين في صورة خصمين لتوبيخه على خطئه، فضربا له مثلاً بذي النعجة وذو النعاج الكثيرة إلخ. وهذا كذب واختلاق. ويفسرون النعجة في الآية بالمرأة، مع أن العرب لا يطلقون اسم النعجة إلا على أنثى الضأن أو بقر الوحش. وبقر الوحش غير أليف، وأنثى الضأن لا ترضى المرأة أن تشبه بها.

والى فصل قادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الثالث

أشرت في الفصل السابق إلى ما يعتقده اليهود في أنبيائهم ورسلمهم، فهم يرمونهم بالزنا والسرقة وشرب الخمر وارتكاب جميع الموبقات، وقد تسربت هذه العقائد اليهودية إلى قصص الأنبياء عند تفسيرها في كتاب الله أو في سنة رسول الله ﷺ، وقد أشرت إلى ما رموا به نوحاً ولوطاً وداود، كيف افتري عليهم اليهود بما هو مسطر في كتب العهد القديم من التوراة وسفر صموئيل الثاني. كما افتروا على سليمان ﷺ فزعموا أنه كان يحكم بواسطة الخاتم، وأنه دخل مرة بيت الخلاء وسلّم الخاتم لزوجته فخرج الشيطان من بيت الخلاء في صورة سليمان ﷺ وأخذ الخاتم من زوجة سليمان، وجلس على كرسي الملك وتسلمت على بني إسرائيل، وصار يدخل على نساء سليمان في الطهر والطمث، وأن سليمان عندما خرج من بيت الخلاء وقال لزوجته: هات الخاتم، قالت: لقد أعطيته سليمان، قال: أنا سليمان. قالت: لست سليمان وأنكره الناس فهم على وجهه، واشتغل عند صياد في البحر، وكان الصياد يعطيه أجرته كل يوم سمكتين، فيشوي سمكة ويبيع السمكة الأخرى ليشتري بئمنها خبزاً، واستمر سليمان على هذا الحال أربعين يوماً، وعندما ضجر الناس من حكم الشيطان الجالس على كرسي سليمان طار الشيطان من الكرسي وألقى الخاتم في البحر فابتلعت سمكة. وكان من حظ سليمان أن هذه السمكة وقعت في شبك الصياد الذي يعمل عنده سليمان، وأنه أعطاها له مع سمكة أخرى، وأن سليمان باع إحدى السمكتين على عادته وطبخ السمكة الأخرى، وكانت هي التي ابتلعت الخاتم، فلما شق بطنها إذا بها الخاتم، فأخذه وعاد إليه الملك بلبسه الخاتم، وقد أخذ كثير من المفسرين - للأسف - هذه القصة اليهودية ففسروا بها قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: ٣٤] فيقولون: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى

كُرْسِيِّ، جَسَدًا ﴿١﴾ أي: شيطاناً، ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ ﴿٢﴾ أي: رجع سليمان إلى ملكه. وهذا كذب على الله وعلى سليمان ﷺ؛ بل قد فسر هذه الآية رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم بأن سليمان حلف ليطوفن على مئة من نسائه أو تسعين أو سبعين، فتحبل كل واحدة منهن بفارس يحمل السلاح ويجاهد في سبيل الله، ونسي أن يقول: إن شاء الله، فطاف عليهن فلم تحمل إلا واحدة جاءت بشق ولد، وأنه لو قال: إن شاء الله، لأتى بهم فرساناً أجمعين. والشق المذكور في الحديث هو الجسد الذي ألقى على كرسيه، فهذا التفسير لرسول الله ﷺ الوارد في البخاري ومسلم يتركه الكثير من المفسرين ويذكرون هذه القصة الإسرائيلية التي أثرت كثيراً في نفوس كثير من المسلمين؛ حتى صاروا يعتقدون أن سليمان كان ملكه في خاتمه، ولا يزالون يذكرون خاتم سليمان، ويضربون به الأمثال، ويتعلق به الكثير من السحرة والمشعوذين والدجالين ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مِثْلِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيْطَانَ كَفُرًا﴾ [البقرة: ١٠٢]، وسيأتي مزيد تحقيق لذلك إن شاء الله تعالى عند قصة داود وسليمان ﷺ.

ونحن نسوق بين يدي قصص الأنبياء أموراً لا بد وأن يعرفها المسلمون؛ لأنها من صلب عقائدهم، فلا بد من تعريف النبي وتعريف الرسول وطبيعة النبي وطبيعة الرسول وحاجة الناس إلى النبيين والمرسلين، وأعظم وظائف الأنبياء والمرسلين، وما يجوز على الأنبياء وما لا يجوز عليهم، وكذلك النبوات السابقة وتتابع النبوات.

❁ تعريف النبي والرسول:

ونبدأ بتعريف النبي والرسول؛ فالنبي في اللغة قيل: هو مأخوذ من النبأ، وهو الخبر العظيم، وقيل: من النبوة بسكون الباء، أو النباوة، وهي المكان المرتفع، ولا مانع أن يكون المعنيان جميعاً قد لوحظا في هذا الوضع اللغوي، فالنبي آت بالخبر العظيم عن الله، وهو كذلك رفيع القدر عند الله وعند المؤمنين، وهو كذلك يكون من أشرف قومه، ولذلك جاء في حديث هرقل: «وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها».

والرسول في اللغة هو: المبعوث بالرسالة والموجه لغيره، أما في الاصطلاح: فالنبي من بعثه الله بشريعة جديدة يدعو إليها، أو بعثه لتقرير شريعة سابقة، والرسول من بعثه الله بشريعة جديدة يدعو إليها. فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولا، فالنسبة بينهما العموم والخصوص المطلق، والنبي أعم مطلقاً. وقيل: النبي من أوحى إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه، والرسول من أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه. وهذا تعريف عجيب، فإن الله تبارك وتعالى قد أخذ الميثاق على أهل العلم ألا يكتموا. وعاب أولئك الذين يكتمون العلم، وفي ذلك يقول: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ تَمَنَّاءَ قَلِيلاً فَبَسَّ مَا يَشْرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، على أن الله تبارك وتعالى يبين وظيفة أنبياء بني إسرائيل إذ يقول في شأن التوراة: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً﴾ [المائدة: ٤٤] وكذلك يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لِهْمُ أَعْتَلْنَا مَلِكًا نُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦] وكما جاء في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما من طريق أبي حازم قال: قاعدت أبا هريرة خمس سنين. فسمعته يحدث عن النبي ﷺ قال: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي»، كما أن قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ [الحج: ٥٢] يدل على أن كل نبي وكل رسول تلا على قومه أو اشتهى هداية قومه، فليست إذن وظيفة النبي قاصرة على نفسه منعزلة عن قومه، لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر ولا يبلغ قومه الهداية والخير، وعلى التعريف الذي اخترته، فإن الفرق بين النبي والرسول هو: أن الرسول من يأتي بجديد من الشرع، والنبي الذي ليس برسول، هو: من يأتي لتقرير شريعة سابقة، فإذا كان في رسالة المبعوث شيء جديد من الأحكام؛ فإنه يكون نبياً رسولاً، وإذا كان قاصراً على تقرير الشريعة السابقة وبيان أحكامها، ويأتيه الوحي بذلك؛ فإنه يكون نبياً وليس برسول.

وقد اختار الله تبارك وتعالى الأنبياء من أكمل خلقه، فعندما أخذ الله طينة آدم اختار منها الأنبياء، واختار من الأنبياء المرسلين، واختار من المرسلين أولي العزم، واختار من أولي العزم الخليلين إبراهيم ومحمداً ﷺ. وقد جرت العادة أن الله لم يبعث نبياً إلا من الرجال، وفي ذلك يقول الله ﷻ في سورة يوسف: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ [يوسف: ١٠٩]، ويقول في سورة النحل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَشَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، ويقول في سورة الأنبياء: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَشَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧]، وطبيعة الأنبياء كطبيعة البشر، يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، وقد تكون لهم الأزواج والذرية على حد قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨]، وقد حماهم الله تعالى من كل سوء، وعصمهم من كل سيئة، ورباهم على عينه، واصطنعهم لنفسه على حد قوله تعالى لموسى ﷺ: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: ٤١]، وكقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلِئَصْنَعِ عَلِيٍّ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩]، وهداهم إلى أحسن سيرة، وجبلهم على أحسن سلوك؛ ولذلك أثر أن رسول الله ﷺ لما زار بني النجار مع أمه وسنه حوالي ست سنوات رأى غلمان بني النجار يسبحون في بئر عدي بن النجار، فأراد أن يسبح معهم، وعندما حاول نزع ثوبه أحس بيد قوية تمسك عليه ثوبه، ولاكم يلكمه، وسمع صوتاً يقول: لا تتجرد من ثيابك لست كهؤلاء الصبيان.

كما أثر أن رسول الله ﷺ كان ينقل الحجارة مع عمه العباس من أجياد قبل البعثة النبوية عند بنيان الكعبة، وكان الحر شديداً، وكانت الحجارة تكاد تطبخ اللحم من شدة حرها، وليس على عاتق الرسول ﷺ شيء يقيه حر الحجارة، وليس عليه إلا إزاره، فرحمه عمه العباس وقال: يا ابن أخي، لو أخذت إزارك فجعلته على عاتقك يقيك حر الحجارة، فلما رفض رسول الله ﷺ ذلك حتى لا تنكشف عورته، جذب عمه العباس إزار رسول الله ﷺ ليضعه على عاتقه، فخر رسول الله ﷺ مغشياً عليه وهو يقول: «إزاري إزاري فإنني قد نُهِيت

عن التجرد»، وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما واللفظ للبخاري من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: لما بُنيت الكعبة ذهب النبي ﷺ وعباس ينقلان الحجارة، فقال العباس للنبي ﷺ: اجعل إزارك على رقتك يقيك من الحجارة، فخر إلى الأرض وطمحت عيناه إلى السماء ثم أفاق فقال: «إزاري إزاري» فشد عليه إزاره. فهذه القصة تثبت أن الله تعالى ربّي النبي محمداً ﷺ على عينه، كما ربي إخوانه الأنبياء من قبل، والأنبياء بشر، لكنهم خير البشر، وأفضل البشر، وأطيب البشر، فالله يحميهم من كل سوء، يحميهم من الزنا، ومن السرقة، ومن شرب الخمر، ومن أكل الربا. وما دمنا نعلم أن الله قد عصم أنبياءه من الذنوب، وحماهم من المعاصي؛ فإننا نعلم أن كل ما يسوقه القصّاص من الأخبار الإسرائيلية عن الأنبياء والمرسلين من نسبتهم إلى جريمة من الجرائم، أو فاحشة من الفواحش، أو معصية من المعاصي؛ فإنها دسيسة من الدسائس التي يحاول بها اليهود الإساءة إلى أنبياء الله ورسوله، ويجب على كل من آمن بالله وصدق المرسلين أن ينزههم عنها وأن يبرئهم منها، أما حاجة الناس إلى الأنبياء والمرسلين فهي أشد من حاجتهم إلى الطعام والشراب.

والى فصل قادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الرابع

حاجة الناس إلى النبيين والمرسلين

أشرت في الفصل السابق إلى حاجة الناس إلى النبيين والمرسلين، وأن حاجتهم إلى النبوة والرسالة أشد من حاجتهم إلى الطعام والشراب؛ لأن الإنسان مدني بالطبع كما يقرر علماء الاجتماع، ومعنى كونه مدنياً بطبعه أنه لا يستغني عن الناس ولا يستغني الناس عنه، فهو محتاج إلى الناس؛ لأن الله خلقه على طبيعة وجبلة لا يتمكن معها من سد حاجاته بنفسه، فهو يحتاج إلى الطعام، والخبزة التي يأكلها لا يمكن أن يعملها بنفسه فلا بد فيها من الحب، والحبوب تحتاج إلى مقدمات كثيرة، فهي تحتاج إلى حرث الأرض، والحرث يحتاج إلى محراث، والمحراث لا بد له من نجار وحداد، كما أنها لا تصل إليه إلا بعد ري وزراعة وحصاد ودياس وطحان وعجان، وكل هذه لا تكفي فيها يد إنسان واحد بل قد صار لكل واحدة منها فئة من الناس يحترفونها، وكذلك لا يستغني الإنسان عن ملابس يلبسها، وهي لا تصل إليه إلا بعد أن يحترف فيها خلق كثير لجلب المادة الخام ونسجها وصناعتها وخياطتها إلى غير ذلك، ولكل واحد منها آلات تحتاج إلى عمل أيد كثيرة، والإنسان في حاجاته لا يقف عند حد، فلو ترك الناس لأنفسهم لسلب القوي الضعيف، والغني الفقير، والعزيز الذليل، ولصاروا كحيوانات الغابات، بل قد تكون حيوانات الغابات خيراً منهم؛ لذلك كانوا في أمس الحاجة إلى نظام يكفل لكل ذي حق حقه، ولما كانت البشرية تعجز عن وضع مثل هذا النظام لخضوع الإنسان لمؤثرات بيئية ونفسية تؤثر بالضرورة على معارفه، وما يراه هذا حسناً قد يراه الآخر قبيحاً على حد قول الشاعر:

يقضي على المرء في أيام محنته حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن

ولما كانت الأنظمة الوضعية التي يضعها الناس لا بقاء لها ولا دوام ولا

شمول اقتضت حكمة العليم الحكيم أن يضع للإنسانية النظام الذي يكفل سعادة البشر في العاجلة والآجلة. وهو العليم الخبير بخلقه ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] فهو الذي يضع لهم التشريعات، ويبين لهم الأحكام، ويبعث بها رسله، وينزل بها كتبه؛ فالناس في أمس الحاجة إلى النبيين والمرسلين.

ولما اقتضت حكمة الله تبارك وتعالى أن يجعل أول إنسان - وهو آدم أبو البشر - نبياً، وأعطاه الشريعة التي يسير على منهاجها هو وبنوه على قدر حاجتهم حينذاك في عباداتهم ومعاملاتهم. ثم تتوالى النبوات ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، فتتابع النبوات من آدم إلى أن ختمهم الله بحبيبه ورسوله وخير خلقه وأفضل رسله محمد ﷺ، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن سلسلة الأنبياء والمرسلين كانت متتابعة حيث يقول: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا﴾ [المؤمنون: ٤٤] متتابعة.

ولو قال قائل: إن قريشاً أقسموا ﴿بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِبْرَاهِيمَ الْأُمِّيِّ﴾ [فاطر: ٤٢] يعني اليهود والنصارى، فلما جاءهم أعظم المنذرين محمد ﷺ: ﴿مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢] وهو يشعر أن جزيرة العرب قد خلت من المنذرين قبل محمد ﷺ.

فالجواب: أن قريشاً يريدون نذيراً جديداً؛ لأن جزيرة العرب لم تخل من ذكر دين إبراهيم وإسماعيل. وقد استمرت الجزيرة العربية على دين إسماعيل وأبيه إبراهيم حتى جاء عمرو بن لحي بأصنام من الشام ونصبها في جزيرة العرب، فدخل أهل الجزيرة في الوثنية، حتى جاءهم شيخ المنذرين محمد ﷺ فدالت دولة الأصنام.

هذا وبعض الناس يذكر عدداً معيناً للأنبياء والمرسلين، والواقع أنه لم يصح عن رسول الله ﷺ تحديد لعدد الأنبياء والمرسلين، وإنما ذكر القرآن العظيم خمسة وعشرين منهم، جمع ثمانية عشر منهم في مقام واحد من سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (٨٣) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ

وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾
 وَذَكَرْنَا وَيْحَ عِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلِّ مِّنَ الْأَنْبِيَاءِ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا
 وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ [الأنعام: ٨٣ - ٨٦]، فهؤلاء الثمانية عشر رسولا
 ذكرهم الله تعالى في مقام واحد من سورة الأنعام، وذكر في مواضع أخرى من
 القرآن الكريم اسم سبعة منهم، جمعهم بعض الشعراء في قوله:

في تلك حجتنا منهما ثمانية من بعد عشر ويبقى سبعة وهمو
 إدريس هود شعيب صالح وكذا ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى كثرة الأنبياء، وأن منهم من قص خبره على
 رسول الله ﷺ ومنهم من لم يقصص عليه، حيث يقول ﷻ في سورة غافر:
 ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾
 [غافر: ٧٨]، فالأنبياء والمرسلون لا يعلم عددهم إلا الله وحده، والقول بحصرهم
 في عدد معين قول على الله بغير علم ما دام لم يثبت شيء من ذلك عن
 رسول الله ﷺ. والمسلمون لا غنى لهم عن قصص الأنبياء؛ لأنها النموذج
 الكامل للحياة العالية السعيدة.

❁ أعظم وظائف الأنبياء والمرسلين:

وأعظم وظائف النبيين هي: دعاية الخلق إلى الخالق بإخلاص توحيد
 وعبادته، وأنه لا إله إلا الله؛ ولذلك يقول الله ﷻ في سورة الأنبياء: ﴿وَمَا
 أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]
 كما أن من أهم وظائف النبيين والمرسلين رسم أكمل المناهج للحياة البشرية
 السعيدة ببيان ما ينفع الناس وحضهم عليه، وتحذيرهم من الشرور والآثام
 والتعدي والظلم وكل ما يلحق الضرر بعباد الله وخلق الله؛ كالزنا والسرقة وشرب
 الخمر والاعتداء على العباد وسائر الموبقات والفواحش والجرائم، فهم يأمرون
 الناس بالخير وينهونهم عن الشر حتى يكون المجتمع المستمسك بمنهج النبوة
 والرسالة مجتمعاً سعيداً مثاليّاً، وعلى رأس وظائف النبيين والمرسلين كما أشرت
 هو إخلاص التوحيد لله وحده، بمعنى أن العبد يؤمن بربوبية الله وألوهيته وأسمائه

الحسنى وصفاته العلى ويفرده بالتوحيد، فلا يبذل أي شيء من العبادة إلا لله وحده، فيكون إخبائه لله، وقنوته لله، وإنابته لله، ورجاؤه في الله، وخوفه من الله، وأقصى حبه لله، وأن غاية الذلة إنما تبذل لله وحده، فهو وحده المستحق لأعلى درجات الحب مع بذل أقصى غاية الذل له لا شريك له، ولا شك أن كل أمة تستمسك بمنهج النبوة والرسالة تسعد في العاجلة والآجلة، وكل انحراف عن منهج الأنبياء والمرسلين يدني الأمة من أسباب هلاكها ودمارها، ولقد كان من فضل الله علينا نحن المسلمين أن جعل نبينا ورسولنا محمداً ﷺ أكمل الأنبياء، ومنهجه أكمل المناهج وأبقاها وأنقاها وأشملها وأعمها، وختم به النبوة والرسالة، وجعل منهجه مهيمناً على جميع المناهج، وقد ضرب رسول الله ﷺ لنفسه مع إخوانه الأنبياء مثلاً فقال فيما رواه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به، ويمعجبون له، ويقولون: هلاً وضعت هذه اللبنة»، قال: «فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين».

والى فصل قادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الخامس

آدم ﷺ

نتحدث إليكم عن آدم ﷺ في نقاط تتناول قصة خلقه، وخلقته من أصناف تراب الأرض، ومقدار طوله، والشجرة التي نُهي عن الأكل منها، ومقدار لبثه في الجنة، وإهباطه من الجنة، وعدد أبنائه، وهل سمي ابناً له عبد الحارث؟ وذكر هبته من عمره لداود ﷺ، وما ذكر عن شعره في قتل ابنه، وهل بنى الكعبة؟ وهل توسل إلى الله بمحمد ﷺ؟ ورؤية النبي محمد ﷺ له ليلة الإسراء والمعراج، ثم نتحدث عن وفاته، ومكان دفنه، ثم ذكر احتجاج موسى وأدم بالقدر، ثم ذكر تأخره عن الشفاعة يوم القيامة.

أما قصة خلقه: فقد ذكرها الله تبارك وتعالى في مواضع كثيرة من كتابه الكريم، فهو يقول في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣١﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٣﴾ قَالَ يَتَّكِدُمْ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿البقرة: ٣٠ - ٣٣﴾، وقد ذكر الله تبارك وتعالى أنه خلقه من تراب، وأنه خلقه من طين، وأنه خلقه من صلصال كالفخار من حملاً مسنون، وأنه خلقه من طين لازب، حيث يقول في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ آل عمران: ٥٩﴾، ويقول في سورة الأعراف: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾،

ويقول في سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَكَةُ كُلُّهُمْ أَسْجُودًا ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ ابْنُ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَا بَلِيسَ مَا لَكَ إِلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِسَجْدٍ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿[الحجر: ٢٦ - ٣٣]، ويقول في سورة السجدة: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ [السجدة: ٧]، ويقول في سورة الصافات: ﴿فَأَسْتَفِينَهُمْ أَهْمُ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ [الصافات: ١١]، ويقول في سورة ص: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ [ص: ٧١]، ويقول في سورة الرحمن: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤]، وأصل ذلك أن الله تبارك وتعالى أخذ من تراب الأرض قبضة فخلق منها آدم، وقد اجتمع في هذه القبضة من التراب جميع ألوان تراب الأرض؛ ولذلك جاء بنو آدم على هذه الألوان، وهذه القبضة قد بلّها الله تعالى بالماء، ثم مرت عليها مدة حتى تحجرت فصارت صلصالاً.

والصلصال هو الطين المتحجر؛ لأن الطين إذا طبخ بالنار سمي فخاراً، وإذا لم يطبخ بالنار لكنه ترك حتى تحجر يسمى صلصالاً. فقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤] أي: من طين تحجر حتى صار شبيهاً بالفخار، وهو المطبوخ بالنار في تحجره وصلصلته إن قلنا إنه من صلصل بمعنى صَوَّتَ، وإن قلنا إنه من صلَّ بمعنى تغير، فإن الطين إذا مضت عليه مدة أنتن واسودَّ فيصير حمأً مسنوناً، أي أسود متغيراً له رائحة خاصة، فإذا يبس وتحجر صار كالفخار، والطين اللازب هو اللاصق، ويقال أيضاً لزب الطين إذا صلب. والحمأ المسنون هو الطين الأسود المتغير الرائحة المنتن.

وقد خلق الله تبارك وتعالى آدم بيده، وصوره وجعل طولهُ ستين ذراعاً، وقد روى أحمد وأبو داود والترمذي وقال الترمذي: حسن صحيح من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها

من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والسهل والحزن وبين ذلك، والخبيث والطيب وبين ذلك» كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «خلق الله آدم وطوله ستون ذراعاً ثم قال: اذهب فسلم على أولئك النفر من الملائكة فاستمع ما يجيبونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليكم ورحمة الله، فزادوه «ورحمة الله»، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن».

أما الشجرة التي نهى الله آدم عن الأكل منها: فقد ذكر بعض الناس أنها الحنطة، وبعضهم يذكر أنها التين، وبعضهم يذكر أنها العنب، ويذكر آخرون غير ذلك، ولم يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر في تعيين الشجرة، ولو كان في تعيينها خير لعينها الله تعالى وبينها، وما دام الله تعالى لم يبين نوع الشجرة ولم يبينه رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا حاجة إلى تكلف تعيينها ولا إلى معرفة نوعها، ولا ينبغي لأحد أن يقول على الله بغير علم، إنما المقصود أن الله تبارك وتعالى خلق آدم وأمره أن يسكن الجنة هو وزوجته التي خلقها له وأخرجها من ضلع من أضلاعه، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «استوصوا بالنساء خيراً، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج. فاستوصوا بالنساء خيراً».

وقد نهى الله آدم وزوجه أن يأكلا من شجرة عينها لهما، وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَآزَلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَلَقِيَ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة: ٣٥ - ٣٧]، ويقول في سورة الأعراف: ﴿وَبَقَادُمْ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ وَقَاسَمَهُمَا

إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَذَلَّلْنَاهَا بِرُؤُوسِهِ فَمَا ذَاكَ الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهَا سَوَاءُهُمَا وَطَافَا بِخَصِيفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ فَلَا رَيْبَآ ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿الأعراف: ١٩ - ٢٣﴾.

ويقول الله تعالى في سورة طه: ﴿فَقُلْنَا يَتَّادُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرَوْحِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا يَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴿١١٩﴾ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّادُمُ هَلْ أَذُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخَالِدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَّتْ لَهَا سَوَاءُهُمَا وَطَافَا بِخَصِيفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْبَنَهُ رَبُّهُ فَنَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿طه: ١١٧ - ١٢٢﴾، وقوله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٢١﴾ هو في الحقيقة من باب قولهم: إياك أعني واسمعي يا جارة، إذ ليس المراد هنا المعصية التي حمى الله منها أنبياءه ورسله، إذ ليس الأكل من هذه الشجرة كشرب الخمر أو الزنا أو قتل النفس بغير حق أو فساد في الأرض، وقد وصف الله تبارك وتعالى أكل آدم من الشجرة بأنه صدر عن نسيان حيث يقول: ﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَى وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾، والإنسان إذا فعل الشيء وهو ناسٍ رُفِعَ عنه القلم، وإنما عاتبه الله تبارك وتعالى لتنبهه وتنبه ذريته من دسائس إبليس والاحتراس من وسوسته؛ ولذلك يقول تعالى: ﴿يَتَنَبَّأُ آدَمُ لَا يَفْنَى كَمَا أَخْرَجَ آبَائِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَتَزَعُّ مِنْهَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَاءَهُمَا إِنَّهُ يَرَئِكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿الأعراف: ٢٧﴾، فالمقصود من هذا التصوير في قوله: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٢١﴾ [طه: ١٢١] هو التنصيص على أن الله رفع الإصر عن آدم حيث قال: ﴿ثُمَّ اجْبَنَهُ رَبُّهُ فَنَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿طه: ١٢٢﴾، فصار كأنه لم يأكل من الشجرة. وقد اقتضت حكمة الله أن يأكل آدم من الشجرة، والله يعلم أنه أكل منها لا محالة؛ لأنه لا بد وأن يسكن الأرض ويعمرها هو وذريته من بعده، ويجعل الله فيهم خيراً كثيراً، وعباداً صالحين وأنبياء ومرسلين.

ولا بد من الابتلاء والامتحان والاختبار في هذه الأرض، فكانت الصورة

الأولى للامتحان هو نهي الله له أن يأكل من الشجرة ونسيان آدم هذا النهي وأكله منها .

وقد اختلف أهل العلم في الجنة التي أمر آدم أن يسكنها هو وزوجه، وأكثر السلف من هذه الأمة على أنها جنة المأوى؛ لأن الصفات التي وصف الله بها هذه الجنة في قوله: ﴿إِنَّ لَكَ الْأَمْحُوجَ فِيهَا وَلَا تَعْرِىٰ ۗ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا نَصْحَىٰ﴾ [طه: ١١٨ - ١١٩] تدل على أنها جنة النعيم، كما أن الحديث الصحيح في قصة الشفاعة يوم القيامة أن آدم يقول للذين طلبوا منه الشفاعة: «وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم» .

وقد ذهب بعض السلف إلى أنها جنة في مكان عالٍ من الأرض، والراجح عند أهل العلم أنها جنة المأوى، فإذا قيل: إن كانت جنة المأوى فكيف يخرج آدم منها؟ ومن سكن جنة المأوى لا يخرج، فالجواب هو: أن من يسكن جنة المأوى ولا يخرج منها هو من يدخلها جزاء على عمله بعد أن يقضي عمره في الدنيا، حتى إذا مات على دين الأنبياء والمرسلين وتفضل الله عليه بدخول الجنة فإنه لا يخرج منها ولا يتحول عنها؛ لأنها دار جزاء المتقين. على حد قوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ۗ﴾ [النحل: ٢٠] جَنَّتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ۗ﴾ [النحل: ٣١] الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةَ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلِّمْ عَلَيْنَا أَدْخِلْنَا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٠ - ٣٢]، أما كون آدم يسكنها قبل أن يعمل شيئاً فهذا للامتحان والابتلاء والاختبار؛ لتكون هذه الصورة ماثلة أمام أعين ذريته دائماً، ليحذروا إبليس الذي أخرج أبويهم من الجنة.

أما مقدار لبث آدم في الجنة: فلم يعينه الله ولم يعينه رسول الله ﷺ، والقول فيه قول على الله بلا علم. وقد بين الله تعالى أنه أهبط آدم من الجنة كما قال في سورة البقرة: ﴿أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۗ﴾ [البقرة: ٣٦] فَلَنَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۗ﴾ [البقرة: ٣٧] فَلَمَّا أَهْبَطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٦ - ٣٨] .

وقال في سورة الأعراف: ﴿قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٤ - ٢٥]، وقال في سورة طه: ﴿قَالَ أَهْبِطْ مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٤].

أما عدد أبناء آدم ﷺ: فلم يصح فيهم أيضاً خبر عن الله أو عن رسول الله ﷺ، وبعض الناس يقول: إن حواء ولدت لآدم أربعين ولداً في عشرين بطناً، وبعضهم يقول: ولدت حواء مئة وعشرين بطناً، في كل بطن ذكر وأنثى. وقال ابن كثير في تاريخه: وقد ذكر أهل التاريخ أن آدم لم يمت حتى رأى من ذريته من أولاده وأولاد أولاده أربع مئة ألف نسمة. ١. هـ. والعلم في ذلك كله عند الله ﷻ.

أما دعوى أن آدم سمي ولداً له عبد الحارث وأنه المشار إليه في قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّيَا حَمَلًا حَقِيقًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِن آتَيْنَا صَلَاحًا لَّنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٩ - ١٩١]، وهذا قول على آدم بغير دليل صحيح، وتأويل للآية على غير وجهها، فأما ما رواه أحمد والترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم من طريق عبد الصمد بن عبد الوارث عن عمر بن إبراهيم عن قتادة عن الحسن البصري عن سمرة عن النبي ﷺ قال: «لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال: سميه عبد الحارث فإنه يعيش، فسمته عبد الحارث فعاش، وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره».

وقال الترمذي: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم، ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه. قال ابن كثير في تاريخه: فهذه علة قاذحة في الحديث أنه روي موقوفاً على الصحابي، وهذا أشبه، والظاهر أنه تلقاه من الإسرائيليات، وهكذا روي موقوفاً عن ابن عباس، والظاهر أن هذا متلقى عن

كعب الأحبار وذويه والله أعلم، وقد فسر الحسن البصري هذه الآيات بخلاف هذا، فلو كان عنده عن سمرة مرفوعاً لما عدل عنه إلى غيره. ١. هـ.

وهذا تفسير عجيب لهذه الآيات، كيف يكون أول شرك في الأرض من آدم وزوجه، والمعروف أن الشرك الأصغر أكبر من الزنا والقتل وشرب الخمر والسرقة، كما أن المعروف أنه لم يقع شرك في الأرض إلا في أمة نوح ﷺ، ولا شك أن المراد بقوله: ﴿خَلَقْنَا مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ هو آدم، وأن قوله: ﴿وَجَعَلْ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يعني حواء. أما قوله: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيًّا﴾ إلى آخر الآيات، فهو انتقال بعد ذكر آدم وزوجته، واستطراد إلى ذكر الجنس والذرية، فإن من الأساليب البلاغية أنه قد يذكر الشيء ثم يستطرد إلى ذكر جنسه على حد قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ [المؤمنون: ١٢ - ١٣] فالمخلوق من الطين آدم، والمخلوق من النطفة بنوه وذريته، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥]، فالمعلوم أن رجوم الشياطين ليست هي أعيان مصابيح السماء، ولكنه استطراد من شخصها إلى جنسها، فأدم ﷺ يحميه الله من الشرك الأصغر ومن الشرك الأكبر.

والى فصل فادم انت شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل السادس

تابع: آدم ﷺ

قد ذكرت في ختام الفصل السابق أن الله تبارك وتعالى ذكر في سورة الأعراف قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلتْ دَعَا اللَّهَ رَبُّهُمَا لِيَنزِلَ عَلَيْنَا مَصَلِحًا فَلَمَّا أَتَاهُمَا صَلِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا فَتَعَلَّى اللَّهَ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٦٩﴾ أَلشُّرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٩ - ١٩١]، وقلت: إنه قد دُس في بعض الأخبار المنسوبة إلى رسول الله ﷺ أن حواء لم يكن يعيش لها ولد في أول الأمر، فوسوس لها الشيطان إذا أرادت أن يعيش لها ولد أن تسميه عبد الحارث ليدخل الشرك على الناس. وهذا عجيب، إنها خلقت لعمارة الأرض فكيف لا يعيش لها ولد؟ قال ابن كثير رَضِيَ اللَّهُ فِي تَارِيخِهِ: فالله تعالى إنما خلق آدم وحواء ليكونا أصل البشر وليث منهما رجالاً كثيراً ونساءً، فكيف كانت حواء لا يعيش لها ولد؟ ١.هـ.

وقوله تعالى: ﴿حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ﴾ أي: نطفة لا ثقل لها في البطن، فصارت المرأة تذهب وتجيء لخفة حملها وسهولته، وقوله: ﴿فَلَمَّا أَثْقَلتْ﴾ أي: كبر بطنها، وثقل عليها حملها واقترب وقت الولادة، وقوله: ﴿دَعَا اللَّهَ رَبُّهُمَا لِيَنزِلَ عَلَيْنَا مَصَلِحًا فَلَمَّا أَتَاهُمَا صَلِحًا﴾ أي: سأل الله ﷻ وتضرعا إليه أن يرزقهما ولداً صالحاً ليشكره، ﴿فَلَمَّا أَتَاهُمَا صَلِحًا﴾ أي: ولداً صالحاً ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا﴾ أي: لم يقوما بشكر نعمة الله بل جعلا لله شركاء فيما أنعم به عليهما. وهذان الزوجان المشركان لم يقصد بهما آدم وحواء قطعاً، وإنما هو توبيخ لمن يشرك بالله من جنس بني آدم؛ ولذلك قال: ﴿فَتَعَلَّى اللَّهَ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ولو كان المراد به آدم وحواء - عصمهما الله من ذلك - لقال: «فتعالى الله عما

يشركان»، والآية ظاهرة في أن المراد بالشرك هنا ما يعم الشرك الأصغر والأكبر، ولذلك زاد في توبيخهم والتنديد بهم حيث قال: ﴿أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١ - ١٩٢]. وأهل العلم متفقون على أن قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾. هما آدم وحواء، وانتهى الكلام هنا في ذكر الأصل - آدم وحواء - ثم استطرده إلى الجنس، وهذا أسلوب بلاغي كما ذكرت في الفصل السابق، فقوله: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ أي: الوالد والوالدة من جنس بني آدم وحواء، وقد أشار في صلب الآية إلى أنه ليس آدم وحواء بقوله: ﴿فَتَعَلَى اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وأما قصة هبته من عمره لداود: فقد رواها أحمد والطبراني من طريق علي ابن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «أول من جحد آدم» - قالها ثلاث مرات - «إن الله ﷻ لما خلقه مسح ظهره فأخرج ذريته فعرضهم عليه، فرأى فيهم رجلاً يُزْهِرُ، فقال: أي رب! من هذا؟ فقال: هذا ابنك داود، قال: يا رب! كم عمره؟ قال: ستون عاماً، قال: أي رب! فزد في عمره، قال: لا، إلا أن تزيده أنت من عمرك فزاده أربعين سنة من عمره. فكتب الله تعالى عليه كتاباً وأشهد عليه الملائكة، فلما أراد أن يقبض روحه قال: إنه بقي من أجلي أربعون سنة، فقيل له: إنك قد جعلتها لابنك داود، قال: فجحد، فأخرج الله الكتاب وأقام عليه البيّنة، فأتىها لداود مئة سنة وأتم لآدم عمره ألف سنة». فهذا الخبر لا يصح عن رسول الله ﷺ بحال؛ لأنه يدور على علي بن زيد وفي حديثه نكارة، وقد أخرج نحوه الترمذي بسند فيه هشام بن سعد، وقد وصف بأنه له أوهام وقد رُمي بالتشيع، والظاهر أن هذا من أوهامه، كما رواه ابن أبي حاتم من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وهو ضعيف عند المحدثين، ولا يجوز أن يوصم أبو البشر نبي الله آدم ﷺ بالجحود بمثل هذه الأخبار، إذ الجحود من الأمور المذمومة التي لا يرتضيها عوام المسلمين لأنفسهم، فكيف يوصف بها نبي من أنبياء الله؟!!

أما ما ذكر من شعره لما قتل قابيل أخاه هابيل فلا ينبغي لمن ينتسب للعلم

أن ينسب مثله لآدم ﷺ؛ لأنه لم ينقل عن خبر معصوم ولا يدعي أحد صحة سند فيه، وهذا الشعر المزعوم هو:

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبر قبيح
تغير كل ذي لون وطعم وقلّ بشاشة الوجه المليح

أما ما ذكر من توسله بمحمد رسول الله ﷺ؛ فهو لا يصح كذلك، وقد رواه الحاكم والبيهقي وابن عساكر من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما اقترب آدم الخطيئة قال: أي رب! أسألك بحق محمد إلا غفرت لي. فقال الله: كيف عرفت محمداً ولم أخلقه بعد؟ فقال: يا رب! لأنك لَمَّا خلقتني بيدك ونفخت فيّ من روحك رفعتُ رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوباً: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فعلمت أنك لم تضيف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك، فقال الله: صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إليّ، وإذ سألتني بحقه فقد غفر لك، ولولا محمد ما خلقتك». قال البيهقي: تفرد به عبد الرحمن بن زيد بن أسلم من هذا الوجه وهو ضعيف.

أما رؤية رسول الله ﷺ لآدم ليلة الإسراء والمعراج؛ فقد رواها البخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة في خبر الإسراء والمعراج، وفيه: «فانطلق بي جبريل حتى أتى بي إلى السماء الدنيا فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أوقد أرسل إليه؟ قال: نعم. فقيل: مرحباً به، ولنعم المجيء جاء، ففتح لنا، فلما خلصت فإذا فيها آدم، قال: هذا أبوك آدم فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد السلام ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح...» إلخ. وفي رواية للبخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك عن أبي ذر رضي الله عنه: «فُعُجِرَ بي إلى السماء الدنيا، فلما جئت إلى السماء قال جبريل لخازن السماء: افتح، قال: من هذا؟ قال: جبريل، قال: هل معك أحد؟ قال: معي محمد ﷺ، فقال: أُرْسِلَ إليه؟ قال: نعم، فلما فتح علونا السماء الدنيا، فإذا رجل قاعد، على يمينه أسودة، وعلى يساره أسودة، إذا نظر قبل

يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى، فقال: مرحباً بالنبى الصالح والابن الصالح، قال: قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم، وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نسم بنيه، فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار، فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر عن شماله بكى... إلخ الحديث.

وقد أقرَّ آدم لرسول الله ﷺ في حديث الإسراء بالنبوة والبنوة لآدم ﷺ، فصلوات الله وسلامه عليهما وعلى النبيين أجمعين.

أما عمر آدم عند وفاته ومكان دفنه: فلم يرد في ذلك خبر صحيح عن رسول الله ﷺ يثبت أين مات آدم ﷺ وأين دفن فالعلم في ذلك عند الله ﷻ.

والى الفصل القادم إن شاء الله تعالى، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل السابع

تابع: آدم ﷺ

أشرت في فصل سابق إلى احتجاج موسى وادم بالقدر، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «حاجَّ موسى آدم ﷺ فقال له: أنت الذي أخرجت الناس بذبك من الجنة وأشقيتهم؟ قال آدم: يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، أتلومني على أمر قد كتبه الله عليّ قبل أن يخلقني أو قدره عليّ قبل أن يخلقني. قال رسول الله ﷺ: فحجَّ آدم موسى»، أي فغلب آدم موسى في هذه المحاجة.

أيها القراء الكرام: إن الاحتجاج بالقدر ينبغي أن يلاحظ فيه أمران؛ فالقدر إما أن يقترن بمصائب أو يقترن بمعائب، إذ قد يرتكب الإنسان جريمة كالزنا أو السرقة أو شرب الخمر أو القتل أو غير ذلك من المعاصي، فإذا قيل له: لم فعلت ذلك، قال: قدر الله، أو قدر الله، أو قضاء الله، ونسب عمله إلى القدر، وهذا خطأ؛ فإنه لا يحق الاحتجاج بالقدر على ارتكاب المعاييب؛ لأن الله لم يبين له القدر قبل ارتكاب الجريمة وأنه سيرتكبها، ولم يأذن له في ارتكاب هذه الجريمة. أما إذا أصيب إنسان بمصيبة من المصائب التي لم يقع فيها بإرادته واختياره كالمرض أو الفقر أو انقلب مثلاً وهو نائم على شخص فقتله، أو انفلتت منه حصة أو نحوها على شخص فأصابته من غير قصد منه، أو غلبته عينه رغم أنفه فنام عن الصلاة حتى طلعت الشمس فله أن يحتج في كل هذه المصائب بالقدر؛ لأن هذا الذي وقع منه خارج عن إرادته، وله أن يقول: قدر الله وما شاء فعل.

وقد أشار إلى هذا رسول الله ﷺ، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من

المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»، فهذا الحديث يضع أوضح قواعد السلوك فيما يحتاج به من القدر، وما لا يحتاج به، فما أصاب الإنسان من شر لا إرادة له فيه فإن له أن يحتاج بالقدر. وما فعله بإرادته من المعايب لا يجوز أن يحتاج فيها بالقدر؛ لأن المأذون له في عمله هو الخير وما ينفعه في عاجلته أو آجلته، ولذلك صدّر رسول الله ﷺ هذا الحديث بقول: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز». وآدم ﷺ لم يُهَيَّبِ العباد إلى الأرض ولم يكن إخراجهم من الجنة بيده، وأكله من الشجرة وإن كان سبباً لهبوطه إلى الأرض لكنه فعله بغير قصد كما أسلفت، فلا دخل لآدم في إخراج الناس من الجنة وإهباط العباد إلى الأرض وإن ذلك كله لله وحده، فاحتجاج موسى ﷺ على آدم لعله كان نوعاً من المداعبة منه لأبيه آدم ﷺ، وموسى لا يخفى عليه مثل ذلك. وهو عندما وكز القبطي فقضى عليه قال: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ [القصص: ١٥]، وموسى ﷺ لا يؤاخذ بذلك؛ لأنه لم يقصد قتل الرجل، كما أن آدم ﷺ قد وصف الله أكله من الشجرة بأنه عن نسيان، حيث يقول: ﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا لِآدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ [طه: ١١٥]، ولا شك أن القلم مرفوع عن الناسي كما أنه مرفوع عن النائم. فما فعله الإنسان عن نسيان أو في نومه فإن الله تعالى لا يؤاخذ عليه، وكان آدم ﷺ قال لموسى ﷺ: (أنا لم أخرجكم من الجنة، وإنما أخرجكم الله الذي رتب الإخراج على أكلي من الشجرة وقد أكلت منها عن نسيان، وقد قدر الله عليّ ذلك قبل أن أُخْلَقَ، فأنت تلومني على أمر ليس له نسبة إليّ أكثر من أني نهيت عن الأكل من الشجرة فأكلت منها، وكون الإخراج مترتباً على ذلك ليس من فعلي، فأنا لم أخرج نفسي ولم أخرجكم من الجنة وإنما كان هذا من قدر الله وقضائه، وله الحكمة في ذلك)، فلذلك غلب آدم موسى في الاحتجاج.

أما ما جاء في حديث الشفاعة لاستفتاح الجنة يوم القيامة وتأخر آدم عن

ذلك بقوله: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم. فلأن صورة ما حدث هو صورة الخطيئة، كما أن ما حدث من موسى ﷺ في قتل القبطي هو صورة الخطيئة، لكن الله لا يؤاخذ أحداً منهما بما فعل؛ لأنه لم يكن عن قصد، وحديث الشفاعة هذا قد أخرجه مسلم في صحيحه من طريق أبي مالك الأشجعي عن أبي حازم عن أبي هريرة ومن طريق أبي مالك الأشجعي عن ربيعي عن حذيفة قالا: قال رسول الله ﷺ: «يجمع الله تبارك وتعالى الناس فيقوم المؤمنون حتى تُزلف لهم الجنة فيأتون آدم فيقولون: يا أبانا استفتح لنا الجنة، فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم، لست بصاحب ذلك، اذهبوا إلى ابني إبراهيم خليل الله، قال: فيقول إبراهيم: لست بصاحب ذلك إنما كنت خليلاً من وراء وراء، اعمدوا إلى موسى ﷺ الذي كلمه الله تكليماً، فيأتون موسى ﷺ فيقول: لست بصاحب ذلك اذهبوا إلى عيسى كلمة الله وروحه، فيقول عيسى ﷺ: لست بصاحب ذلك، فيأتون محمداً ﷺ فيقوم فيؤذن له، وتُرسل الأمانة والرحم فتقومان جنبتي الصراط يميناً وشمالاً، فيمر أولكم كالبرق، قال: بأبي أنت وأمي أي شيء كمرّ البرق؟ قال: ألم تروا إلى البرق كيف يمر ويرجع في طرفة عين، ثم كمرّ الريح، ثم كمرّ الطير وشدّ الرجال تجري بهم أعمالهم، ونببيكم قائم على الصراط يقول: رب سلّم سلّم، حتى تعجز أعمال العباد، حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفاً، قال: وفي حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة بأخذ من أمرت به، فمخدوشٌ ناج ومكدوسٌ في النار»، والذي نفس أبي هريرة بيده إن قعر جهنم لسبعون خريفاً. وقوله في الحديث «وشدّ الرجال» أي عدو الرجال وسعيهم وسرعتهم في المشي.

والى فصل قادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الثامن

تابع: آدم ﷺ

لا شك أن آدم ﷺ كان نبياً من أنبياء الله، وأكثر أهل العلم على أنه كان نبياً رسولاً بدليل قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]، وتعريف الرسول ينطبق على آدم ﷺ سواء في ذلك التعريف المشهور عن العلماء وهو أنه من أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه، أو التعريف الذي اخترته ورجحته وهو أن الرسول من بعثه الله بشريعة جديدة؛ فأدم ﷺ قد جاء ولا شك بشريعة جديدة يحتكم هو وبنوه إليها، ويسيرون على منهاجها، وقال جماعة من أهل العلم: إن آدم كان نبياً ولم يكن رسولاً بدليل حديث الشفاعة الذي رواه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ في دعوة، فَرُفِعَتْ إِلَيْهِ الذَّرَاعُ وَكَانَتْ تَعْجِبُهُ فَهَسَّ مِنْهَا نَهْسَةً، وَقَالَ: «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. هَلْ تَدْرُونَ بِمَ؟ يَجْمَعُ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَيَبْصُرُهُمُ النَّاطِرُ وَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِيَ، وَتَدْنُو مِنْهُمْ الشَّمْسُ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ: أَلَا تَرُونَ إِلَيَّ مَا أَنْتُمْ فِيهِ؟ إِلَيَّ مَا بَلَّغْتُمْ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ إِلَيَّ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَيَّ رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ: أَبُوكُمْ آدَمُ، فَيَأْتُونَهُ، فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، وَأَسْكَنْكَ الْجَنَّةَ، أَلَا تَشْفَعُ لَنَا إِلَيَّ رَبِّكَ؟ أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ وَمَا بَلَّغْنَا؟ فَيَقُولُ: رَبِّي غَضِبَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَنَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتَهُ، نَفْسِي، نَفْسِي، أَذْهَبُوا إِلَيَّ غَيْرِي أَذْهَبُوا إِلَيَّ نُوحًا، فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَسَمَاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا، أَمَا تَرَى إِلَيَّ مَا نَحْنُ فِيهِ، أَلَا تَرَى إِلَيَّ مَا بَلَّغْنَا؟ أَلَا تَشْفَعُ لَنَا إِلَيَّ رَبِّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ،

نفسى نفسى..» إني الحديث. فقولهم: «أنت أول الرسل إلى أهل الأرض» يفيد أن آدم لم يكن رسولاً، لكن المثبتين لرسالة آدم يقولون: إن نوحاً أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض للتحذير من الشرك، إذ لم يكن قبل قوم نوح ﷺ شرك في الأرض، وإنما كانت المعاصي كلها دون الشرك كالقتل والظلم ونحوه، أو أن المراد من هذه الأولوية هو بالنسبة إلى شمول رسالته لكل أهل الأرض، ولم يكن أهل الأرض إلا قوم نوح ﷺ، ولم يكن على الأرض ناس سواهم، أما الرسول الذي شملت رسالته كل أهل الأرض عربهم وعجمهم وحتى الجن فهو محمد ﷺ، وأما من عدا نوحاً ومحمداً من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فلم تكن رسالتهم تشمل كل أهل الأرض وإنما هي خاصة لأقوامهم. ونوح وإن كان كذلك قد بعث إلى قومه خاصة لكنهم كانوا يومئذ كل أهل الأرض كما أشرت. قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري في كتاب أحاديث الأنبياء في باب قول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [هود: ٢٥] في عبارة: أنت أول الرسل إلى أهل الأرض: فأما كونه أول الرسل فقد استشكل بأن آدم كان نبياً، وبالضرورة تعلم أنه كان على شريعة من العبادة، وأن أولاده أخذوا ذلك عنه. فعلى هذا فهو رسول إليهم؛ فيكون هو أول رسول، فيحتمل أن تكون الأولوية في قول أهل الموقف لنوح مقيدة بقولهم: إلى أهل الأرض؛ لأنه في زمن آدم لم يكن للأرض أهل، أو لأن رسالة آدم إلى بنيه كانت كالترية للأولاد، ويحتمل أن يكون المراد أنه رسول أرسل إلى بنيه وغيرهم من الأمم الذين أرسل إليهم مع تفرقهم في عدة بلاد، وآدم أرسل إلى بنيه فقط وكانوا مجتمعين في بلدة واحدة. ١. هـ.

هذا وبعض أهل العلم يفسر قول رسول الله ﷺ في حديث الإسراء والمعراج عن يوسف ﷺ: «فإذا أنا بيوسف ﷺ» وإذا هو قد أعطي شطر الحسن» بأن المراد أن يوسف ﷺ أعطي نصف حسن آدم ﷺ، وإن كان بعض أهل العلم يفسر ذلك بأن يوسف قد أعطي شطر حسن الناس جميعاً، وبعضهم يفسره بأن يوسف ﷺ قد أعطي شطر حسن محمد ﷺ، وعلى كل حال فإن الله

تبارك وتعالى قد خلق آدم وركبه على أحسن صورة على حد قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، وقد استقر عند أهل جميع الأديان السماوية أن آدم أبو البشر، غير أنه قد نبغت نابغات من الإلحاد والزندقة في العصور المتأخرة فزعموا أن الشمس في أثناء دورانها السريع حول نفسها انفصلت منها قطعة أخذت تبتعد عنها قليلاً قليلاً وتتخذ لنفسها مجرى كمجرى أمها الشمس، وهذه القطعة هي الأرض، ويدعون أنه بطول الزمن برد سطح الأرض وإن كان باطنها لا يزال على حرارته، وقد أحاطت بها المياه، وأنه بطول الزمن آسن بعض هذا الماء فتوالدت فيه حيوانات مائية كهذه الحيوانات التي تتوالد في أي ماء آسن، ويرون أن من جملة هذه الحيوانات البحرية كان الإنسان، ويطلقون عليه في هذه الفترة (الإنسان المائي)، ثم بمرور الزمن الطويل البالغ (ملايين) السنين أخذ هذا الحيوان المائي يخرج إلى شواطئ البحار ويرعى الحشائش النابتة عليها، ثم يرجع إلى البحر ليعيش فيه شبيهاً بالتماسيح. ويطلقون عليه في هذه الفترة (الإنسان البرمائي)، ثم استطاع هذا الحيوان أن يتطبع بطباع البر وأن يعيش فيه طول حياته وأن يهجر حياة البحر، ويطلقون عليه طول هذه الفترة (الإنسان البري).

ثم يزعمون أن هذا الحيوان بعد فترات طويلة من التاريخ تبلغ «ملايين» كثيرة من السنين استطاع أن يتميز عن كثير من الحيوانات البرية الغابية، وأنه صار يستعمل أنواعاً من الآلات كالحجارة ونحوها؛ فارتفع وارتقى عن باقي الحيوانات التي لم تتميز بذلك، وقد رفع لواء هذه النظرية نصراني يقال له داروين، ونشطت اليهودية العالمية في ترويج نظرية داروين هذه لأنها تتماشى مع ما عرف باسم بروتوكولات حكماء صهيون وكذلك «الماسون» في العمل على تخريب العالم؛ ليتمكنوا من تأسيسه من جديد بحسب أهوائهم وشهواتهم. وقد أطلقوا عليها نظرية التطور والارتقاء^(١). وبالنظر المجرد إلى هذه النظرية نرى أن أصحابها لا

(١) بعد إعداد هذا الكتاب للطبع نشرت جريدة الشرق الأوسط السعودية في عددها رقم (٣٣٢٨) بتاريخ يوم الجمعة ١٩/٥/١٤٠٨ هـ الموافق لليوم الثامن من شهر يناير سنة ١٩٨٨ م تحت عنوان: «العلم يثبت أصل الإنسان» ما يلي: (واشنطن - مكتب الشرق =

يؤمنون بفاطر السموات والأرض، ولا يصدقون بأي كتاب سماوي؛ إذ الكتب السماوية المؤيدة بالمعجزات الحسية والعقلية تقرر أن الله خلق الأرض، وجعل فيها رواسي من فوقها، وبارك فيها وقدر فيها أقواتها، ثم خلق السموات وزين السماء الدنيا بمصاييح، وأنه خلق الملائكة المكرمين من نور، ثم الجان من نار السموم، ثم خلق آدم أبا البشر من طين فسواه بيده الكريمة على هذه الصورة الجميلة، وكرّمه على جميع المخلوقات في الأرض. والعجيب أن بعض الجاهلين يزعمون أن نظرية داروين في التطور والارتقاء قد قررها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْنَا أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٤]، مع أن القرآن شرح هذه الأطوار في مواضع كثيرة كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج: ٥]، وكقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر: ٦٧]، وكقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْعُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤] كما فسر رسول الله ﷺ أطوار خلق الإنسان كذلك، فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث عبد الله يعني ابن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو

= الأوسط: ضجت الأوساط العلمية في الغرب ولا سيما في الولايات المتحدة نبأ الاكتشاف الذي توصل إليه فريق من العلماء الأمريكيين بعد نحو عشر سنوات في البحث والدراسة في علم الوراثة والجينات، وقاد البحث إلى اكتشاف أن الجينات الثابتة في كل النوع البشري يمكن تقيها إلى امرأة واحدة (سماها فريق البحث بايف - أو حواء) انحدر منها كل البشر. وكانت خصبة الولادة. وإليها تعود الجينات الثابتة عند كل البشر، والبالغة نحو خمسة آلاف جين، وهذا ما جاء في التقرير العلمي الذي نشرته مجلة «نيوز ويك» الأمريكية هذا الأسبوع. ويحدد العلماء ظهورها على الأرض بأنه وقع في آسيا أو إفريقيا قبل نحو ٢٠٠,٠٠٠ سنة. وعلى هذا الأساس يمكننا اعتبارها جدتنا العشرة ألاف. وقد ناقضت هذه الاكتشافات كل ما ذهب إليه العلماء من قبل فيما يتعلق بظهور الإنسان على الأرض، وخاصة ما يتعلق بنظرية العالم الإنجليزي داروين حول أصل الإنسان). انتهى ما أورده جريدة الشرق الأوسط بحروفه.

الصادق المصدوق: «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً وأربعين ليلة، ثم يكون علقة مثله، ثم يكون مضغة مثله، ثم يُبعث إليه الملك فيؤذن بأربع كلمات فيكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد، ثم ينفخ في الروح «الحديث»». فيجب علينا معشر المسلمين أن نتفطن ونحذر من هؤلاء الدعاة إلى نظرية داروين في التطور والارتقاء؛ لأن الإيمان بها كفر بإله السموات والأرض.

هذا وقد أخبر رسول الله ﷺ أن آدم خلق في يوم الجمعة، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها». وهذا يدل على أن آدم عليه السلام خلق خلقاً واحداً لم يمر عليه الأطوار التي زعمها داروين وعصابته من الملاحدة والدهريين.

وأكتفي بهذه الشذرات من قصة آدم عليه السلام وقد بينت فيها ما جاء به الخبر عن الله، أو صح عن رسول الله، والواجب على كل مسلم ولا سيما أهل العلم أن يحترسوا من الإسرائيليات وما دسه اليهود على الأنبياء والمرسلين.

والى فصل قادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل التاسع

نوح ﷺ

نتحدث عن نوح عليه الصلاة والسلام أول أولي العزم من المرسلين، وأول رسول يحذر من الشرك وعبادة غير الله ﷻ، إذ كانت أمته هي أول الأمم المشركة على ظهر الأرض، وقد يقال لنوح: آدم الثاني؛ لأن جميع الباقيين على الأرض من ذريته على حد قوله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُرًّا أَبَاقِينَ﴾ [الصفات: ٧٧]، وقد اختلف الناس في المدة التي بين آدم وبين نوح عليهما الصلاة والسلام، فعند أهل الكتاب أن نوحاً ﷺ ولد بعد موت آدم بمئة وست وأربعين سنة، وذكر ابن جرير أن مولد نوح ﷺ كان بعد وفاة آدم بمئة وست وعشرين سنة، وقد ذكروا في عمود نسبه إلى آدم ثمانية آباء. وكل هذه الأقاويل في المدة التي بين آدم ونوح ﷺ، وكذلك ما ذكر في عمود نسبه إلى آدم هي أقاويل مرسله لا دليل عليها، وقد جاء في صحيح البخاري عن ابن عباس ﷺ قال: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام. فإن أريد بالقرن مئة سنة فيكون بين آدم ونوح ﷺ ألف سنة، وإن كان المراد بالقرن الجيل من الناس فيكون بين آدم ونوح ألاف السنين؛ لما عرف من أن الناس قبل نوح كانوا يعمرّون الدهور الطويلة. ولا يعلم تحديد ذلك إلا الله ﷻ، على أن قول حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس ﷺ: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام... لا يدل على الحصر في هذه القرون العشرة بين آدم ونوح ﷺ وإنما مراد ابن عباس ﷺ أن الإنسانية مر عليها عشرة قرون بعد آدم وقبل نوح، وكلها على دين الإسلام لم تشرك بالله شيئاً، وإنما هي على التوحيد الخالص لله ﷻ، ثم أدخل عليهم الشيطان أسباب الشرك وأوقعهم في ألوان من عبادة غير الله. فعبدوا الأصنام، وإلى هؤلاء المشركين بعث الله ﷻ نوحاً ﷺ، وقد ذكر

البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله عَلَيْكَ: ﴿وَقَالُوا لَا نَدْرُنَّ ءَالِهَتَكَ وَلَا نَدْرُنَّ وِدًّا وَلَا سِوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسَمُّوها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وانتسخ العلم عُبدت. وذكر الأصنام الخمسة الواردة في هذه الآية الكريمة لا يدل على حصر أصنام قوم نوح في هذه الخمسة، بل قد عبد قوم نوح أصناماً كثيرة، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك في قوله: ﴿لَا نَدْرُنَّ ءَالِهَتَكَ﴾ [نوح: ٢٣]، ثم عطف على ذلك قوله: ﴿وَلَا نَدْرُنَّ وِدًّا وَلَا سِوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]، وقد نقل عمرو بن لحي الخزاعي أصناماً إلى جزيرة العرب، بأسماء أصنام قوم نوح، ودعا إلى عبادتها، فأخذ بنو عذرة «وِدًّا» وجعلوه بدومة الجندل، واستمر بها إلى أن جاء الإسلام وهدمه خالد بن الوليد رضي الله عنه، كما أخذت مضر بن نزار سواعاً ونصبوه بيطن نخلة، وعبدته هذيل، واستمر حتى جاء الإسلام وهدمه، وأخذت مذحج يغوث ونصبوه في أكمة في بلادهم، واستمر كذلك حتى جاء الإسلام وهدمه، وأخذت همدان يعوق ونصبوه بقرية يقال لها خيوان، واستمر حتى جاء الإسلام وهدمه، وأخذت حَمِيرَ نَسْرًا وجعلوه في مكان بسبأ تعبد به حمير حتى جاء الإسلام وهدمه.

وقد ذكر الله تبارك وتعالى قصة نوح عليه السلام في سور شتى من كتابه الكريم، فذكرها في سورة الأعراف وفي سورة يونس، وفي سورة هود، وفي سورة الأنبياء، وفي سورة المؤمنون، وفي سورة الشعراء، وفي سورة العنكبوت، وفي سورة الصافات، وفي سورة اقتربت الساعة، كما جعل سورة نوح بتمامها في قصة نوح عليه السلام، كما ذكر الله عز وجل نوحاً عليه السلام في جملة من المرسلين في مواضع شتى من كتاب الله عز وجل، ولا شك أنه أول أولي العزم من المرسلين.

وقد أشرت كثيراً إلى أن من أهم فوائد قصص الأنبياء هي العبرة والتأسي بالأنبياء والرسل، والبُعد عما حذروا منه، وقد أطال الله تبارك وتعالى الحديث عن قصة نوح عليه السلام في موضعين من كتابه الكريم، أحدهما في سورة هود عليه السلام،

والآخر في سورة نوح ﷺ، وعندما تتمعن في مفردات هذه القصة وجملها تفك على الشيء الفريد العظيم من أساليب الدعوة إلى الله ﷻ وأساليب الهداية وتبصرة العباد بطريق الله ﷻ، وبيان ما عليه الكافرون وأعداء الله وأعداء المرسلين من محاربة الدين وأهله.

وقد بدأ الله ﷻ قصة نوح في سورة هود بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [هود: ٢٥]، وبهذا يعلم أن محمداً ﷺ ليس بدعاً من الرسل، وليس أول المنذرين، فهو في رسالته جاء على درب مسلك وطريق مطروق سار فيه قبله الأنبياء والمرسلون عليهم من ربهم أفضل الصلاة وأزكى السلام، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى هذه الحقيقة إذ قال في شأن هود ﷺ: ﴿وَأَذَكَّرْنَا أُنْحَا عَادٍ إِذْ أُنذِرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ الْبُيُوتُ مِنْ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢١]، ولتقرير هذه الحقيقة كان مطلع قصة نوح في سورة هود هو إعلان رسالة نوح ﷺ وإنذاره لقومه حتى يرتدع اليهود ومن على شاكلتهم الذين يقولون: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]. فأرسال الرسل مستقر في الفطرة السليمة تتناقله الأجيال جيلاً بعد جيل؛ ليعلم أن الله ﷻ أرسل الرسل ليدلوا العباد على مراسم سعادتهم في العاجلة والآجلة، ولئلا يقول الناس: ما جاءنا من بشير ولا نذير، وبعد أن ذكر أن نوحاً رسول من الله أعقب ذلك ببيان أهم وظائف المرسلين وهو دعوة الناس إلى إخلاص العبادة لله وحده حيث قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [هود: ٢٥ - ٢٦] وهذا ديدن جميع الأنبياء والمرسلين، أنهم يبدؤون قومهم بالدعوى إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له؛ لأن توحيد الله تبارك وتعالى هو الذي من أجله خلق السموات والأرض، ومن أجله خلق الإنس والجن، على حد قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥١﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الفصل العاشر

تابع: نوح عليه السلام

ذكرت في الفصل السابق أن نوحاً عليه السلام بدأ قومه بدعوتهم إلى توحيد الله تعالى وإخلاص العبادة له، وذكرت أن هذا هو دأب جميع الأنبياء والمرسلين؛ فجميع أنبياء الله ورسله إنما جاؤوا لقومهم ليعبدوا الله ويجتنبوا الطاغوت، وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]؛ لأنه من أجل حقيقة توحيد الله وإخلاص العبادة له وحده لا شريك له، خلق الله الإنس والجن على حد قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] ومن أجل توحيد الله رفع الله السموات وبسط الأرض، وأنزل الكتب وأرسل الرسل، وجعل الجنة والنار، وحرم الجنة على من مات وهو يشرك بالله شيئاً على حد قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، فتوحيد الله هو رأس العبادات، وهو أصل كل منهج يوصل إلى الله تعالى من المناهج التي رسمها أنبياء الله ورسله لأممهم وأقوامهم، وقد ذكر الله تبارك وتعالى أن نوحاً بعد أن دعا قومه إلى إخلاص العبادة لله وحذرهم من الشرك خوفاً من عذاب الله في الدار الآخرة، وأشار تبارك وتعالى إلى أن المستكبرين في الأرض بغير الحق أثاروا ثلاث شبه ليصدوا الناس عن دعوة نوح عليه السلام، وقد دحض الله شبههم وفضح باطلهم جملة وتفصيلاً، وذكر عاقبة المكذبين، وما من به على نوح ومن آمن به، وفي ذلك يقول: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٧٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْإِسْمِ ﴿٧٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرْنَكَ إِلَّا الْذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِآدَى الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَنْظُرُكُمْ كَذِبِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ يَقْتُوهُ

أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَدَيْهِ مِنْ رَبِّي وَءَالِنِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُصِيَتْ عَلَيْكُمُ أَنْزِلُكُمْ هَا وَنَادَىٰ لَهُمْ
 كَرِهُونَ ﴿٣٨﴾ وَيَقُولُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَىٰ اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ
 ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٣٩﴾ وَيَقُولُ مَنْ يَضُرُّنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ
 طَرَفْتُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي
 مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي
 إِذَا لِمَنِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ قَالُوا يَنْتُوخُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأَيْنَا بِنَا تَعَدْنَا إِنْ كُنْتَ
 مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ
 نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ
 ﴿٤٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَائِي وَأَنَا بِرِيءٌ مِمَّا يَجْحَرُونَ ﴿٤٥﴾
 وَأَرْجَىٰ إِلَىٰ نُوْحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِرَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا نَبْتَسِسُ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ
 ﴿٤٦﴾ وَأَصْنَعُ الْفُلَکَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُخْرَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَصْنَعُ
 الْفُلَکَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ سَخِرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ
 کَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٤٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحْمِلُ عَلَيْهِ عِدَابٌ مُقِيمٌ ﴿٤٩﴾ حَتَّىٰ
 إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُوْرُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ آتَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ
 عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٥٠﴾ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبَهَا
 وَمُرْسَتْهَا إِنْ رَبِّي لَغَفُوْرٌ رَحِيْمٌ ﴿٥١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوْحٌ ابْنَاهُ
 وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنِيْ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٢﴾ قَالَ سَتَأْتِي إِلَىٰ جَبَلٍ
 يَعْصِمُكَ مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجَعُ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ
 فَكَانَ مِنَ الْمُعْرِضِينَ ﴿٥٣﴾ وَقِيلَ يَتَّارِضْ أَبْلَىٰ مَاءِكَ وَيَسْمَأْهُ أَقْلَىٰ وَغِيصَ الْمَاءِ وَفُصِيَ الْأَمْرُ
 وَأَسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٥٤﴾ وَنَادَىٰ نُوْحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ
 أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ يَنْتُوخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ
 غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْلُنْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطَكُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٥٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي
 أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخٰسِرِينَ
 ﴿٥٧﴾ قِيلَ يَنْتُوخُ أَهْطِ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنَسِتْنَهُمْ مِمَّنْ
 يَمْسَهُمْ مِمَّا عَذَابَ آيَةٍ ﴿٥٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا

قَوْمِكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢٥﴾ [هود: ٢٥ - ٤٩]، وقد أبرز الله تبارك وتعالى في صدر هذه الآيات المباركات حقائق ثلاث هي أهم ما يدعو إليه الأنبياء والمرسلون، فالحقيقة الأولى هي وجوب العلم بأنه لا إله إلا الله، والحقيقة الثانية هي إثبات الرسالة، والحقيقة الثالثة هي الإيمان بالبعث بعد الموت، وقد لوحظ أن جميع السور المكية من القرآن الكريم يدور فلكها لتحقيق هذه الحقائق الثلاث، ولا شك أنه لا سعادة للإنسانية ولا استقرار لها ولا أمن ولا طمأنينة إلا إذا استظلت في ظل هذه الحقائق الثلاث، وآمنت بها، وسارت على منهاجها في جميع ما تفعل وما تذر من شؤون حياتها، وهذه الحقائق الثلاث نبه الله ﷻ عليها في مطلع قصة نوح هنا حيث قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْآخِرِ﴾، وقد ذكر الله تبارك وتعالى أن المستكبرين في الأرض من قوم نوح قد سارعوا فأثاروا ثلاث شبه ضد دعوة نوح ﷺ، ليضللوا المستضعفين عن قبول الحق الذي جاء به نوح ﷺ، وليصدوا عن سبيل الله، ورموا بهذه النظريات الفاسدة في وجه الحق، وقد لوحظ أن المسارعين إلى الكفر والعناد والمتجربين على نوح ﷺ هم الملأ، وهم رؤساء القوم ووجهائهم خوفاً على مناصبهم أن يذهب بها الدين الجديد الذي جاء به نوح ﷺ، وهذه الشبه الثلاث التي أثاروها هي أن نوحاً ﷺ من البشر، والشبهة الثانية أن أتباعه هم الفقراء، والفقير في نظرهم الفاسد يقتضي أن يكون الفقير غير ثاقب الرأي ولا عميق الفكر، والشبهة الثالثة أن نوحاً ﷺ ومن تبعه ليسوا زائدين عنهم في الخلق، ولا مزية لهم على غيرهم في التكوين الجسمي، وفي شبههم الثلاث هذه يقول الله ﷻ: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرْنِكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرْنَاكَ إِلَّا الْآلِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ كَفَرُوا بِالرَّأْيِ وَمَا نَرْنِي لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾.

والى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الحادي عشر

تابع: نوح ﷺ

ذكرت في الفصل السابق أن المستكبرين في الأرض بغير الحق هم الذين سارعوا إلى معارضة دعوة نوح ﷺ، وقد جرت العادة بأن الكبراء هم الذين يبدوون بمحاربة الأنبياء والمرسلين ودعاة التوحيد لله ﷻ، لاعتقادهم أنهم إذا ردوا هذا الحق استبقوا مناصبهم ورياستهم. ولذلك قال هنا: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرْبُكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ [هود: ٢٧]، والملأ هم وجوه القوم ورؤساؤهم وأعيانهم، وهذا أمر عجيب وفساد في الرأي ظاهر؛ إذ هم ينكرون نبوته؛ لأنه بشر. وهذه الشبهة بعينها وُجِّهت من أعداء المرسلين لرسولهم، فكلما جاء أمة رسول ردوا دعوته بدعوى أنه بشر، وقالوا كيف تكون رسولا وأنت من البشر، وجعلوا أن إرسال الرسول من البشر هو من أعظم منن الله على خلقه؛ لأنه هو الذي يتكلم بلسانهم ويتمكنون من مجالسته والاستفادة منه، ولو أرسل لهم ملكا لأرسله في صورة البشر، وقد وصف الله سائر المكذبين للرسول بأنهم ردوا دعوة الحق التي جاء بها المرسلون بدعوى أن الرسل بشر، حيث يقول تعالى في سورة إبراهيم: ﴿قَالَتْ رَسُولُهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ شَكُّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنَّ أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ (١١) قَالَتْ لَهُمْ رَسُولُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم: ١٠ - ١١]، وهذه الشبهة في غاية الضعف، وقد ردها الله تبارك وتعالى في مقامات من كتابه الكريم حيث يقول في سورة الإسراء: ﴿وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ (٩٤) قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَسْمَعُونَ مُطْمَئِنِّينَ

لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿ [الإسراء: ٩٤ - ٩٥]، وَيَبَيِّنُ أَنَّهُ لَوْ أُرْسِلَ رَسُولًا غَيْرَ بَشَرٍ وَجَعَلَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مَا أَطَاقَهُ النَّاسُ وَلَا يَتِمَكَّنُونَ مِنْ مَعَايِشَتِهِ، وَلِذَلِكَ يَقُولُ ﷺ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبُسُونَ﴾ [الأنعام: ٩]، فَالَّذِي يَفْرُونَ مِنْهُ لَا بَدَّ وَأَنْ يَقَعُوا فِيهِ، وَلَا طَاقَةَ لِلْبَشَرِ عَلَى مَصَاحِبَةِ الْمَلَائِكَةِ فِي دَارِ الدُّنْيَا، فَإِنْ جَبْرِيلُ ﷺ عِنْدَمَا تَبَدَّى لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ الْمَهْيَأُ ﷺ لِاسْتِقْبَالِ الْوَحْيِ، وَرَأَى جَبْرِيلَ جَالِسًا عَلَى كُرْسِيِّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَهُ سِتُّ مِائَةِ جَنَاحٍ يَمْلَأُ الْأَفْقَ خَافَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَرَعِبَ مِنْهُ وَرَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ وَقَالَ: زَمَلُونِي، وَذَلِكَ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ. فَلَوْ أَنَّ جَبْرِيلَ ﷺ جَاءَ لِلْبَشَرِ غَيْرِ الْمَهْيِيِّينَ لِلرِّسَالَةِ وَالْوَحْيِ مَا تَمَكَّنُوا مِنَ الْإِسْتِفَادَةِ مِنْهُ؛ وَلِذَلِكَ يَتَوَعَّدُ اللَّهُ ﷻ الْمَكْذِبِينَ الْمَعَانِدِينَ الَّذِينَ يَرُدُّونَ رِسَالَةَ الرِّسْلِ بِدَعْوَى أَنَّهُمْ بَشَرٌ، وَأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مَلَكِي، حَيْثُ يَقُولُ ﷻ فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى لِمُمْضٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٢١ - ٢٢]، وَقَدْ كَانَ جَبْرِيلُ ﷺ يَأْتِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أحيانًا فِي صُورَةِ رَجُلٍ كَدْحِيَّةِ بْنِ خَلِيفَةَ الْكَلْبِيِّ، وَأحيانًا يَأْتِيهِ فِي صُورَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَعْرَابِ، وَلَا يَعْرِفُ النَّاسُ أَنَّهُ جَبْرِيلُ حَتَّى يَخْبِرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِذَلِكَ بَعْدَ انْقِضَاءِ الْوَحْيِ وَذَهَابِ جَبْرِيلَ ﷺ، فَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدٌ بِيَاضِ الشَّيَابِ شَدِيدٌ سَوَادِ الشَّعْرِ؛ لَا يَرَى عَلَيْهِ أَثَرَ السَّفَرِ وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَسْنَدَ رِكْبَتَيْهِ إِلَى رِكْبَتَيْهِ وَوَضَعَ كَفِيهِ عَلَى فَخْذَيْهِ، وَقَالَ يَا مُحَمَّدُ! أَخْبَرَنِي عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَتَقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»، قَالَ: صَدَقْتَ، فَعَجَبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ، قَالَ: فَأَخْبَرَنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكِتَابِهِ، وَرَسُولِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ» قَالَ: صَدَقْتَ، فَأَخْبَرَنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ:

«أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، قال: فأخبرني عن الساعة، قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»، قال: فأخبرني عن أمارتها، قال: «أن تلد الأمة ربها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان» قال: ثم انطلق، فلبثت ملياً، ثم قال لي: «يا عمر أتدري من السائل؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم». فالرسل هم الذين يتهيئون للملائكة بما أعدهم الله تبارك وتعالى لذلك.

وعامة الناس إنما يتهيئون للملائكة في الجنة إذا ماتوا على الإيمان، كما يجعل الله الموكلين بعذاب الكفار في النار ملائكة غلاظاً شداداً لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. وقد كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي تفصد جبينه عرقاً في اليوم الشديد البرد، قالت عائشة رضي الله عنها: «كما جاء في صحيح البخاري ومسلم: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد وإن جبينه ليتفصد عرقاً، ومعنى يتفصد عرقاً أي يسيل العرق من جبينه، كما ذكر أن عنقه كان يسيل منه مثل الجمان، أي قطع الفضة أو اللؤلؤ من العرق عند نزول الوحي عليه ﷺ، مع أن رسول الله ﷺ قد أعد لذلك وهيئ له على حد قوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

أما الشبهة الثانية من شبه الملائكة الذين كفروا من قوم نوح فهي أن الذين اتبعوا نوحاً من الفقراء؛ ولذلك حكى الله عنهم أنهم قالوا: ﴿وَمَا نَرْكَأ أَبْعَاك إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧]. وهذا كذلك أمر عجيب، إذ إن هذه الشبهة مبنية على أن الغنى دليل العقل الثاقب والرأي السديد، وأن الإنسان إذا كان عنده مال صار عاقلاً حكيماً، مع أنه لا رابطة بين العقل والغنى على حد قول الشاعر:

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا
وكما قال الشاعر:

ولو كانت الأرزاق تجري على الحجا هلكن إذاً من جهلهن البهائم
والغنى والعلم والعقل والصحة وغيرها أرزاق يمنحها الله لمن يشاء من

خلقه؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ: «لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً»، فالله تبارك وتعالى قد يعطي إنساناً مالاً ولا يعطيه علماً، وقد يعطيه علماً ولا يعطيه مالاً، وقد يعطيه مالاً وعلماً، وأما كون أتباع الأنبياء من الفقراء فقد ذكره هرقل عظيم الروم لأبي سفيان كما جاء في صحيح البخاري.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الثاني عشر

تابع: نوح ﷺ

ذكرت في ختام الفصل السابق أن كون أتباع الأنبياء من الفقراء قد ذكره هرقل عظيم الروم لأبي سفيان رضي الله عنه، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنه أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش وكانوا تجاراً بالشام في المدة التي كان رسول الله ﷺ ماداً فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه وهم بإيلياء، فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه فقال: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: قلت: أنا أقربهم نسباً. فقال: أدنوه مني وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم إني سائل هذا عن هذا الرجل فإن كذبتني فكذبوه. قال: فوالله لولا الحياء من أن يأتروا عليّ كذباً لكذبت عليه، ثم كان أول ما سألتني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب. قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت لا. قال فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت لا. قال: فأشرف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم. وساق الحديث إلى أن قال: فقال لترجمانه: قل له: سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول، فذكرت أن لا، فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله، وسألتك هل كان من آبائه من ملك؟ فذكرت أن لا. قلت: فلو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه.

وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا. فقد أعرف إنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك أشرف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل...

الحديث، وفيه: فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به دحية إلى عظيم بصرى فدفعه إلى هرقل فقرأه، فإذا فيه: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإني عليك إثم الأريسيين، و﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَّامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

هذا وقد بين الله تبارك وتعالى في آخر سورة ﴿ص﴾ أن المشركين من قريش الذين ماتوا على الكفر يتحزنون يوم القيامة عندما يدخلون جهنم ولا يرون فيها الفقراء من أمثال صهيب وعمار وبلال وجعيل بن سراقة وخباب بن الأرت رضي الله عنهم، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴿١٦﴾ أَتَّخَذْتَهُمْ سَخِرِيًّا أَمْ رَآعَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿١٧﴾﴾ [ص: ٦٢ - ٦٣] فقد رفع الله تبارك وتعالى الفقراء لما آمنوا وأدخلهم الجنة. وأدخل الكبراء والرؤساء في النار لما ماتوا على الكفر، ولما قالت قريش: ﴿لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: ٣١]، أي على غني من أغنياء مكة أو من أغنياء الطائف، قال تعالى موبخاً ومبيناً فساد رأيهم حيث يقول: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحْمَتَ رَبِّكَ حَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾ ولَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَنْوَابًا وَسُرَرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿الزخرف: ٣٢ - ٣٥﴾ والفقير أو الغني ليس معياراً لمقادير الرجال ومقاييسهم، فالمرء لا يقاس بغناه أو بفقره، وقد يكون الرجل غنياً وهو لا يساوي في عين الله شيئاً، ولا عند الناس وقد يكون فقيراً وهو عند الله عظيم.

وقد مر رجل من الأغنياء برسول الله ﷺ وأصحابه فسألهم عنه فقالوا: حري به إن خطب أن ينكح، وإن قال أن يستمع، وإن شفع أن يشفع، ثم مر به رجل من فقراء المسلمين وهو جعيل بن سراقه، فقال: «ما تقولون في هذا؟» قالوا: حري به إن خطب ألا ينكح، وإن قال ألا يستمع، وإن شفع ألا يشفع. فأخبرهم رسول الله ﷺ عن هذا الفقير أنه يساوي ملء الأرض من هذا الغني. فقد روى البخاري في صحيحه من حديث سهل بن عبد الله قال: مرّ رجل على رسول الله ﷺ فقال: «ما تقولون في هذا؟» قالوا: حري إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفع، وإن قال أن يستمع، قال: ثم سكت. فمر رجل من فقراء المسلمين فقال: «ما تقولون في هذا؟» قالوا: حري إن خطب ألا ينكح، وإن شفع ألا يشفع، وإن قال ألا يستمع، فقال رسول الله ﷺ: «هذا - يعني الفقير - خير من ملء الأرض مثل هذا - يعني الغني -»، فجعل رسول الله ﷺ هذا الفقير الصالح خيراً من ملء الأرض من أغنياء غير صالحين، علماً بأن الغنى الحقيقي ليس عن كثرة العرض وإنما الغنى غنى النفس، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليس الغنى عن كثرة العرض وإنما الغنى غنى النفس». على أن الغنى والفقر أعراض تتبدل وتتغير؛ فالمال ظل زائل وعارية مستردة. والله در الشاعر حيث يقول:

لا تهين الفقير عليك أن ترقع يوماً والدهر قد رفعه

وقد نبّه الله تبارك وتعالى إلى سوء فهم من يظن أن الغنى يرفع قيمة الرجل في الحقيقة، حيث يقول: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُنزِّلُهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ (٥٥) سَاعٍ لَمْ يَفِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥ - ٥٦]، ولذلك كان الميزان العدل يوم القيامة أن يرفع الصالحين ولو كانوا في الدنيا فقراء مستضعفين في أعين الناس، وأن يخفض غير الصالحين ولو كانوا كبراء أغنياء، وفي ذلك يقول ﷺ: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لَوْقَعِهَا كَذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ [الواقعة: ١ - ٣]. فرب كاسية في الدنيا عارية عند الله يوم القيامة، ويا ربّ عارية في الدنيا كاسية عند الله يوم القيامة.

وهذه الشبهة التي أثارها المستكبرون من قوم نوح قد أثارها المستكبرون من قريش حتى طلبوا من رسول الله ﷺ أن يبعد الفقراء عن مجلسه ليجيئوا إليه، وأنهم لا يرضون أن يجالسوا هؤلاء الفقراء، فقال الله تعالى لرسوله وحببيه محمد ﷺ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢ - ٥٣]، فالمرء بأصغريه قلبه ولسانه، لا يقاس بماله ولا جماله ولا طوله ولا عرضه، وبهذا يتضح أن الشبهة الثانية التي أثارها قوم نوح هي شبهة داحضة عاطلة باطلة فاسدة كاسدة.

أما الشبهة الثالثة من هذه الشبه فهي أن نوحاً والمؤمنين به لا مزية لهم في الخلق على غيرهم، وقد حكى الله تبارك وتعالى هذه الشبهة عنهم في قوله: ﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْهَا مِنْ فَضْلٍ﴾ [هود: ٢٧] علماً بأن قولهم هذا يرد شبهتهم بدعواهم أنهم أفهم من الفقراء الذي وصفوهم بأنهم أراذل بادي الرأي؛ لأنهم لم يتميزوا في شيء من خلقتهم على الفقراء. فتركيب أجسام الجميع سواء. وهذه الشبهة بعينها أثارها الكفار ضد جميع المرسلين، وهي تنبئ عن عقلية فاسدة ونظرية مادية ملحدة، فهم يريدون أن يتحكموا في رحمة الله، وأن يحجروا على فضل الله، وقد بدأ نوح ﷺ في رد هذه الشبهة وصدربها الأجوبة الشافية الكافية، حيث قال لهم فيما حكى الله ﷻ عنه: ﴿قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَإِنِّي رَحْمَةٌ مِّنْ عِنْدِهِ فَعَمِيَّتْ عَلَيْكُمْ أَنْزَلْنَاكُمْ مَوَاطِنَ أَنْتُمْ لَهَا كُرَاهُونَ﴾ [هود: ٢٨]، فهو يجيبهم بأن النبوة رحمة من الله، وهدى من فضله، ولا يملك أحد من خلقه التحكم فيها فيمنحها من يشاء ويمنعها عن من يشاء، وخزائن رحمة الله بيده هو لا شريك له، ولذلك رد الله تبارك وتعالى في سورة الإسراء على من أنكر أن يكون الرسول بشراً بدعوى أنه لا مزية لبشر على بشر فقال: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠]، وقال تعالى في سورة ص مثيراً لشبهتهم مبطلاً له حيث يقول: ﴿أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا

بَلْ هُمْ فِي شَكِّ مِّنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدْفَعُوا عَذَابَ ﴿٨﴾ أَمَّ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ [ص: ٨ - ٩]، وكان نوحاً ﷺ يرد شبهة قومه فيقول لهم: ماذا أفعل لقلوبكم إذا كانت متحجرة لا تؤمن بالله ولا تصدق المرسلين، ولا تبحث عن أسباب سعادتها، وليست خزائن الله بيدي أتصرف فيها كما أشاء، بل خزائن الله بيده هو جل وعلا، يمنح من يشاء ويمنع من يشاء، فله وحده خزائن السموات والأرض، كما أن قلوب العباد بيد الله يصرفها كيف يشاء، ولا سلطان لي على قلوبكم ولا سيطرة لي عليها، ثم يبرز نوح ﷺ حجة قوية في الدلالة على رسالته وصدقه فيما يخبر به فيقول لهم: ﴿وَيَقُولُوا لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [هود: ٢٩] أي أنا لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجراً، مع أنني أدعوكم إلى أسباب سعادتكم في الدنيا والآخرة. إذ هو يدعوهم لأقوم المناهج وأحسن أساليب الحياة الطيبة؛ مما يجلب لهم عز الدنيا ورضوان الله في الآخرة لو ساروا على المنهج الذي جاء به نوح ﷺ. ولا شك أن من يتصب للدعوة لإقامة هذا المنهج الراشد الذي يحفظ لهم أنفسهم وأموالهم وأعراضهم وعقولهم دون أن يطلب منهم أجراً في مقابلة عمله هذا الذي يعود عليهم بكل خير ويحفظهم من كل شر مع تعرضه لتكذيب المكذبين وعناد المعاندين وافتراء المفتريين وأذى السفهاء الجاحدين، لا بد وأن يكون صادقاً، ولا شك أن دعوة جميع الأنبياء والمرسلين تدور في فلك الكليات الخمس، وهي حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ العرض، والنسب، وحفظ العقل، وحفظ المال. وهي الأساس المتين للمجتمع المثالي السعيد، وقد دلت تجارب الإنسانية في تاريخها الطويل أنه ما استمسكت أمة بمنهج نبيها إلا عزت وسعدت، ولا انحرفت أمة عن منهج الأنبياء والمرسلين إلا ذلت وهانت، ولو أن جماعة من الجماعات أو أمة من الأمم أرادت أن تضع لنفسها منهجاً يحفظ عليها مصالحها لأنفقت أموالاً جزيلة على (اللجان والهيئات) التي تقوم بوضع المنهج الذي تطلبه والذي قد تقضي في إعداده الأشهر والسنين، ومع ذلك لا بد وأن يكون أبتراً قاصراً قد يحتاج إلى تعديل وتبديل وتعديل التعديل وتبديل التبديل مرات ومرات، كما هو الحال في

جميع الأنظمة الوضعية التي تتقاصر جملة وتفصيلاً عن منهج الأنبياء والمرسلين؛ لأن المناهج الإلهية يضعها العليم الخبير؛ لذلك تتسم بالكمال والشمول لمصالح الدنيا والآخرة والغيب والشهادة مما لا مجال فيه ألبتة للنظريات الوضعية والمناهج الأرضية التي لا بقاء لها ولا شمول.

والى فصل قادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الثالث عشر

تابع: نوح ﷺ

استمر نوح صلوات الله وسلامه عليه في رد شبهات قومه، ونبه إلى أمر خطير، وهو أن الفقراء لا ينبغي أن يهانوا، ولا ينبغي أن يدلوا بسبب فقرهم؛ وأن من يتعرض للفقراء بالإهانة والإذلال يعرض نفسه لعقوبة الله العاجلة والآجلة؛ ولذلك يقول نوح ﷺ: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلَقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَىٰ ذُنُوبَكُمْ قَوْمًا بَٰتِلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَقُولُونَ مَنْ يُضْرِبُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرُوٓا۟ أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٢٩ - ٣١]، وهنا انقطعت حجة القوم وبان باطلهم وبطلت شبههم، فلم يجدوا إلا المكابرة واستعجال العذاب، فقالوا: ﴿يَبْنُوٓا۟ قَدَّ جَدَدَتَنَا فَٱكْثَرَتْ جِدَالَنَا فَإِنَّا بِمَا نَعْدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّٰدِقِينَ﴾ [هود: ٣٢] فأجابهم نوح ﷺ بأنه ليس بيده تعجيل عقوبتهم أو تأجيلها، إنما تعجيل العقوبة أو تأجيلها بيد الله وحده، وفي ذلك يقول: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهٖ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [هود: ٣٣] أي إذا أراد الله إنزال العقوبة بكم لا تستطيعون الفرار منها، ولا تتمكنون من دفعها عنكم، ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمُ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود: ٣٤] فنواصيكم بيده، يحكم فيها بما يشاء لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، وأنا لا أملك لكم نفعاً ولا ضرراً، وإنما عليّ البلاغ، وفي هذا التنبيه إشارة كريمة جميلة إلى وجوب إخلاص التوحيد لله ﷻ؛ لأن قلوب العباد بيد الله يهدي من يشاء فضلاً، ويضل من يشاء عدلاً، فمن علم في نفسه خيراً وفقه وسدده وأيده واستعمله في طاعته، ومن علم في نفسه شراً خذله، ووكله إلى نفسه، ومن كتب الله له الهداية لا يشقيه أحد، ومن كتب شقوته لا يهديه أحد.

ولذلك كانت زوجة نوح من الكافرين، بل جعلها الله قدوة سيئة لكل كافر إلى يوم القيامة، كما جعل امرأة فرعون مثلاً صالحاً وقدوة حسنة لكل مؤمن إلى يوم القيامة، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿١١﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَبِخْنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِيهِ وَبِخْنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٢﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِتْقَانُ الْإِسْلَامِ وَهُدًى وَرَحْمَةً مِنْ رَبِّهَا إِنَّهَا وَاسِعَةٌ عَلَى الْعِلْمِ إِنَّهَا رَبَّهَا ابْتِغَتْ وَابْتِغَى الْوَجْهَ الْكَرِيمَ ﴿١٣﴾﴾ [التحریم: ١٠ - ١٢].

الأسلوب نفسه الذي سلكه كفار قوم نوح مع نوح عليه الصلاة والسلام قد سلكه الكفار مع النبي محمد ﷺ، وسلكته سائر الأمم الكافرة مع أنبيائها ورسولها، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك في سورة ص حيث يقول: ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١١﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٢﴾﴾ إن كلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَجِدَةً مِمَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قِطْعًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص: ١٢ - ١٦] أي قالوا: ربنا عجل لنا نصيبنا من العقوبة قبل يوم القيامة استهزاءً برسول الله، وكفراً بالبعث بعد الموت، إذ يقولون لأنبيائهم: نحن لا نصبر على تأجيل العذاب إلى يوم القيامة، فإن كان عندكم عذاب لنا فعجلوا به. يحسبون أن نظام الكون يخضع لشهواتهم وتمنياتهم واقتراحاتهم ويجهلون أن كل شيء عند الله بمقدار؛ لأنه ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩]؛ ولذلك قال لهم نوح ﷺ: ﴿لَمَّا اسْتَعْجَلُوا الْعَذَابَ: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾﴾ [هود: ٣٣]؛ لأن الأمور كلها ترجع إليه وترد جميع قضايا الكون له وحده لا شريك له؛ ولذلك ينبغي للعاقل أن يضرع إلى الله أن يثبت قلبه بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأن يكثر من قول: «يا حي يا قيوم يا بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام، برحمتك أستغيث فأصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي أو إلى أحد من خلقك طرفة عين، إنك إن وكلتني إلى غيرك وكلتني إلى عجز وضعف وفاقه».

وبعد بيان موقف نوح ﷺ هذا لفت الله تبارك وتعالى انتباه الناس إلى إثبات رسالة محمد ﷺ وصدقه فيما يخبر به، وهو النبي الأمي ﷺ الذي أنزل الله عليه القرآن، فأخبر بما كان بين نوح وقومه ولم يكن شاهداً ولا دارساً حيث يقول ﷻ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَّغْنَاهُ قُلُوبَنَا أَنْ نَقَرِّبَهُنَّ فَفَعَلْنَا بِهِنَّ إِجْرَامًا وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا يَجْحَرُونَ﴾ [هود: ٢٥]. وبها يثبت فؤاد محمد ﷺ ويبرز العبرة من سياق قصة نوح ﷺ، وكما أشار إلى نحو ذلك في سياقه قصة موسى ﷺ حيث يقول: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْفُرْقَيْنِ إِذْ فَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٤٤) وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَابِتًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحِمْنَا مَن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٤ - ٤٦] وقد أخبر الله تبارك وتعالى نوحاً ﷺ أنه لن يؤمن من قومه بعد ذلك أحد حيث يقول: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدَّ آمَنَ فَلَا بَتَّيْسَ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦].

وهنا يتجلى موقف من المواقف الكبار لأنبياء الله ورسوله، وكثيراً ما يقفونها، وهو أن نوحاً ﷺ لما استيأس من قومه وعلم أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن بعد أن لبث ألف سنة إلا خمسين عاماً وقف خطيباً بينهم وقال: ﴿يَقْوَمُ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكَّرِي بِبَايَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُون﴾ [يونس: ٧١]، يقول لهم: هاتوا جميع معبوداتكم من دون الله وحزبوا أحزابكم وأصنامكم ضدي، وكونوا يداً واحدة عليّ وحاربوني إن قدرتم وكيدوا لي ما استطعتم ولا تمهلوني وانظروا أينما يؤيده الله ويسعده ويعزه ويعليه في الدنيا والآخرة.

وهذا مقام تتقاصر دونه مقامات كبار الرجال وصناديدهم من سير الأنبياء والمرسلين، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأٌ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَقْوَمُ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكَّرِي بِبَايَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُون﴾ [يونس: ٧١].

والى فصل قادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الفصل الرابع عشر

تابع: نوح عليه السلام

أشرت في الفصل السابق إلى الموقف المعجز الذي وقفه نوح عليه السلام من قومه عندما قال لهم: ﴿يَقَوْمِ إِنْ كَانَ كَبْرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِتَايَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١] وقد وقف مثل هذا المقام النبوي بعد نوح عليه السلام كما ذكر الله تبارك وتعالى عن هود أنه قال لقومه وقد تحزبوا عليه وتجمعوا وأصروا على الكفر والعناد: يا قوم ﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (٥٤) من دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿هود: ٥٤ - ٥٦﴾، وسأنبه إن شاء الله تعالى على مثل هذه المقامات في مواقعها من قصص الأنبياء.

وقد بين الله تبارك وتعالى في سورة نوح طرق دعوته التي ينبغي لكل داع إلى الله ﷻ أن يتأسى به فيها، وأن يحرص على سلوكها، ولو أن الدعاة من المسلمين سلكوا الطرق التي سلكها نوح عليه السلام في الدعوة إلى الله لامتلأت الأرض بالإسلام، ولم يبق في الأرض إلا دين الله الذي بعث به حبيبه محمداً ﷺ، فقد ذكر الله تبارك وتعالى عن نوح عليه السلام أنه كان يدعو قومه ليلاً ونهاراً، وسراً وجهراً حيث يقول ﷻ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أُصْغُرَهُمْ فِي عَادَاتِهِمْ وَأَسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ٥ - ١٤]، فنوح عليه السلام كان يقضي سحابة نهاره

وسحابة ليله في الدعوة إلى الله ﷻ وفي قوله: ﴿وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم﴾ بيان جلي لأهداف دعوة الأنبياء والمرسلين، فهي دعوة العباد لمغفرة الله ﷻ ولرضوان الله عليهم، وفي هذا النص الكريم بيان لأساليب الدعوة من أبي كبر الأنبياء وأول أولي العزم من المرسلين نوح ﷺ، وقد شرح نوح ﷺ في هذا المقام آثار الاستغفار، وبين أن الاستغفار يجلب للمستغفرين خير الدنيا والآخرة، فهو من أعظم أسباب نزول الأمطار الصالحة للعباد والبلاد، وهو من أعظم أسباب رغد العيش ووفرة الأموال والأولاد، وزينة الحياة الدنيا وتيسير وجود المزارع والجنات وجريان الأنهار والتمتع الحسن ومنح العباد صحة ونشاطاً.

وقد ذكر الله تبارك وتعالى أن هوداً ومحمداً ﷺ نبها إلى هذه الآثار للاستغفار في قوله تعالى في دعوة محمد ﷺ: ﴿الرَّ كُنْتُ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَإِنْ أَسْتَفِرُّوا رَبَّكُمْ ثُمَّ ثُوبُوا إِلَيْهِ يُمَنِّعْكُمْ مِّنْعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ١ - ٣]. وقال تعالى عن هود ﷺ: ﴿وَنَقُومِ اسْتَفِرُّوا رَبَّكُمْ ثُمَّ ثُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَبَرِّدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢] وفي قوله تعالى في هذا المقام من سورة نوح: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٣ - ١٤]، أي ما لكم لا تخافون عظمة الله ولا تأملون ما عند الله، ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ أي خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث، إذ كنتم أولاً نطفة، ثم صرتم علقة، ثم مضغة، ثم خلق المضغة عظماً، ثم كسا العظام لحماً، ثم أنشأكم خلقاً آخر ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

وقد فسّر بعض الجاهلين الغاوين في عصرنا الأطوار التي ذكرها نوح ﷺ في قوله وقد خلقكم أطواراً بأنها دليل على صحة نظرية داروين في التطور والارتقاء، وأن الإنسان كان في أول وجوده حيواناً بحرياً كالسمك، ثم حيواناً برياً كالقروذ والحمير، ثم تطور وارتقى حتى صار على هذا الحال المشاهد، وفي ذلك يقول بعض هؤلاء الغواة الضالين: لقد فضح الجنين القصة، يعني قصة

التطور والارتقاء وأطوار خلق الإنسان، فإن الجنين عندما يبدأ تكوينه في بطن أمه يكون كالسمكة تماماً له زعانف وخياشيم، ثم يغطي جسمه بالشعر كالقروود تماماً، ثم ينحسر الشعر عن مواضع من جسمه كالإنسان تماماً، لقد فضح الجنين القصة كما فضح مبضع الجراح القصة، فإن مبضع الجراح وهو يعمل خلف الأذن البشرية اكتشف عضلات ميتة هي التي كانت تحرك آذان أجدادنا الحمير.

وهذا الذي قاله هؤلاء الدهريون محض اختلاق في جملته وتفصيله، وقد ذكرت في قصة خلق آدم أسباب فساد مقالة هؤلاء.

والى فصل قادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الخامس عشر

تابع: نوح ﷺ

أشرت في الفصل السابق إلى أن بعض الغواة من المعاصرين فسر قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْنَا أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٤] بأنها تدل على صحة نظرية (داروين) في التطور والارتقاء. وبيّنت فساد مذهب هؤلاء، وسقت الدليل القطعي على تفسير هذه الأطوار في كتاب الله ﷻ، وأشرت إلى ما ذكرته كذلك عنها في قصة خلق آدم ﷺ من قصة آدم. وأشرت هناك إلى أن جميع المؤمنين بالله ورسوله يكفرون بنظرية (داروين) هذه، وإنما يروج لها اليهود والماسونيون لزعة العقائد وإبطال الشرائع كما جاء النص على ذلك في (بروتوكولات حكماء صهيون).

هذا وقد بيّن الله تبارك وتعالى أن نوحاً ﷺ لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، ولم يرد خبر صحيح عن سنّه يوم بعثه الله ﷻ إلى قومه، وقال بعض الناس إنه بعث وهو ابن خمسين سنة، وبعض الناس يقول: إنه بعث وهو ابن ثلاث مئة وخمسين سنة، والله وحده يعلم كم كانت سنه وقت بعثته ما دام لم يرد عن الله أو عن رسوله ﷺ شيء في ذلك. كما لم يبين الله ﷻ أو رسوله محمد ﷺ المدة التي عاشها نوح ﷺ بعد الطوفان، ولم يرد في حديث صحيح شيء من ذلك، لكن يبين الله تبارك وتعالى أن نوحاً لما استيأس من قومه بعد أن أعلمه الله ﷻ أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، وأمره الله ﷻ أن يصنع الفلّك ويبيّن له أن الكافرين من قومه مغرقون، وأنه لا يبتئس بما كانوا يفعلون، وأشار الله ﷻ إلى سخرية قومه منه وهو يصنع السفينة، وأنه لما حُمّ القضاء فجّر الله الأرض عيوناً وفتح أبواب السماء بماء منهمر، فركب نوح والمؤمنون وحمل معه في السفينة من كل زوجين اثنين، وفي ذلك يقول الله ﷻ في سورة «الصافات»: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَجِئْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ

﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا دُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَّمْ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾
 إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿٨٢﴾ [الصفات:
 ٧٥ - ٨٢]، وقال في سورة «القمر»: ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ
 وَازْدَجَرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا
 الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَفَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ فُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا
 جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنَذِيرٍ ﴿١٦﴾
 وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٧﴾ [القمر: ٩ - ١٧]، وقال تعالى في سورة
 «الحاقة»: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمُ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيًّا أُذُنٌ وَعَيْةٌ ﴿١٢﴾
 [الحاقة: ١١ - ١٢]، وقال في سورة الأنبياء: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ
 فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
 إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ [الأنبياء: ٧٦ - ٧٧]، وقال تعالى في سورة
 المؤمنون: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا
 تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ
 عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَى ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا
 رَجُلٌ بِدْعٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا
 إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلَکَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ
 كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ
 ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِ فَقُلِ تَعَمَّدَ اللَّهُ لِيَ الَّذِي تَجْتَنَّا مِنْ
 الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُلْ رَبِّ أُنزِلْ لِي مِزْلًا مَبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ
 كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ [المؤمنون: ٢٣ - ٣٠]، وقال في سورة هود: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ
 يُؤْمَرَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَأَصْنَعْ الْفُلَکَ بِأَعْيُنِنَا
 وَوَحِّينَا وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٣٧﴾ وَصْنَعُ الْفُلَکَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ
 مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسَخَرُوا مِنِّي فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ
 تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُعْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُثْقِمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ
 التَّنُورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ
 وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ أَرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَحْرِبِهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ
 رَحِيمٌ ﴿٤١﴾ [هود: ٣٦ - ٤١].

والمشهور عند الأمم أن الذين ركبوا في السفينة مع نوح من المؤمنين هم ولده سام وحام ويافث وزوجاتهم وزوجة يام الذي كان مع الكافرين، وقد حمل نوح في السفينة ما شاء الله أن يحمل من الأزواج، وبعض الناس يغالي فيقول: حمل كذا وحمل كذا، ويعين ويحدد أسماء لم تثبت عن الله ولا عن رسوله ﷺ، ومن الغرائب العجائب أن بعضهم يقول: لما أركب نوح الأسد في السفينة وأركب الفأر خاف الناس وقالوا: يا نوح إن الفأر يفسد علينا طعامنا، فأوحى الله إلى الأسد أن اعطس فعطس الأسد، فخرجت من منخاره هرة فخاف الفأر واختبأ، وقال الناس: يا نوح إنا نخاف من الحيوانات المتوحشة فألقى الله عليها الحمى... إلخ.

فهذه حكايات وخرافات لا يثبت مثلها عن الله ولا عن رسوله ﷺ، وينبغي للمسلمين أن يترفعوا عن إيراد مثل هذه الخرافات، ولا ينبغي للإنسان أن يتكلم عن الله أو عن رسول من رسله إلا بعلم وبينة، ولا نكون كأهل الكتاب الذين ﴿يَلْبُؤْنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٨]. وقد أعدَّ نوح سفينته من الخشب والمسامير، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَوْجِ وَدُسْرٍ﴾ [القمر: ١٣] أي على سفينة مكونة من الخشب والمسامير، فالدسر جمع دسار وهو المسمار، وقد علمهم الله ﷻ أنهم عندما يركبون السفينة يبدؤون بحمد الله وشكره حيث يقول الله ﷻ: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَعَكَ عَلَى الْفَالِكِ فَقُلْ أَلْحَدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨]، وقال نوح لهم: ﴿وَقَالَ أَرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ يَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٤١) ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوْحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنِي أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ (٤٢) ﴿قَالَ سَتَأْتِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُعْرَضِينَ﴾ [هود: ٤١ - ٤٣].

وهذا تنبيه إلى أن قلوب العباد بيد الله لا يملكها نبي مرسل ولا ملك مقرب، ولا يُصَرَّفُها حيث يشاء إلا الله وحده؛ ولذلك كان من ذرية الأنبياء

المؤمن والكافر؛ ولذلك يقول الله ﷻ في إبراهيم وإسحاق: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصفات: ١١٣]، وقال في نوح وإبراهيم: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِثْمًا مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٦]، وقال ﷻ: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وقد استقرت سفينة نوح على الجودي بعد أن قيل: ﴿يَكَادُضُ آبَعَىٰ مَاءَكِ وَيَسْمَاءُ أَقْلِي وَغِيصَ أَلْمَاءُ﴾ [هود: ٤٤]. والجودي عند أكثر أهل العلم جبل، وأنه في الجزيرة بالعراق، وبعضهم يقول: هو في جبال أارات التي تقع فيما يسمى الآن بالاتحاد السوفيتي. ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِن أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٤٥) قَالَ يَنْبُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنِّ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَأْذِنُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطَكُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْكَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنُ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٥ - ٤٧] وهذا المقام من نوح ﷺ صدر عن ظن منه أن قوله: ﴿أَجْمَلُ فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ [هود: ٤٠] أن ولده من أهله، فبين الله أنه ليس من أهله؛ لأنه غير صالح؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ فيما رواه مسلم من حديث عمرو بن العاص: ﴿إِنْ آل أَبِي يَعْنِي فَلَانًا لَيْسُوا لِي بِأَوْلِيَاءَ إِنَّمَا وَلِيَّي اللَّهِ وَصَالِحِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وقد فسر بعض الناس قوله: ﴿لَيْسَ مِنِّ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦] على أنه ولد زنا، وهذا خطأ، فإنه لم تزن زوجة نبي قط مع أنها قد تكفر بالله كزوجة نوح وزوجة لوط؛ ولذلك جاء في القراءة الأخرى إنه عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ، وهي تفسر قوله في القراءة الأولى: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦]. وكم من ولد يعق أباه! وكم من رجل صالح يخرج من صلبه ولد فاسد! وما أجود قول حسان بن ثابت شاعر رسول الله ﷺ وﷺ:

أبوك أب حر وأمك حرة وقد يلد الحران غير نجيب

فلا يعجبين الناسُ منك ومنهما فما خبث من فضة بعجيب

ولما نبه الله ﷻ نوحاً إلى حال ولده الكافر اعتذر نوح إلى الله ﷻ: ﴿قَالَ

رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْكَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ
الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ
سَنُرْسِلُهُمْ فِيهِمْ مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ [هود: ٤٧ - ٤٨]، سلام على نوح في
المرسلين .

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل السادس عشر

قصة هود عليه السلام

نتحدث إليكم عن هود عليه السلام، وهو أول رسول عربي ذكر الله قصته في القرآن الكريم، ولم نقف على عمود نسبه في خبر صحيح. فقد اختلف المؤرخون في عمود نسبه، فبعضهم يقول: هو هود بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام، وبعضهم يقول: إن هوداً هو عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام، وبعضهم يقول: هو هود بن عبد الله بن رباح بن الجارود أو جاور بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، وكل هذه الأقوال لا يمكن الاعتماد عليها؛ لأنه لم يقم على إثباتها دليل صحيح، مع أن هوداً عليه السلام جاء لعاد بعد أن صاروا أمة عظيمة، فكيف يكون بينه وبين سام بن نوح أبوان على الرواية الأولى والثانية، أو كيف يكون عاد هو جده الثاني على الرواية الثالثة.

وقد ذكر الله تبارك وتعالى أن هوداً عليه السلام أرسل إلى عاد، وأنهم كانوا يسكنون الأحقاف الواقعة باليمن بين عمان وحضرموت المطلة على البحر بناحية الشَّحْر وتصل إلى الدهناء وعالج، وكانت ديارهم أخصب البلاد وأكثرها جناناً، والأحقاف جمع حقف: وهو المعوج من الرمل أو الرمل العظيم المستدير، أو المستطيل المشرف، وقد سميت سورة من سور القرآن الكريم باسم الأحقاف، وكانت قبيلة عاد التي أرسل إليها هود عليه السلام من أشد الأمم قوة ومن أعظمهم بطشاً وأوفرهم أجساماً، لم يخلق مثلها في البلاد، ويقال لهم: عاد إرم، وعاد الأولى أي المتقدمة في التاريخ احترازاً من عاد الثانية، وهي ثمود قوم صالح عليه السلام، وقبيلة عاد من العرب العاربة، وقد ذكر كثير من المفسرين أنهم أول الأمم بعد قوم نوح عليه السلام؛ مستلذين بأن الله تبارك وتعالى ذكر في غير موضع من كتابه الكريم قوم هود عليه السلام بعد ذكر قوم نوح عليه السلام، كما في سورة الأعراف وهود والشعراء

واقتربت الساعة، على أن ذكر الله تبارك وتعالى لهود بعد نوح في هذه السورة الكريمة لا يدل على أن هوداً جاء بعد نوح مباشرة، وأن قوم هود هم أول من أشرك بالله بعد الطوفان؛ لأن الله تبارك وتعالى قال عن هود في سورة الأحقاف: ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ [الأحقاف: ٢١]، وقال في سورة فصلت: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [فصلت: ١٣ - ١٤]، فهو صريح بأن هوداً ﷺ تقدمه منذرون مرسلون من الله ﷻ لم يذكر الله ﷻ قصصهم على حد قوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]. غير أن سياق القرآن العظيم لقصة هود بعد نوح وتذكير هود قومه بقصة نوح في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩]، يشعر بقرب زمان قوم هود من قوم نوح، وأن عاداً كانوا على علم تام بقصة الطوفان.

وقد اشتملت قصة هود ﷺ في القرآن العظيم والسنة النبوية على نقاط منها: أن أهم مهمات دعوة المرسلين هي تخليص قومهم من الشرك بالله، وفي ذلك يقول الله ﷻ في سورة الأعراف: ﴿وَالِى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥]. وقال في سورة هود: ﴿وَالِى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود: ٥٠]. وقال في سورة الأحقاف: ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنْ أَحَافَ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢١]. ومن نقاط قصة هود ﷺ لفت انتباه قومه إلى أنه لا يسألهم على تبليغ الرسالة أجراً، وهو شأن جميع المرسلين، وفي ذلك يقول الله ﷻ في سورة هود عن هود ﷺ: ﴿يَقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [هود: ٥١]. وقال عنه في سورة الشعراء: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٠]، ولا شك أنهم لو كانت لهم عقول لسارعوا إلى تصديقه ما دام أنه قد تصدى لهذا الأمر

بموقف إبراهيم عليه السلام حيث قال لقومه لما خوفوه من أصنامهم أن تصيبه بسوء قال: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ [الأنعام: ٨٠ - ٨٢].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل السابع عشر

تابع: قصة هود عليه السلام

تحدثت في الفصل السابق عن نسب هود عليه السلام وعن الأمة التي بعث إليها، وعن أرضهم، وقوة بطشهم، وبعض المهمات التي برزت في دعوته عليه الصلاة والسلام، وتحدثت في هذا الفصل عما جلاه الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم في قصة هود عليه السلام وتحزب قومه عليه وتحذيره لهم من عقوبة الله، وكيف كان عذاب الله عليهم؟ وقد أورد الله تبارك وتعالى قصة هود في كتابه الكريم في مواضع شتى من القرآن العظيم على سبيل الإطناب حيناً، والمساواة حيناً، والإيجاز حيناً آخر، بما يناسب كل مقام من مقامات إيراد قصة هذا النبي العظيم.

ففي سورة الأعراف يقول الله ﷻ: ﴿وَالَّذِي عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ أَاعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذَكُرُوا إِذْ جَعَلْتُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَادْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَدْرَ مَا كَانِ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأِنَّا بِمَا تَعَدَّدْنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَصَبٌ أُتُجِدِلُونِي فِي أَسْمَاءِ سَبَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَاَنْظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَجَبْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَائِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايُنِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ [الأعراف: ٦٥ - ٧٢].

وفي سورة هود يقول ﷻ: ﴿وَالَّذِي عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ أَاعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٥﴾ يَقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ

أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِبِصَابِهَا إِنْ رَجَعْنَا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنْ رَجَعْنَا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوْدًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ آيَاتُ مَا جَاءَ جَحْدُوا بِتَايِبَتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا إِنْ عَادُوا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادِ قَوْمِ هُوْدٍ ﴿هود: ٥٠ - ٦٠﴾.

وفي سورة الشعراء يقول الحق جل وعلا: ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُوْدٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا رَبَّكُمْ وَأَسْأَلْكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٦﴾ أَتَمْنُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةٌ تَعْبَثُونَ ﴿١٢٧﴾ وَتَسْخَدُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٨﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَابِينَ ﴿١٢٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا رَبَّكُمْ وَأَقْرَبُوا الَّذِي آمَدَكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٠﴾ أَمَدَكُمْ بِأَنْعَامِ وَبَيْنَ وَحْنَتِ وَعْيُونٍ ﴿١٣١﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٢﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٤﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٥﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُو الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿الشعراء: ١٢٣ - ١٤٠﴾.

وقال **عَلِيٌّ** في سورة فصلت متهدداً قريشاً بمثل عقوبة عاد وشمود: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَائِدَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِتَايِبَتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ لَهُمْ وَلَا يُمْسِرُونَ ﴿فصلت: ١٣ - ١٦﴾.

وقال ﷻ في سورة الأحقاف: ﴿وَأَذَكُرُ لَنَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ
النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾
قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَفَكَّرَ عَنْ آلِهَتِنَا فَأَنبَأَنَا بِمَا تَوَدُّنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ
عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرِنُكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾، ثم
يصف العذاب الذي حل بهم فيقول: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا
عَارِضٌ مُطْرًا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تَدْمُرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا
فَصَابِحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيهَا إِنْ
مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا
أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾
[الأحقاف: ٢٤ - ٢٦].

وقال تعالى في سورة الذاريات: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا نَذَرَ
مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرِّيمِ ﴿٤٢﴾ [الذاريات: ٤١ - ٤٢]. وقال في النجم: ﴿وَأَنَّهُ
أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ﴿٥٠﴾ [النجم: ٥٠]، وقال في اقتربت الساعة: ﴿كَذَبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ
عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنَزَّعُ النَّاسُ كَانْتَهُمْ أَعْجَازُ
تَخْلِ مُنْفَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ سَرْنَا الْفُرْجَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٢٢﴾ [القمر:
١٨ - ٢٢]، وقال في سورة الحاقة: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَاهْلَكُوهَا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾
سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ تَخْلِ حَاوِيَةٍ
﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ [الحاقة: ٦ - ٨]. وقال تعالى في سورة الفجر: ﴿أَلَمْ تَرَ
كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ [الفجر: ٦ - ٨].

وقد روى البخاري ومسلم من حديث عائشة ؓ أنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً قط حتى أرى منه لهواته إنما كان يبتسم، وقالت: كان إذا رأى غيماً أو ريحاً عُرف ذلك في وجهه، قالت: يا رسول الله، إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأته عُرف في وجهك الكراهية؟! فقال: «يا عائشة! ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب، قد عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُطْرًا﴾».

كما روى مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال: «اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به». قالت: وإذا غُيبت السماء تغير لونه، وخرج ودخل وأقبل وأدبر، فإذا أمطرت سُري عنه، فعرفت ذلك عائشة فسألته، فقال: «لعله يا عائشة كما قال قوم عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالَ هَذَا عَارِضٌ مُّمْطَرُنَا﴾».

وقد روى البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا وَأُهْلِكْتُ عَادٌ بِالذَّبُورِ».

والى الفصل القادم ان شاء الله تعالى، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الثامن عشر

قصة صالح عليه السلام

نتحدث في هذا الفصل عن صالح نبي الله ورسوله عليه السلام. وهو ثاني رسول عربي بعد هود صلوات الله وسلامه عليهما، بعثه الله في جزيرة العرب، وقد أرسله الله عليه السلام إلى قومه ثمود، وقد ذكر علماء النسب أنه صالح بن عبيد بن أسيف بن ماشخ أو ماسح بن عبيد بن حاجر أو حادر بن ثمود بن عابر أو عاثر بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام.

وكان قومه يسكنون الحجر، وهي الأرض المعروفة باسم ديار ثمود أو مدائن صالح، وتقع على بعد نحو ثمانين وثلاث مئة «كيلومتر» شمال غرب من المدينة المنورة، ويقع في جنوبيها الآن مدينة العلا، ولا يزال بعض آبارها ولا سيما البئر المعروفة ببئر الناقة باقية إلى الآن، كما لا تزال آثار ثمود من البيوت والمقابر موجودة حتى الآن، وبخاصة البيوت التي كانوا ينحتونها في الجبال.

وكانت ثمود يعيشون آمنين في بساتين وارفة الظلال كثيرة العيون، وزروع ونخل طلعتها هضيم، يتخذون في سهول الأرض قصوراً، وينحتون من الجبال بيوتاً آية في الحذق والمهارة والزينة. وقد يسر الله عليه السلام لهم أسباب رغد العيش، وكانوا أقرب الأمم التي جاءت بعد قوم هود عليه السلام، وكانوا على علم بخبرها وما أوقعه الله بهم من سوء العذاب لما كفروا بربهم وعبدوا الأصنام والأوثان، غير أن ثمود أظغتهم النعمة، فجحذوا بآيات ربهم وكفروا بآلائه، فبعث الله عليه السلام إليهم رسولاً منهم هو صالح صلوات الله وسلامه عليه، فدعاهم إلى توحيد الله عليه السلام وإفراده بالألوهية، والربوبية، والإقرار بأسمائه الحسنى وصفاته العلا، وذكرهم نعم الله عليهم وخوفهم من عقوبته، ونبههم إلى أن استمرارهم في الشرك بالله وجحودهم نعم الله قد ينزل بهم ما نزل بقوم هود، وقد أجابه إلى الله عليه السلام

المستضعفون منهم، وأبى المستكبرون أن ينيبوا إلى الله و﴿قَالُوا يَصْلِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْحُومًا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَنَّا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾ [هود: ٦٢].

وطلبوا منه آية: فأخرج الله ﷻ لهم الناقة من الصخر. وقال لهم صالح عليه السلام: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا سُوءَ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ٦٤].

وكان من آيات الله في آية الناقة أنها كانت تشرب من الماء ما يكاد يقضي على مياههم، فاتفق صالح عليه السلام معهم على اقتسام الماء بينهم وبين الناقة، فتشرب يوماً لا يشاركونها في الماء، ويشربون يوماً لا تشاركهم الناقة في شربهم، ومع أن هذه الآية تبهر العقول، فيها الدليل القاطع والبرهان الساطع على صدق صالح عليه الصلاة والسلام، فهي آية مبصرة، وحجة قاهرة، ومع ذلك فقد استمر المستكبرون على عنادهم، وأصرروا على كفرهم وضلالهم، وحاولوا أن يحولوا بين المؤمنين وبين صالح رسول الله ﷺ، وعملوا على إثارة الشبه في دعوة صالح عليه السلام، وقد منع الله عنهم المطر تخويفاً وإنذاراً، فقال المستكبرون: إن صالحاً سبب جذب بلادنا ومجيئه شؤم علينا، وأتباع المؤمنين به له محق لبركة أرضنا ومياهنا، وقالوا لصالح: ﴿أَطْرَيْنَا بِكَ وَيَمَنُ مَعَكَ قَالَ طَعِرْكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [النمل: ٤٧] وسبب شؤمكم منكم، فرسل الله هم وجوه البر والخير، وهم أسباب سعادة الإنسانية إن استمسكت بمنهجهم وعملت بتعاليمهم، وأرشدهم ﷻ إلى أن توبتهم إلى الله والاستغفار من السيئات يجلب لهم خير الدنيا والآخرة، وقال: ﴿لَوْلَا سَتَعْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل: ٤٦] فلم يستجيبوا له وقالوا للمؤمنين: ﴿اتَّعَلَمُونَ أَنَّ صَاحِبَكُمْ مُرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الأعراف: ٧٥]، قال المستضعفون: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥]. ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٦]. ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ [الأعراف: ٧٧] وعصوا رسله، واجتمع زعماءهم على أن يعقروا الناقة، فانبعث لها أشقى ثمود، وهو رجل عارم عزيز منيع في رهطه

فَعَقَرَهَا، وَاسْتَعْجَلُوا الْعَذَابَ ﴿وَقَالُوا يَصْلِحُ أَمْرُنَا بِمَا تَعَدْنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧]. ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرِ مَكْدُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]، وَأَصْرًا تِسْعَةَ رَهْطٍ مِنْهُمْ مِنَ الْمَفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ عَلَى قَتْلِ صَالِحٍ وَالْحَاقَةَ بِالنَّاقَةِ وَ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّكَ﴾ [النمل: ٤٩] أَي لَنَكْبِسَنَّ فِي دَارِهِ بِاللَّيْلِ مَعَ أَهْلِهِ فَلَنَقْتُلَنَّكَ وَلَنَجْجِدَنَّ قَتْلَهُ، فَلَنَقُولَنَّ لِأَوْلِيَاءِ دَمِهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ: مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَهُ وَلَا ﴿مَهْلِكَ أَهْلِيهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [النمل: ٤٩]، وَدَبَرُوا وَدَبَرَ اللَّهُ فَجَاءَهُ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَرْسَلَ اللَّهُ ﷻ عَلَيْهِمُ الصَّيْحَةَ مِنْ فَوْقِهِمْ وَرَجَفَةَ مِنْ تَحْتِهِمْ عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٥٠) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَقِيبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَا نَفْسَهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: ٥٠].

[٥١]، وَكَمَا قَالَ ﷻ: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمَنْ خِزِي يَوْمَئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ (٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَنَّ لَمْ يَغْتَوُوا فِيهَا إِلَّا إِنْ نَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدًا لِنَمُودٍ﴾ [هود: ٦٦ - ٦٨]. وَكَمَا قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَصْلِحُ أَمْرُنَا بِمَا تَعَدْنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿٧٨﴾ فَنَوَى عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْفُورُ لَقَدْ أَبْلَغْتُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تَحْتَسِبُونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧ - ٧٩]، وَكَمَا قَالَ ﷻ: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ (٨٣) فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الحجر: ٨٣ - ٨٤]، وَكَمَا قَالَ ﷻ: ﴿فَادَّأُوا صَاحِبَهُمْ فَطَعْنُوهُ فَعَمَزَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرِ﴾ (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْحَخِيطِ﴾ [القمر: ٢٩ - ٣١] وَكَمَا قَالَ ﷻ: ﴿كَذَبَتْ نَمُودٌ بِطَعُونَهَا﴾ (١١) إِذْ أُتِبَتْ أَشَقْنَهَا﴾ (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيِيهَا﴾ (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَحَسَبُوهَا﴾ (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس: ١١ - ١٥].

هذا ولا وجود لذكر عاد وثمود في الكتب التي بيد اليهود والنصارى، مما يشعر بأنهم حرصوا على إزالة كل ذكر للنبوذة في الأمة العربية حسداً للعرب وكراهية أن تكون النبوذة في غير بني إسرائيل.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الفصل التاسع عشر

تابع: قصة صالح عليه السلام

تحدثت في الفصل السابق عن صالح عليه السلام، وأشارت إلى أنه ثاني رسول عربي بعد هود عليه السلام، وذكرت مساكن قومه ثمود، ونسبهم وطبيعة أرضهم وما أفاء الله عليهم، وما كانوا عليه من الشرك والفساد، وأن صالحاً عليه السلام بدأ بدعوتهم إلى توحيد الله عز وجل وترك عبادة الأصنام والأوثان، وأن المستضعفين سارعوا إلى الإيمان به، وكفر المستكبرون، وأشارت إلى ما كان منهم من عقر الناقة ومكرهم في تبويت صالح عليه السلام وكيف نجاه الله منهم، وأنزل بهم عقوبته، وذكرت أن هوداً وصالحاً صلى الله عليهما وسلم لا ذكر لهما ولا لقوميهما في كتب اليهود والنصارى، مما يشعر بحرصهم على إزالة كل ذكر للنبوذة في الأمة العربية؛ حسداً للعرب وكرهية أن تكون النبوة في غير بني إسرائيل.

ونشير هنا إلى أنه ورد في القرآن العظيم ما يشعر بأن نبي الله موسى عليه السلام حذر قومه أن يحل بهم ما أوقعه بقوم هود وقوم صالح صلى الله عليهما وسلم كما قال عز وجل في سورة إبراهيم: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُم إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴿١٠﴾﴾ [إبراهيم: ٨ - ١٠]، وقد أورد الله تبارك وتعالى قصة صالح عليه السلام في مواضع من كتابه الكريم بأساليب تناسب كل مقام من مقامات إيراد هذه القصة، كما قرنه مع كثير من أنبياء الله ورسله، وفي ذلك يقول في سورة الأعراف: ﴿وَلِإِنْ تَحْمَدُوا أَخَاهُمْ صٰلِحًا قَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهِ غَيْرُهُ

قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَنْتَعَمُوا أَنْتَ صَالِحًا تُرْسَلُ مِن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنتمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصَلِّحْ آثِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّصِيحِينَ ﴿٧٩﴾ [الأعراف: ٧٣ - ٧٩].

وقال تعالى في سورة هود: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١] يعني جعلكم عمار الأرض ويسر لكم أسباب عمارتها بما هيا فيها وأنبت من الزروع والثمار ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ إِنْ ربي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا يُصَلِّحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبِينَ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَعَآئِنِي مِنْهُ رَحْمَةٌ فَمَنْ يُضِلُّنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَاقَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرِ مَكْدُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بَيَّعْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَفْقَهُوا فِيهَا آلَا إِنْ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ﴾ [هود: ٦١ - ٦٨].

وقال تعالى في سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَعَآيِنَهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَحْنُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُصِيبِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الحجر: ٨٠ - ٨٤].

وقال في سورة الإسراء: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا

الْأُولُونَ^{١٤٦} وَعَائِنَا^{١٤٦} تَمُودَ النَّاقَةَ^{١٤٦} مُبْصِرَةً ﴿١٤٦﴾ [الإسراء: ٥٩] «أي آية واضحة جلية ومعجزة ظاهرة دالة على وحدانية الله مرشدة إلى أنه لا إله إلا هو ولا معبود بحق سواه». ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ ﴿١٤٦﴾ «أي جحدوا هذه الآيات وكفروا بها ومنعوا الناقة من شربها وعقروها» ﴿وَمَا تُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

وقال في سورة الشعراء: ﴿كَذَبَتْ تَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١٤٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٦﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٤٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَنْتُمْ كُونُوا فِي مَا هَلُمْنَا ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ [الشعراء: ١٤١ - ١٤٩] «أي حاذقين في صنعها وإحكامها وإتقانها» ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ ﴿١٥٧﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٥٧﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٦﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِنَايَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٦﴾ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ [الشعراء: ١٥٠ - ١٥٩].

وقال في سورة النمل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَادَّأَ هُمْ فِرْعَانَ يَخْتَصِمُونَ﴾ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَتَقَوَّمِر لِمَ سَتَعْمَلُونَ بِلِسَانِي قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا أَطِيزَنَا بِكَ وَيَمُنُّ مَعَكَ قَالَ طَبَّرَكُمُ اللَّهُ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا نَقَاسِمُوا بِاللَّهِ لَئِن سَأَلْتَهُمْ وَأَهْلَهُمْ لَنَقُولَنَّ لَوْلِيَهُ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكْرُوهًا مَكْرًا وَمَكْرَتَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِيَّاكَ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنبِئْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٥٣﴾ [النمل: ٤٥ - ٥٣].

وقال في سورة فصلت: ﴿وَأَمَّا تَمُودُ فَهَدَيْتَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ ﴿١٨﴾ [فصلت: ١٧ - ١٨].

وقال تعالى في سورة اقتربت: ﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَشْرًا مِنَّا وَجِدًا نَنبَعُهُ ﴿٢٤﴾ إِنَّا إِذْ لَبِئْنَا إِذَا لَبِئْنَا ضَلِيلٌ وَسُعْرٌ ﴿٢٤﴾ أَلْقَى الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشْرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشْرِ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فَبَنَى لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَأَصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَادْوَا صَاحِبَهُمْ فَطَعْنُوهُ فَجَمَعَ كَيْفَ كَانَ عَدَاوِي وَنُذُرِ ﴿٢٩﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْحَنْظَرِ ﴿٣٠﴾ [القمر: ٢٣ - ٣١] أَيْ صَارُوا كَالْمَتَفَتَّتِ مِنْ يَابِسِ الزَّرْعِ فِي حَظِيرَةِ الْمَاشِيَةِ.

وقال تعالى: ﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَيْهَا ﴿١١﴾ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾ [الشمس: ١١ - ١٥].

وقد روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن زمعة قال: خطب رسول الله ﷺ فذكر الناقة وذكر الذي عقرها فقال: «﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ انبعث لها رجل عارم عزيز منيع في رهطه مثل أبي زمعة».

وقد روى البخاري ومسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين»، ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى أجاز الوادي.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل العشرون

إبراهيم عليه السلام

نتحدث إليكم في هذا الفصل عن إمام الحنفاء وأبي الأنبياء وخليل الرحمن، وأكثر الناس شبهاً بخلق وخلق محمد ﷺ، وأحد السادة الكبار من أولي العزم من المرسلين، الأمة، القانت، الحنيف، الأواه، الحليم، إبراهيم عليه السلام، وأبوه آزر من ذرية سام بن نوح عليه السلام، وقد ولد إبراهيم عليه السلام بأرض بابل المعروفة ببلاد الكلدانيين، وكان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والأوثان، ويسجدون للكواكب السبعة، وقيمون الهياكل لها، فبعث الله إليهم إمام الحنفاء إبراهيم عليه السلام، فدعاهم إلى وجوب إخلاص العبادة لله وحده، واتخذ في دعوته من سبل الإرشاد ما تقوم به الحجة، وتنقطع به الشبهة، وقد ساق الله تبارك وتعالى صوراً من أساليب دعوة إبراهيم عليه السلام في محاورته لقومه، وإرشادهم إلى الله تبارك وتعالى، وفي ذلك يقول: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءِالِهَةً إِنِّي أَرَأَيْتَكَ فِي مَقَامِكَ فِي صَلَاتِ مُبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴿٧٥﴾ [الأنعام: ٧٤ - ٧٥] أي: نبين له وجه الاستدلال بآيات الله الكونية في السموات والأرض على أنه لا إله إلا الله ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ أي: أهذا يصلح لأن يكون رباً يُعْبَدُ ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ أي فلما غاب هذا النجم الذي يعبده قومه ﴿قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] «وهذا أسلوب حكيم في زلزلة قواعد باطلهم» ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا﴾ أي: طالعا، ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ «أي: أهذا يصلح لأن يكون رباً يُعْبَدُ؟»، ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٧] «وقد أراد عليه السلام بهذا القول أن يستدرج قومه ويُعرفهم جهلهم، وخطأهم في تعظيم عبادة هذه الكواكب الآفلة، وأن ناصية الخلق بيد الله وحده، فمن لم يهده الله فلا هادي له»، ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ

بَارِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْفُورِ إِيَّيَ بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِيَّيَ وَجْهَتْ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا ﴿٧٩﴾ [الأنعام: ٧٨ - ٧٩] «أي: مائلاً إلى الدين القيم» ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩]. «وحذف الاستفهام في مثل قوله: هذا ربي سائغ شائع في اللسان، وهو استفهام إنكار وتوبيخ لقومه عبدة الكواكب، وقد جاء حذف حرف الاستفهام في مواضع من القرآن الكريم، ومنه قوله تعالى: ﴿أَفَأَيْنَ مَتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾؟ [الأنبياء: ٣٤]. أي: أفهم الخالدون؟

ويشير القرآن العظيم إلى موقف قومه من هذه الحجة البالغة وأنها لما انقطعوا لجؤوا إلى تخويله من بطش آلهتهم به، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَحَاجُّهُمْ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَدِّثُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ رَفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٠ - ٨٣].

ويذكر الله ﷻ صورة أخرى من صور قيام إبراهيم عليه السلام ببيان أن الله وحده هو المستحق للعبادة، وأن غيره من معبوداتهم لا تسمع ولا تنفع فيقول ﷻ: ﴿وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الشعراء: ٦٩ - ٧٠] «سألهم عن معبوداتهم ليبيني على جوابهم أن هذه الآلهة لا تستحق شيئاً من العبادة ليقطع شبهتهم» ﴿قَالُوا تَعْبُدُوا أَصْنَامًا فَظَلُّوا لَهَا عَظَمِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّيقِي بِالصَّبْرِ الْحَنِينِ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَأَغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٧١ - ٨٦]. «وهذا كان بسبب موعدة وعدها إبراهيم ففهم منها إبراهيم عليه السلام أن أباه مقارب

للإيمان، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأبيه إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

ثم يستمر إبراهيم في ضراسته إلى الله وبسط دعوته لقومه فيقول: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ (٨٧) ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (٨٨) ﴿إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٧ - ٨٩]؛ وفي صورة مشرقة من صور عرض دعوة إبراهيم عليه السلام وموقفه من قومه بعد أن استجابت له زوجته سارة ولوط عليه السلام يقول الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأبيه لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [المتحنة: ٤] «أي فلا تستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى» ﴿وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنبَأْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (٤) ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْرِضْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٥) ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [المتحنة: ٤ - ٦].

ويصف الله تبارك وتعالى موقفاً مشرقاً من مواقف إبراهيم عليه السلام مع أبيه آزر فيقول: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ صَدِيقًا نَّبِيًّا﴾ (٤١) ﴿إِذْ قَالَ لِأبيه يَتَّبِعِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ (٤٢) ﴿يَتَّبِعِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ (٤٣) ﴿يَتَّبِعِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ (٤٤) ﴿يَتَّبِعِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ (٤٥) ﴿قَالَ أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنِ الْهَيْتِي يَتَّبِعُونَ إِبْرَاهِيمَ لَمَّا نَدَّاهُ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ (٤٦) ﴿قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ (٤٧) ﴿أي: عظيم اللطف بي كثير الإحسان إليّ» ﴿وَاعْرِضْ لَكُمْ وَمَا نَدَّعُونَكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَادْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَفِيًّا﴾ [مريم: ٤١ - ٤٨].

وفي موقف آخر من مواقف إبراهيم عليه السلام مع أبيه وقومه يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ (٥١) ﴿إِذْ قَالَ لِأبيه وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ (٥٢) ﴿قَالُوا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا لَهَا عِبَادِينَ﴾ (٥٣) ﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ ءِءَابَءُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٥٤) ﴿قَالُوا أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّعِينِينَ﴾ (٥٥) ﴿قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ
بَعْدَ أَنْ تُولَؤُوا مُدِيرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا
مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذُكُرُهُمْ (أي: يطعن
عليهم ويسبهم) يُقَالُ لَهُ: إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَىٰ عَيْنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾
قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُمُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَأَلُوهُمْ إِنْ
كَانُوا يَنْطُقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نَسُوا
عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطُقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا
يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَمْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾
قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ
إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ [الأنبياء: ٥١ - ٧٠].

ويسوق الله ﷻ قصة ملك الكلدانيين في استجوابه لإبراهيم عن ربه وقول
إبراهيم: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، فيتناول هذا الملك ويقول: ﴿أَنَا أُحْيِي
وَأُمِيتُ﴾، فيفحمه إبراهيم بقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمَسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ
الْمَغْرِبِ﴾ فينقطع هذا الكافر وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ
إِبْرَاهِيمَ فِي رِيبِهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا
أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمَسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ
الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

هذا وقد ذكر بعض المفسرين أن إبراهيم قد جرت هذه المناظرة بينه وبين
الملك لما قدم لطلب طعام منه، وأن الملك رفض إعطاءه الطعام، وأن إبراهيم قد
اشتد حزنه عندما اقترب من منزل أهله وأنه كيف يدخل على سارة وإسحاق ولده
دون طعام، فعمد إلى كتيب من التراب فملاً جرابه منه ليؤنس أهله، فلما نام انقلب
التراب دقيقاً أبيض خالصاً، فلما فتحت سارة الجراب وجدت الدقيق فصنعت طعاماً
منه، فلما استيقظ إبراهيم وجد الطعام، فقال: مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا؟ قالت: من جرابك.
إلخ. فهذا كذب ظاهر ولا أصل له بحمد الله، وإسحاق لم يولد إلا بالشام.

والى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الفصل الحادي والعشرون

تابع إبراهيم

تحدثت في الفصل السابق عن صور مشرقة من دعوة إبراهيم ، وذكرت في آخرها ما كان من المناظرة بين الخليل وبين ملك الكلدانيين الذي حاج إبراهيم في ربه، وكيف أقام إبراهيم الحجة الدامغة، فبهت الذي كفر، ولم يزل إبراهيم يوالي دعوة قومه إلى الله، ويحاول إخراجهم من الظلمات إلى النور، وفي ذلك يقول الله : ﴿ وَإِذْ يَرْهَمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ ۗ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۗ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنشَأَ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ ۗ أُولَٰئِكَ يَسُوءُ مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ۗ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَجَبَهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَامَن لَّهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ۗ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾] [العنكبوت: ١٦ - ٢٦].

وقد هاجر إبراهيم ومعه زوجته سارة ولوط إلى الشام، وفي ذلك يقول الله : ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٨﴾ قُلْنَا يَنَارُ كُونِي

بَرْدًا وَسَلَّمًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَجَبَّتْهُ وُلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ [الأنبياء: ٦٨ - ٧١].

وقد أشار رسول الله ﷺ إلى تعاون الوزغ مع قوم إبراهيم في محاولة إحراقه، وأن الوزغ كان ينفخ على إبراهيم، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أم شريك رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الوزغ، وفي لفظ البخاري: «كان ينفخ على إبراهيم».

وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «اختتن إبراهيم النبي ﷺ وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم».

وقد نزل إبراهيم عليه السلام بالشام وهي بلاد الكنعانيين ومعه زوجته سارة ولوط، فأرسل الله ﷻ لوطاً إلى أهل سدوم وعمورة ونواحيها من دائرة الأردن. وسار إبراهيم وسارة إلى مصر. فأخبر ملك مصر بجمال زوجة إبراهيم، وأغرى بها فنجأها الله منه، وأخدمها هاجر، فوهبتها لإبراهيم، فرزقه الله منها إسماعيل عليه السلام، ورجع إبراهيم بأهله إلى الأرض المقدسة بفلسطين، وصار بين سارة وهاجر بعض الشيء لما قضاه الله ﷻ أن يعمر ولدها إسماعيل مع أبيه البيت الحرام بمكة، فهربت هاجر من سارة، وأمر الله ﷻ إبراهيم أن يحمل هاجر وإسماعيل لمكة.

واتخذت هاجر منطلقاً تشد به وسطها وترسل طرفه كذليل خلفها يُعفي آثارها على سارة، فقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطلقاً لتعفي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحه فوق زمزم في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذٍ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاءً فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها. فقالت له: آله الذي أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يضيعنا. ثم رجعت. فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يروونه استقبال بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ [إبراهيم: ٣٧] حتى بلغ

﴿يَشْكُرُونَ﴾، وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى أو قال: يتلبط، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها. فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر، هل ترى أحداً، فلم تر أحداً. فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحداً، فلم تر أحداً. ففعلت ذلك سبع مرات. قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فذلك سعي الناس بينهما»، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صه تريد نفسها، ثم تسمعت فسمعت أيضاً، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواثٌ. فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه، أو قال: بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه، وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفرور بعدما تغرف قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم» أو قال: «لو لم تغرف من زمزم لكانت زمزم عيناً معيناً»، قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافوا الضيعة فإن ههنا بيتاً لله بينه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله، وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم، أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء، فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائراً عائفاً، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جرياً أو جريين «أي رسولاً أو رسولين» فإذا هم بالماء. فرجعوا فأخبروهم فأقبلوا وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن نزل عندك؟ قالت: نعم، ولكن لا حق لكم في الماء، قالوا: نعم.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس»، فنزلوا فأرسلوا إلى أهلهم، فنزلوا معهم حتى إذا كانوا بها أهل أبيات وشبَّ الغلام وتعلم العربية منهم وأنفَسَهُمْ وأعجبهم حين شب. فلما أدرك زوجته امرأة منهم، وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع

تركته، فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يتبغي لنا وفي رواية يصيد لنا، ثم سألتها عن عيشتهم وهيئتهم، فقالت: نحن بشرٌ، نحن في ضيق وشدة. وشكيت إليه، قال: فإذا جاء زوجك اقرئي عليه السلام وقولي له: يغير عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً، فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته، فسألني كيف عيشنا، فأخبرته أننا في جهد وشدة، قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غير عتبة بابك. قال: ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك، الحقي بأهلك، فطلقها وتزوج منهم أخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعد فلم يجده، فدخل على امرأته فسأل عنه قالت: خرج يتبغي لنا، قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشتهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله، فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم، قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء. قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء. قال النبي ﷺ: «ولم يكن لهم يومئذٍ حَبٌّ، ولو كان لهم دعا لهم فيه» قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه. قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، ومريه يثبت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه، فسألني عنك فأخبرته، فسألني كيف عيشنا فأخبرته أننا بخير. قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم، يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك. قال: ذاك أبي وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك، ثم لبث عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبيري نبلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم، فلم يره قام إليه فصنع كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد. قال يا إسماعيل! إن الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك ربك، قال: وتعينني؟ قال: وأعينك. قال: فإن الله أمرني أن أبني بيتاً ههنا، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها. فعند ذلك رفع القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر ووضعه له، فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا قَبَلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الفصل الثاني والعشرون

تابع إبراهيم

أشرت في الفصل السابق إلى مجيء إبراهيم عليه السلام بابنه إسماعيل وهاجر إلى مكة، وذكرت ما أورده البخاري في صحيحه عن هذه القصة، وعن نشأة إسماعيل عليه السلام، وما كان من شأنه مع قبيلة جرهم، وتعلمه اللسان العربي ومساعدة أبيه إبراهيم عليه السلام في بناء البيت الحرام، وقد ذكر الله تبارك وتعالى قصة بناء الكعبة في كتابه الكريم حيث يقول: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتِ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٦٦﴾ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٦٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَاكْلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْأَبْيَاسَ الْفَقِيرَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُدُورَهُمْ وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٦ - ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أُنزِلَتْ إِبْرَاهِيمَ رُؤْيُؤُا رَبِّهِ يُكَلِّمُتْ فَاتَمَنَّاهُ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَاً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْرَطُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَيَنْسُ الْعَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٤ - ١٢٩]. كما أشار الله تعالى إلى ما كان من إبراهيم في وضعه هاجر وإسماعيل عند مكان البيت

حيث يقول: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ مَبْنَعِكِ الْمَحْرَمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]. وقد استجاب الله تعالى دعوة إبراهيم فجعل هذا البيت آمناً، يجبي إليه ثمرات كل شيء، كما قال ﷺ: ﴿أَوْلَمْ تُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجَيِّئُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧].
وكما قال ﷺ: ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَفِّطُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]..

كما استجاب الله تبارك وتعالى إلى دعاء خليته إبراهيم فأرسل محمداً ﷺ من ذرية إسماعيل أهل البيت الحرام يتلو عليهم آيات الله ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم؛ ولذلك جاء في الحديث الحسن أن رسول الله ﷺ قال: «أنا دعوة أبي إبراهيم وبشري عيسى بي، ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام». كما جاء في مسند الإمام أحمد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والعرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، واللفظ لأبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

كما ذكر الله تبارك وتعالى قصة هجرة إبراهيم ﷺ وبشارته بإسماعيل وقصة رؤياه بذبحه فقال: ﴿وَإِن مِنْ شَيْعَةٍ لِإِبْرَاهِيمَ ۖ إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (٨٤) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا عَبَدُونَ ﴿٨٥﴾ أَيُّكُمْ إِلَهَةٌ دُونَ اللَّهِ تَرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَظَنَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ [الصافات: ٨٣ - ٨٩]. وكأنه ﷺ أراد أن يفرقهم لبيتعدوا عنه حتى يتفرغ لتحطيم أصنامهم بإيهاهم أنه مريض حتى لا يلامسوه وبخاصة بعد نظرته في النجوم، ونظرته ﷺ في النجوم لم يقصد بها أن يتعرف من النجم عن حالته، كما أن قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ لم يرد بها أنه مريض بمرض معد، وإنما أراد في نفسه أنه ضعيف، وكل ابن آدم ضعيف مهما كانت صحته. وقد خلق الإنسان ضعيفاً، فهذا من المعاريض، وفي المعاريض مندوحة عن الكذب، حاشاه ﷺ أن يكذب، على أنه قد يطلق على المعاريض أنها كذب باعتبار حقيقة المراد، لكنه ليس الكذب المذموم بل هو كإطلاق الحسد على الغبطة، في مثل قول رسول الله ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم من حديث ابن

مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا حسد إلا في اثنتين، رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها».

وقد فسّر عامة العلماء الحسد في هذا الحديث، بأنه الغبطة، إذ الحسد المذموم هو تمني زوال النعمة عن الغير، ولا شك عند أهل العلم أن قول إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وكذلك قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣] وكذلك لما سأله ملك مصر عن سارة فقال: إنها أختي لا شك عند العلماء أن ذلك ليس من باب الكذب المذموم، وإنما هو من باب التورية والمعاريض.

ثم قال تعالى: ﴿فَقُولُوا عَنْهُ مُدْرِبِينَ﴾ (٩٠) ﴿فَرَأَى إِلَى الْهَيْبَةِ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الصفات: ٩٠ - ٩١] «لأن الكفار قد جعلوا عند أصنامهم طعاماً» ﴿مَا لَكُمْ لَا تَطْفُونَ﴾ (٩٢) ﴿فَرَأَى عَلَيْهِمْ صَرْبًا بِأَلْيَيْنِ﴾ (٩٣) ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرِفُونَ﴾ (٩٤) ﴿قَالَ اتَّعِدُونْ مَا نَنجُونَ﴾ (٩٥) ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٦) ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْفُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ (٩٧) ﴿فَارَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ (٩٨) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ [الصفات: ٩٢ - ٩٩] «أي إني مهاجر إلى الله صلى الله عليه وسلم من دار الكفر إلى الأرض التي بارك الله فيها للعالمين، وأملي في الله صلى الله عليه وسلم أن يرشدني إلى سبيل الخير وما فيه صلاح ديني ودنياي».

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٠٠) ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ (١٠١) ﴿فَمَا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَى قَالَ يَبْنَؤُ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَأَنْظِرْ مَاذَا تَرَى﴾ قَالَ يَتَّبِعُ أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (١٠٢) ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾ [الصفات: ١٠٠ - ١٠٣] «أي انقادا لأمر الله» ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ (١٠٣) ﴿وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ (١٠٤) ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٠٥) ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَّ الْبَالُوتَاءُ الْمِئِينُ﴾ (١٠٦) ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾ (١٠٧) ﴿وَوَكَّنَّا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ (١٠٨) ﴿سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (١٠٩) ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (١١٠) ﴿إِنَّهُ مِن عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١١١) ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١١٢) ﴿وَوَكَّنَّا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن دُرَّتَيْهِمَا مَحْسَنٌ وَظَلَمَ لِنَفْسِهِ مِثْرًا﴾ [الصفات: ١٠٣ - ١١٣].

ولا شك أن سياق هذه الآيات الكريمة يدل على أن الذبيح هو إسماعيل لا إسحاق عليه السلام؛ لأنه ذكر البشارة بإسحاق بعد البشارة بإسماعيل الذي وصفه بأنه غلام حلِيم، وقد وصف إسحاق عند البشارة به بأنه غلام عليم، ومن الأدلة أيضاً

على أن الذبيح هو إسماعيل لا إسحاق أنه عند البشارة بإسحاق قال: ﴿وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ﴾ [هود: ٧١]، وهو يفيد أن إسحاق سيعيش ويولد له في حياة أبيه، فيكف يؤمر بذبحه وهو غلام لم يولد له بعد، مع يقينه بأنه لن يموت حتى يولد له يعقوب، وقد حدّث ابن إسحاق عن محمد بن كعب القرظي أنه حدثهم فقال: إن الذي أمر الله تعالى إبراهيم بذبحه من ابنه إسماعيل، وإنا لنجد ذلك في كتاب الله تعالى، وذلك أن الله تعالى حين فرغ من قصة المذبوح من ابني إبراهيم قال تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢]. ويقول الله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ﴾ [هود: ٧١]. يقول بابن وابن ابن، فلم يكن ليأمره بذبح إسحاق وله فيه من الموعد بما وعده، وما الذي أمر بذبحه إلا إسماعيل، قال ابن إسحاق: سمعته يقول ذلك كثيراً، وقال ابن إسحاق عن محمد بن كعب القرظي أنه حدثهم أنه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وهو خليفة، إذ كان معه بالشام، فقال له عمر: إن هذا لشيء ما كنت أنظر فيه، وإني لأراه كما قلت، ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام كان يهودياً فأسلم وحسن إسلامه، وكان يرى أنه من علمائهم، فسأله عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه عن ذلك، قال محمد بن كعب: وأنا عند عمر بن عبد العزيز، فقال له عمر: أيُّ ابني إبراهيم أمر بذبحه؟ فقال: إسماعيل والله يا أمير المؤمنين، وإن يهود لتعلم ذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم، الذي كان من أمر الله فيه. والفضل الذي ذكر الله تعالى منه لصبره لما أمر به، فهم يجحدون ذلك، ويزعمون أنه إسحاق؛ لأن إسحاق أبوهم. ١. هـ. كما ذكر ابن كثير رضي الله عنه، وليس هذا أول جحد من اليهود، فقد جحدوا أن يكون إبراهيم بنى الكعبة، ولعلم الله تعالى بما يكون من اليهود أبقي في البيت الحرام مقام إبراهيم ليكون شاهداً عليهم إلى يوم القيامة يتوارث العلم به جيل بعد جيل، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ [آل عمران: ٩٦ - ٩٧].

والى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الفصل الثالث والعشرون

تابع إبراهيم ﷺ

أشرت في الفصل السابق إلى أن الله تعالى أبقى مقام إبراهيم في البيت الحرام؛ ليكون شاهداً على بناء إبراهيم لهذا البيت، لما يعلم من أن اليهود سيجحدون أن يكون إبراهيم هو الذي بنى الكعبة المشرفة بمكة المكرمة. وجعل في ذلك آيات بينات حيث يقول: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ [آل عمران: ٩٧] وكما قال ﷺ: ﴿وَأَتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥] وأشرت إلى أن العرب لم يزلوا يتوارثون معرفة مقام إبراهيم جيلاً بعد جيل إلى أن بعث رسول الله ﷺ، وفي ذلك يقول أبو طالب في لاميته المشهورة:

وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة على قدميه حافياً غير ناعل

ويؤثر أن عبد المطلب جد رسول الله ﷺ كان يوضع له فراش في ظل الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له، فكان رسول الله ﷺ يأتي وهو دون الخامسة من عمره ﷺ فيأخذه عبد المطلب ويجلسه على فراشه، فجاء جماعة من بني مدلج يطوفون حول الكعبة، فلما رأوا قدم رسول الله ﷺ أمعنوا النظر فيها ثم أمعنوا النظر في مقام إبراهيم، ثم قالوا لعبد المطلب: لمن هذا الغلام يا شيخ؟ قال: هذا محمد ولدي، قالوا: ما رأينا قدماً شبيهة بالتي في الصخر من قدم ولدك هذا.

وقد ثبت أن رسول الله ﷺ وصف إبراهيم الخليل ﷺ بأنه أشبه الناس بمحمد ﷺ، فقد روى البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال وهو يتحدث عن ليلة أسري به: «رأيت موسى وإذا هو رجل ضرب - أي خفيف اللحم - رجل - أي دهن الشعر - كأنه من رجال أزد شنوءة، ورأيت عيسى فإذا هو ربة أحمر كأنما خرج من ديماس - يعني الحمام - وأنا أشبه ولد إبراهيم به»، وكما

جمع الله ﷺ بين محمد ﷺ وأبيه إبراهيم في الشبه، جمع بينهما كذلك في صفة الخلة، فلم يتخذ الله خليلاً غير محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وجمع كذلك بينهما في الصلاة عليهما فنقول في التشهد: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.

وقد حرص اليهود على قطع كل صلة للعرب بإسماعيل وإبراهيم، وحذفوا من التوراة كل ما يتصل بإسماعيل بعد أن أخذه أبوه وتركه وأمه في برية فاران، وقطعوا كل أخباره بعد ذلك. وقد جهلوا أو تجاهلوا أن برية فاران هي أرض مكة.

وقد استقر إبراهيم ﷺ بالأرض المباركة بفلسطين، إلا أنه كان يتردد إلى مكة ليتعاهد تركته فيها ويطوف بالبيت العتيق، وقد دعا لمكة قبل بناء البيت فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦]. وفي زورة من زوراته لمكة بعد بناء البيت وميلاد إسحاق قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا...﴾ [إبراهيم: ٣٥].

وقد كان لوط ﷺ لقي من قومه عنتاً ومشقة وكذبوه وكذبوا المرسلين. وكانوا يأتون الذكران من العالمين، فلما أراد الله ﷻ إهلاك قوم لوط أرسل بعض الملائكة لإهلاكهم، وأمرهم أن يمروا بإبراهيم قبل تدمير قري قوم لوط ليبشروه بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، وقد ساق الله ﷻ قصة البشارة بإسحاق في مواضع من كتابه الكريم حيث يقول: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلَنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَأَمْرَاتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكْتُمْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَتُوبَلَى أَأَئِدُّ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ «تريد رحمها الله أنها عقيم وعجوز، وأن زوجها إبراهيم ﷺ قد تجاوز التسعين عاماً» ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧١﴾ قَالُوا أَتَعْجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ [هود: ٦٩ - ٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ۝٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢﴾ قَالُوا لَا نَوْجَلُ إِنَّا نَبْشُرُكَ بِعِلْمٍ عَلِيمٍ ۝٥٣﴾ قَالَ أَبَشْرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ بَشِّرُونَ ۝٥٤﴾ قَالُوا بَشِّرْنَا بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۝٥٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿ [الحجر: ٥١ - ٥٦]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَعْرَضَهُمْ وَمَا يعبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ۝٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيمًا ﴿ [مریم: ٤٩ - ٥٠]، وقال تعالى: ﴿فَقَامَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَيْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٦٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَعَاقَبْتَهُ أَجْرًا فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿ [العنكبوت: ٢٦ - ٢٧]، وقال تعالى: ﴿هَلْ أَنْتَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ۝٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ۝٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَيْكَ أَهْلِهِ فَبِئَاءَ بِعَجَلِ سَمِينٍ ۝٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٢٧﴾ فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بِعِلْمٍ عَلِيمٍ ۝٢٨﴾ فَأَقْبَلَتْ أَمْرَاتُهُ فِي صَرَرٍ فَصَكَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ۝٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿ [الذاريات: ٢٤ - ٣٠]. وقد نص القرآن الكريم على أن يعقوب ولد إسحاق حيث يقول الله ﷻ: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُنَا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿ [البقرة: ١٣٣]، وإبراهيم جد، وإسماعيل عم، وإسحاق والد، والكل يطلق عليه اسم الأب. وقد وصف الله تبارك وتعالى إبراهيم بصفات فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا ﴿ [النحل: ١٢٠]. وقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿ [التوبة: ١١٤]، وقال: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ حَلِيلًا ﴿ [النساء: ١٢٥]، وأما ما ساقه الله ﷻ عن إبراهيم ﷻ في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُ تُؤْمِنُ قَالِ بَلَىٰ وَلَكِنْ لِيُطْمِئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا وَاعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿ [البقرة: ٢٦٠]، فهو صريح في أن إبراهيم كان عند سؤاله موقفًا بالبعث وبقدرة الله على إحياء الموتى، لكنه أحب أن يضيف إلى علم اليقين عين اليقين، وليكون أحد الأدلة المادية المحسوسة على قدرة الله على إحياء الموتى، وقد أورد الله

تعالى في سورة البقرة مجموعة من الأمثلة على ذلك، فذكر قصة قتيل بني إسرائيل وضربه ببعض البقرة المذبوحة وقال: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣]، وقال: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّعِقَةُ وَأَنْتُمْ نُنظَرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥ - ٥٦]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، وقال: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْبَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، ثم ساق بعد هذه القصة مباشرة قول إبراهيم: ﴿رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وأما ما رواه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «نحن أحق بالشك من إبراهيم» إذ قال: ﴿رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّ لِيُطْمِئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]، «ويرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد ولو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي». فإن المقصود من هذا هو الثناء على هؤلاء الأنبياء الثلاثة وبيان علو منازلهم، وأن إبراهيم لو كان شاكاً لكنت أولى بالشك منه، وما دام لم يخطر على بال أحد أن محمداً ﷺ يشك في قدرة الله على إحياء الموتى فكذلك إبراهيم ﷺ، فهو من الأساليب البلاغية المعروفة بتأكيد المدح بما يشبه الذم.

والركن الشديد الذي أوى إليه لوط هو الله تبارك وتعالى. وقوله في الآية: ﴿أَوْ آوَىٰ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]. ﴿أَوْ﴾ فيها بمعنى بل أي، بل أوى إلى الله ﷻ. ثم الثناء على يوسف باعتصامه عن السوء مع ما لقي من الأذى

والسجن. وقول رسول الله ﷺ: «ولو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي» أي لسارعت إلى ما دعاني إليه رسول الملك وخرجت من السجن، وقد أراد رسول الله ﷺ أن ينبه إلى المرتبة العُليا التي حازها يوسف الصديق ؑ.

والى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الرابع والعشرون

تابع إبراهيم ﷺ

أشرتُ في الفصل السابق إلى ما قصّه الله تبارك وتعالى عن إبراهيم ﷺ من قوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [الخ الآية [البقرة: ٢٦٠]، وبيّنت المراد من قول رسول الله ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم»، وأوضحنا أن ما كان من إبراهيم ﷺ ليس شكاً، وأن مراد رسول الله ﷺ الثناء على إبراهيم وبيان علو منزلته، وأن هذا جاء على طريقة الأسلوب البلاغي المعروف بتأكيد المدح بما يشبه الذم على حد قول الشاعر:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتاب

وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يتأسى بإبراهيم ﷺ وفي ذلك ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مَلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٦﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ لَا شَرِيكَ لَّهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١ - ١٦٣].

وردّ على اليهود والنصارى دعوى جبههم لإبراهيم وأنه على ملتهم فقال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧ - ٦٨]، وقال: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكَتَّابُ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَدْوَةٍ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْعُبْ عَنْ مَلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لِمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ وَوَصَّيْنَا إِبْرَاهِيمَ بَيْنَهُ وَيَعْقُوبَ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٠ - ١٣٢].

وقد وصف الله تعالى إبراهيم بأنه وقي، أي أتم كل ما أمره الله ﷻ به،

وفي ذلك يقول: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧]. ويقول: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]. وكما قال ﷺ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١١٠) شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ آجِبْتُهُ وَهَدَيْتُهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١١١) وَمَا تَيْنَهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعِ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠ - ١٢٣].

ولقد كان المشركون يدعون أنهم على ملة إبراهيم، وقد صوروا إبراهيم وإسماعيل وعلقوا صورتيهما بالكعبة وبأيديهما الأزلام يستقسمان بها، فأقسم رسول الله ﷺ أنهما لم يستقسما بالأزلام قط، وأمر بالصور فمُحيت.

فقد روى البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ لما رأى الصور في البيت لم يدخل حتى أمر بها فمُحيت، ورأى إبراهيم وإسماعيل بأيديهما الأزلام فقال: «قاتلهم الله، والله إن استقسما بالأزلام قط» وفي بعض ألفاظ البخاري لهذا الحديث قال: «قاتلهم الله لقد علموا أن شيخنا لم يستقسم بها قط».

ولم يتخذ الله تعالى من خلقه غير خليلين إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم، فقد ثبت في الصحيحين من حديث جندب البجلي وعبد الله بن عمرو وابن مسعود رضي الله عنهم عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أبيها الناس، إن الله اتخذني خليلاً».

كما أخرج البخاري من حديث أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في آخر خطبة خطبها: «أبيها الناس، لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله».

كما روى البخاري في صحيحه من حديث عمرو بن ميمون قال: إن معاذاً رضي الله عنه لما قدم اليمن صلى بهم الصبح فقرأ: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]. فقال رجل من القوم: لقد قرأت عين أم إبراهيم.

وقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل يا

رسول الله! مَنْ أكرم الناس؟ قال: «أكرمهم أقتاهم». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله». قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فعن معادن العرب تسألونني؟» قالوا: نعم. قال: «فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا».

وقد أخبر رسول الله ﷺ أن إبراهيم خليل الرحمن أول من يُكسى يوم القيامة، فقد روى البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «يُحشَرُ النَّاسُ عُرَاةً غُرْلًا، فَأُولَ مَنْ يُكسى إِبْرَاهِيمَ رضي الله عنه» ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وقد جعل الله تعالى من مكافأة إبراهيم رضي الله عنه على بنائه الكعبة المشرفة بأن جعله يسند ظهره إلى البيت المعمور في السماء السابعة كما جاء في صحيح البخاري في حديث رسول الله ﷺ عن الإسراء حيث قال: «فأتينا السماء السابعة، قيل: من هذا؟ قيل: جبريل، قيل: ومن معك؟ قيل محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ مرحباً به ونعم المجيء جاء، فأتيت على إبراهيم فسلمت عليه فقال: مرحباً بك من ابن نبي». وفي لفظ: «مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح، وإذا هو - أي إبراهيم - مسند ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه».

ومع هذه الكرامة وعلو المنزلة لخليل الرحمن إبراهيم رضي الله عنه فإنه لم ينفع أباه لما مات على الشرك، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يلقى إبراهيم أباه أزر يوم القيامة وعلى وجهه أزر قتره وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني، فيقول له أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا رب! إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون. فأني خزي أخزي من أبي، الأبعد، فيقول الله تعالى: «إني حرّمت الجنة على الكافرين». ثم يقال: يا إبراهيم! ما تحت رجلك؟ فينظر فإذا هو بذيخ ملتطخ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار».

وهذا كما قال رسول الله ﷺ: «يا فاطمة بنت محمد! اسأليني من مالي ما شئت فلن أغني عنك من الله شيئاً، ويا عباس عم النبي! اشتر نفسك لا أغني عنك

من الله شيئاً». وكما قال ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]. ولما قال النبي ﷺ بعد موت أبي طالب: «لأستغفرن لك ما لم أنه عن ذلك» فأنزل الله ﷻ: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٧٣﴾ وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَاهَا إِنِّي أَهْلُهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٣ - ١١٤].

وقد أثرت أن الله تبارك وتعالى جمع بين إبراهيم ومحمد ﷺ في صفاتهما الخلقية والخلقية، فكان محمد ﷺ أشبه الناس بأبيه إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وقد روى البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم حين أُلقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قيل له: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ ﴿١٧٣﴾ فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣ - ١٧٤]. كما روى البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يُعوذُ بالحسن والحسين ويقول: «إن أباكما كان يعوذ بها إسماعيل وإسحق: أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة».

وقد حصر الله النبوة والكتاب بعد إبراهيم ﷺ في ذريته حيث يقول: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد: ٢٦]، وكما قال ﷺ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

فكل كتاب أنزله الله تعالى بعد إبراهيم ﷺ على نبي من الأنبياء ففي ذريته، فقد ولد لإسحق يعقوب وهو إسرائيل، وإليه ينتسب سائر أسباطهم، وكانت فيهم النبوة حتى ختموا بعيسى ابن مريم، وهو من بني إسرائيل لنسب أمه فيهم.

أما الفرع الثاني من ذرية إبراهيم فهو إسماعيل ﷺ، ومن ذريته خاتم الأنبياء وسيد المرسلين، وهو الجوهرة الباهرة والدرة الزاهرة، وهو صاحب

المقام المحمود والحوض المورود الذي يغطه الألوان والآخرون يوم القيامة .
وقد ثبت في صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال : «سأقوم مقاماً يرغب
إليّ الخلق كلهم حتى إبراهيم» .

والى الفصل القادم إن شاء الله ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .



الفصل الخامس والعشرون

لوط عليه السلام

نتحدث في هذا الفصل عن لوط نبي الله ورسوله عليه السلام، وقد قرن الله تبارك وتعالى قصة لوط بقصة إبراهيم عليه السلام في مواضع كثيرة من كتابه الكريم، وذكر عليه السلام أن لوطاً آمن لإبراهيم، وأشار إلى أنه هاجر معه، حيث يقول: ﴿فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [العنكبوت: ٢٦]، وقد أشرتُ في ما مضى إلى أن الله تعالى أرسل لوطاً إلى أهل سدوم وما حولها من دائرة الأردن، وبقي خليل الرحمن في فلسطين، وكان أهل سدوم وقراها من أكفر خلق الله وأفجرهم، وقد ابتدعوا في الفجور بدعة لم يسبقهم إليها أحد من العالمين، فكانوا مع شركهم بالله تعالى يأتون الذكران من العالمين، ويقطعون السبيل، ويأتون في ناديهم المنكر ويعملون الخبائث، فجاءهم لوط عليه السلام يدعوهم إلى ربهم وينهاهم عن هذه الجرائم التي يرتكبونها، ويحذرهم من عقوبة الله إذا استمروا على باطلهم، فلم يستجيبوا له، وقال بعضهم لبعض: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّنطَهُرُونَ﴾ [النمل: ٥٦]، وكانهم من تسلط الرجس على قلوبهم صاروا يعدون الطهارة عيباً، يستحق به المتطهر الإبعاد.

وقالوا للوط عليه السلام: ﴿أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، قال لوط عليه السلام عندما استيأس منهم: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٠]، فأرسل الله تعالى ملائكة وأمرهم أن يَمروا بإبراهيم الخليل يبشرونه بإسحق، ومن وراء إسحق يعقوب، وأمرهم إذا انصرفوا من عند إبراهيم أن يقلبوا قرى قوم لوط على أهلها بعد أن يأمرهم لوطاً بالخروج من ديارهم. فجاءوا إلى سدوم في صورة رجال من أجمل خلق الله، فجاء قوم لوط إليهم مسرعين يريدون بهم السوء، فانذرع لوط عليه السلام، وقال لقومه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا

تُخْرُونَ فِي صَيْفِيٍّ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿ [هود: ٧٨]، إن نساءكم خير لكم وأطهر، قالوا: يا لوط! أنت تعرف أن شهوتنا في الرجال، ولا رغبة لنا في النساء، فاشتد غيظ لوط ﷺ، وقال لهم: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ﴾ [هود: ٨٠] يعني لدمرتكم، ولكني أوي إلى الله ﷻ، فمن أوى إليه فقد أوى إلى ركن شديد، فعند ذلك أعلمه الضيوف أنهم ملائكة، وأنهم رُسل الله لإهلاك قومه، ويذكر أن جبريل ﷺ بعد أن طمأن لوطاً ﷺ على أنه لن ينالهم منهم أذى ضرب جبريل أعينهم فطمسها، وقالوا للوط: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُونَكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أُمَّرَاتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٣]، وقالوا له: ﴿فَأَسِرْ بِأَهْلِكَ يَقطِجْ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾ [الحجر: ٦٥]. وبشروه بأن ﴿دَابِرَ هَتُولَاءِ مَقَطُوعٍ مُّصْحِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦]، فخرج لوط ﷺ وابنتاه، فجاهم الله من العذاب الأليم، وقلبت الملائكة أرض قوم لوط عليهم، فجاءهم حاصب من فوقهم، وخسف من تحتهم، فانقلبت أرضهم كما انقلبت فطرتهم، وقد أبقاها الله ﷻ إلى اليوم آية بينة يعرفها أهل الجزيرة العربية إذا قدموا إلى الشام أو رجعوا منها على حد قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَشُرُونَ عَلَيْهِمْ مُّصْحِحِينَ﴾ (١٣٧) ﴿وَاللَّيْلُ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصفات: ١٣٧ - ١٣٨].

وقد جعل الله ﷻ امرأة لوط قدوة لكل كافر إلى يوم القيامة، حيث يقول: ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَنَّاهُمَا فَذَمَّتْنَاهُمَا بِمَا فَعَرَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾ [التحریم: ١٠]، وقد شرحتُ فيما مضى أن خيانة امرأة نوح وامرأة لوط لم تكن خيانة زوجية بالزنا، وإنما كانت كفراً بالله ﷻ ومحاربة لرسله عليهم الصلاة والسلام.

وقد ساق الله تبارك وتعالى قصة لوط في مواضع من كتابه الكريم حيث يقول في سورة الأعراف: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (٨٠) ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ (٨١) ﴿وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظَهُرُونَ﴾ (٨٢) ﴿فَأَمَّجِنَهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَاتَهُمْ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ (٨٣) ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠ - ٨٤].

وقال في سورة هود: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ
فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَرَهُمْ وَأَوَّجَسَ مِنْهُمْ
خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَأَمْرُهُمْ قَائِمَةٌ فَضَحَكْتُ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ
وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَتُولىءُ بِي الْإِذُّ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا
لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ
حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجْدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنْ
إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَتْلُوهُمْ أَغْرَضَ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَاتِهِمْ
عَذَابٌ عَزِيزٌ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ يَوْمٍ وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ
عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمَنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَفْقَهُمْ هَؤُلَاءِ
بَنَاتِي ﴿٧٨﴾ «يعني زوجاتكم» ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَفْخَرُوا فِي صَيفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ
رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٩﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ ﴿٨٠﴾ «أي من رغبة وشهوة» ﴿وَإِنَّكَ
لَنَعْلَمُ مَا تُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِيٌّ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا
رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِبْ بِهِمْ فَأَهْلِكْ بَقِيعَ مَنْ آوَىٰ وَلَا يَلْفِتْ مِنْكُمْ أَحَدًا إِلَّا
أَمْرًا إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا
جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنصُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ
وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِعِيدٍ ﴿هود: ٦٩ - ٨٣﴾.

وقال تعالى في سورة الحجر في قصة بشارة إبراهيم بإسحاق وهاك قوم
لوط: ﴿تَوَجَّ عِبَادِي أَيُّ أَنَا الْعَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾
وَنَبِّئُهُمْ عَنْ صَيفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجْهُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا
تُوجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلَيْكَ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشِّرْتُمُونِي عَلَيَّ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَا بَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾
قَالُوا بَشِّرْنَا بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْفٰطِنِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا
الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾
إِلَّا ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمَنجُوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا أَمْرَانَهُ قَدَرْنَا إِنَّمَا لِمَنِ الْفٰدِرَاتُ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا
جَاءَ ءَالَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُسْكِرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ
يَعْتَمِرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِبْ بِهِمْ فَأَهْلِكْ بَقِيعَ مَنْ آوَىٰ وَأَتَيْنَاكَ
بِغُلَامٍ عَلَيْكَ ﴿٦٥﴾ قَالُوا سَلَامٌ عَلَيْكَ بَشِّرْنَا بِمَا كُنَّا نَبْشِرُكَ ﴿٦٦﴾ قَالُوا سَلَامٌ عَلَيْكَ بَشِّرْنَا بِمَا كُنَّا نَبْشِرُكَ ﴿٦٧﴾

وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَتُولَاءِ
 مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ
 ﴿٦٨﴾ وَأَنْقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوْلَمْ نَسْهَكْ عَنِ الْعَلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتٌ إِنْ
 كُنْتُمْ فَعَالِينَ ﴿٧١﴾ لَعَنَّاكَ إِيْتَهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا
 عَلَيْهِمْ سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُؤْمِنِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا
 لِسِيبٌ مَّقِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿[الحجر: ٤٩ - ٧٧].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل السادس والعشرون

تابع: لوط ﷺ

سقت في الفصل السابق ما ذكره الله ﷻ عن لوط ﷺ في سورتي الأعراف وهود وفي سورة الحجر، وقال تعالى في سورة الأنبياء عن إبراهيم ولوط: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١].

ثم قال بعد ذلك: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِرَبِّهِ: إِنِّي لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٤-٧٥].

وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا نُنْفِقُ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَانْفِقُوا اللَّهُ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَخْرُجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَجَنَّبْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٦٠ - ١٧٥].

وقال تعالى في سورة النمل: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَلْحَشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَيُّكُمْ لَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِجَهْلُونَ ﴿٥٥﴾ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْفُسٌ يَنْظُرُونَ ﴿٥٦﴾ فَانجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ [النمل: ٥٤ - ٥٨].

وقال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأْتُونَ

الْفَجِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَيَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ
وَتَقَطُّعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ
قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ
الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلَنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ
إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا
لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا
سِئَاءَ بِيئِهِمْ وَصَافِكْ بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيُكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أُمَّرَأَتَكَ كَانَتْ
مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مَنَزَلُونَا عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِمَّنِ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا
يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿العنكبوت: ٢٨ - ٣٥﴾.

وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ
أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّا لَنُورِثُهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ
﴿١٣٧﴾ وَبِأَيِّ آيَاتِنَا لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٣ - ١٣٨].

وقال تعالى في سورة الذاريات بعد قصة ضيف إبراهيم وبشارتهم بإياه بسلام
عليهم قال ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾
لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنْ
الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ
الْأَلِيمَ﴾ [الذاريات: ٣١ - ٣٧].

وقال تعالى في سورة النجم: ﴿وَالْمُؤْنِفِكَةَ آهَوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّيْنَا مَا عَشَىٰ﴾ [النجم:
٥٣ - ٥٤].

وقال تعالى في سورة القمر: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذِرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا
إِلَّا عَالَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ
بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالَّذِرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ صَيفِيهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴿٣٧﴾
وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقَرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ
مِنَ مُّذَكِّرٍ﴾ [القمر: ٣٣ - ٤٠].

وقد فهم بعض الناس خطأً أن قول لوط: ﴿أَوْ آوَىٰ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]

يعني أو آوي إلى قبيلة قوية تدافع عني، وهذا فهم فاسد، فقد جاء في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يغفر الله للوط إن كان ليأوي إلى ركن شديد»، وهذا يدل على أن الركن الشديد الذي كان يأوي إليه لوط موجود، وهو الله تعالى، بخلاف من زعم أنه كان يتمنى عشيرة يأوي إليها وهي غير موجودة، فأهله في العراق، وقد هاجر عنهم، وقد جاء تأكيد وجود الركن الشديد الذي أوى إليه لوط فأواه فيما رواه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ويرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد».

وفيما ساقه ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿أَوْ آوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «رحمة الله على لوط لقد كان يأوي إلى ركن شديد». و﴿أَوْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوْ آوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ بمعنى بل، فهي للإضراب كأنه قال: «ليس لي بكم قوة بل آوي إلى ركن شديد»، فلما أوى إلى الله آواه الله إليه، ولذلك قال الملائكة حينئذٍ: ﴿يَلُوطُ إِنَّا رَمَلْنَاكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ [هود: ٨١].

هذا وجريمة إتيان الذكران من العالمين تأبأها الكثير من الحيوانات العجماء، وقد قال عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي: «لولا أن الله ذكر ذلك في القرآن ما ظننت أن ذكراً ينزو على ذكر».

ومن غرائب الأمور وعجائبها إطلاق لفظ لوطي على من يأتي الذكران، وقد شاعت هذه اللفظة. واستعملها العلماء والعوام، وهو إطلاق غير صحيح، فلا يجوز أن تنسب هذه الجريمة إلى لوط عليه السلام، فيقال لمرتكبها لوطي، كما لا يجوز أن يُقال في أبي جهل وأبي لهب إنهما محمديان؛ لأنهما ضد محمد صلى الله عليه وسلم، كما أن من يأتي هذه الجريمة هو ضد لوط عليه السلام، وقد حكى الله تعالى عن لوط أنه قال: ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِّنَ الْفَالِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٨]، ولا سبيل إلى صحة هذا الإطلاق بحال؛ لأن كلمة لوط تدل على معنى الإصلاح، يقال: لاط الحوض إذا أصلحه، وهؤلاء مفسدون في الأرض، ولذلك لم يرد خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في تسمية

أهل هذه الجريمة لوطيين، بل الآثار الواردة عنه ﷺ تقول: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط...» إلخ الأثر. فيقال لمن يرتكب هذه الجريمة: إنه عمِلَ عَمَلَ قوم لوط، ولا يقال: له لوطي بحال؛ برأ الله لوطاً من هذه النسبة الرديئة.

هذا ومن مفتريات أهل الكتاب من اليهود والنصارى أن لوطاً بعد أن نجاه الله سكر وزنا بابنتيه، فقد جاء في الإصحاح التاسع عشر من سفر التكوين ٣٠ - وصعد لوط من صوغر وسكن في الجبل وابتاه معه لأنه خاف أن يسكن في صوغر فسكن في المغارة هو وابتاه. ٣١ - وقالت البكر للصغيرة: أبونا قد شاخ وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض. ٣٢ - هلم نسقي أبانا خمراً ونضطجع معه فنحيي من أبنينا نسلًا. ٣٣ - فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. ٣٤ - وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة: إني قد اضطجعت البارحة مع أبي، هلم نسقيه خمراً الليلة أيضاً فادخلي اضطجعي معه. ٣٥ - فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة أيضاً وقامت الصغيرة واضطجعت معه ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. ٣٦ - فحبلت ابنتا لوط من أبيهما.

هذه عبارة الإصحاح التاسع عشر من سفر التكوين من التوراة التي بيد اليهود والنصارى، برأ الله لوطاً وابنتيه من هذه الفرية ونزّه لوطاً من كل إثم، وسلام عليه في العالمين.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل السابع والعشرون

إسماعيل ﷺ

نتحدث في هذا الفصل عن الابن البكر لخليل الرحمن، وهو إسماعيل ﷺ، وقد ذكرتُ في أثناء حديثي عن إبراهيم ﷺ قصة هاجر وأن ملك مصر أعطاها لسارة، وأن سارة وهبتها لإبراهيم، وأنها ولدت له إسماعيل ﷺ، وذكَّرتُ ما أورده البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما من قصة مجيء إبراهيم بهاجر وإسماعيل إلى مكة، وقصة زمزم ونشأة إسماعيل ﷺ وتعلُّمه اللسان العربي، وزواجه بامرأة من جرهم ثم فراقها بأمر أبيه الخليل ﷺ، وزواجه بامرأة أخرى صالحة من جرهم، وأمر أبيه له بالمحافظة عليها وتثبيتها، وقصة مساعدة إسماعيل لإبراهيم ﷺ في بناء البيت الحرام، وأقامت الحُجة الواضحة على أن إسماعيل هو الذبيح وليس إسحاق عليه السلام، وأن وصف إسماعيل في البشارة به بأنه غلام حلیم بخلاف البشارة بإسحاق، فقد وُصِفَ بأنه غلام عليم، وأن إسماعيل أكبر من إسحاق، وأن إبراهيم لم يُبَشِّرْ بإسحاق إلا بعد أن بلغَ إسماعيل السَّعي مع أبيه عليهم الصلاة والسلام، وقد بيَّنت كذلك أن إسماعيل ﷺ قد جعل الله من ذريته خاتم الأنبياء، وسيد المرسلين، الجوهرة الباهرة، والدرة الزاهرة صاحب المقام المحمود والحوض المورود محمداً ﷺ.

وقد ذكر الله تبارك وتعالى إسماعيل في كتابه الكريم في مواضع بأوصاف جليلة، حيث يقول في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ [البقرة: ١٢٧ - ١٢٨].

وقال ﷻ في سورة مريم: ﴿وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ [مريم: ٥٤ - ٥٥].

وقرنه في سلسلة الأنبياء والمرسلين في مواضع حيث يقول: ﴿وَأَذْكُرْ عِنْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿ص: ٤٥ - ٤٨﴾

وقال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿[الأنبياء: ٨٥ - ٨٦].﴾

وقال تعالى في سورة النساء: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآدَمَ إِذْ دَاوُدَ زُورًا ﴿[النساء: ١٦٣].﴾

وقال تعالى في سورة البقرة: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿[البقرة: ١٣٦].﴾

وقال تعالى في سورة آل عمران: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿[آل عمران: ٨٤].﴾

وبرأ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط من اليهودية والنصرانية، حيث يقول: ﴿أَمْ نَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿[البقرة: ١٤٠].﴾

وقد أورد الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم مقاماً لإسماعيل عليه السلام تتقاصر دونه المقامات العالية، حيث أخبره أبوه الخليل عليه السلام بأنه رأى في المنام أنه يذبحه، ففطن إسماعيل في الحال إلى أن رؤيا الأنبياء وحي تجب المسارعة في الإذعان له، والامتثال لأمره، ولو كان في ذلك ذبحه، فإنه وجود بنفسه امتثالاً لأمر الله، وطاعة لرسول الله ﷺ، ولم تعرف الإنسانية كلها مثل هذا المقام. وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى في سورة الصافات: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ

لِإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَيُّهَا
 إِلَهَاءُ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَظَنَرَ نَظْرَةً فِي التَّجْوِيرِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي
 سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَنَوَلُوا عَنْهُ مُدْرِيبَيْنِ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَيْكَ الْهَيْهَاتِ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا نَطْقُونَ
 ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ صَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَعْبُدُونَ مَا تَنْحَسُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ
 خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ابْنُوا لَنَا بُيُوتًا فَالْقَوْمُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ
 الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ
 بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يُبْنَىٰ إِلَيَّْ آيَةٌ فِي الْمَنَامِ آيَةٌ أُذْبِحُ بِهَا فَلَنظُرَ مَاذَا
 رَزَقْتُ قَالَ يَتَأْتِي أَفْعَلٌ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا ﴿١٠٣﴾ أَي
 انقادا لأمر الله ﴿١٠٤﴾ وَتَلَّ لِلْجِبِينِ ﴿١٠٥﴾ أَي وصرعه على جبينه لينفذ فيه أمر الله ﷻ
 ﴿١٠٦﴾ وَوَدَّيْنَهُ أَنْ يَتَّيْرَهُ ﴿١٠٧﴾ قَدْ صَدَقَتِ الرُّؤْيَا ﴿١٠٨﴾ أَي وفيت ما أمرك الله به ﴿١٠٩﴾ إِنَّا
 كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلْتَأُ الْمِينُ ﴿١١١﴾ وَوَدَّيْنَهُ بِذِيحٍ عَظِيمٍ ﴿١١٢﴾

[الصفات: ٨٣ - ١٠٧].

هذا ولا نزاع عند النسابين أن جميع القبائل العربية العدنانية هم من ذرية
 إسماعيل ﷻ، أما القحطانيون فأكثر أهل العلم على أنهم ليسوا من ذرية
 إسماعيل، وعامة أهل العلم على أن خزاعة من قحطان، وكذلك الأوس
 والخزرج.

وقد جاء في صحيح البخاري من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: مرَّ
 النبي ﷺ على نفر من أسلم ينتضلون، أي يترامون للسبق، فقال: «ارموا بني
 إسماعيل فإن أباكم كان رامياً وأنا مع ابن فلان» قال: فأمسك أحد الفريقين
 بأيديهم، فقال رسول الله ﷺ: «ما لكم لا ترمون؟» فقالوا: يا رسول الله! نرمي
 وأنت معهم؟ قال: «ارموا وأنا معكم كلكم».

وفي لفظ للبخاري من حديث سلمة رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ على
 قوم من أسلم يتناضلون بالسوق، قال: «ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً
 وأنا مع بني فلان» لأحد الفريقين، فأمسكوا بأيديهم، فقال: «ما لهم؟» قالوا:
 كيف نرمي وأنت مع بني فلان؟ قال: «ارموا وأنا معكم كلكم».

وقبيلة أسلم تنتمي إلى أسلم بن أفصى بن حارثة بن عمرو بن عامر من خزاعة، ولا إشكال في هذا على من زعم أن قحطان من ذرية إسماعيل، أما أكثر أهل العلم الذين يرون أن القحطانيين ليسوا من ذرية إسماعيل فإنهم يقولون: إن هذا الحديث قد يحمل على كون أسلم من ذرية إسماعيل من جهة الأمهات لا من جهة الآباء؛ لأن القحطانية والعدنانية قد اختلطوا بالمصاهرة، ولا مانع من مثل هذه النسبة كما انتسب جميع بني فاطمة الزهراء إلى رسول الله ﷺ.

والى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الثامن والعشرون

إسحاق بن إبراهيم

تحدث في هذا الفصل عن نبي الله ورسوله إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهما الصلاة والسلام، وإسحاق هو الابن الثاني لإبراهيم عليه السلام، وقد ولد من زوجته الصالحة سارة عليها السلام، وهو أحد الآيات التي امتنَّ الله بها على خلقه وإليه تنتمي جميع أسباط بني إسرائيل، قد ولدته أمه وهي عجوز عقيم، من إبراهيم عليه السلام، وقد أشرف سنَّه على مئة عام.

وقد ذكر الله تبارك وتعالى البشارة بإسحاق في غير موضع من كتابه الكريم، حيث يقول في سورة الذاريات: ﴿هَلْ أَنْتَ حَدِيثُ صَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمَكْرُورِ ۖ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَّمَ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ۗ﴾ (٢٥) فَرَأَى إِلَيْكَ أَهْلِيهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۗ﴾ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۗ﴾ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۗ قَالُوا لَا تَخَفْ ۗ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ۗ﴾ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صِرْفٍ فَأَصْبَحَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ۗ﴾ (٢٩) قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ۗ﴾ [الذاريات: ٢٤ - ٣٠].

ويقول سبحانه في سورة هود: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلَنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرِيعِ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَّمَ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ۗ﴾ (٦٩) فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۗ قَالُوا لَا تَخَفْ ۗ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ۗ﴾ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ ۗ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ۗ﴾ (٧١) قَالَتْ يَتُوبَلَىٰ ۗ أَلَاؤُا وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ۗ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ۗ﴾ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۗ رَحِمْتُ اللَّهُ ۗ وَرَكَعَتْهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ۗ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ۗ﴾ (٧٣) فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَىٰ مُجْدِلًا فِي قَوْمِ لُوطٍ ۗ﴾ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ۗ﴾ [هود: ٦٩ - ٧٥].

ويقول سبحانه في سورة الحجر: ﴿وَنَبِّئُهُمْ عَنْ صَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ۗ﴾ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجَلُونَ ۗ﴾ (٥٢) قَالُوا لَا تَوْجَلْ ۗ إِنَّا نَبِّشْرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ۗ﴾ (٥٣) قَالَ

أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَيَّ أَنْ مَسَّيَ الْكِبَرُ فِيمَ بُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْفٰلِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ [الحجر: ٥١ - ٥٦].

وقال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلَنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرِى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَاتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغٰلِبِينَ ﴿٣٢﴾ [العنكبوت: ٣١ - ٣٢].

وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿وَبَشَّرْتَهُ بِإِسْحٰقَ نَبِيًّا مِّنَ الصّٰلِحِينَ ﴿١١٣﴾ وَبَرَكَاتًا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحٰقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظٰلِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٢﴾ [الصافات: ١١٢ - ١١٣].

وقد وصف الله تبارك وتعالى سارة عند تلقيها البشارة بأوصاف منها أنها عندما سمعت ضيف إبراهيم يبشرونه بإسحاق أقبلت عليهم في رنة عجيبة مبدية استغرابها من أن يلد مثلها في هذا السن المتقدم، من هذا الزوج الشيخ الكبير، ولذلك صكت وجهها من شدة وقوع هذه البشارة على نفسها، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿فَأَقْبَلَتِ أُمَّرَاتُهُ فِي صَرَخٍ فَصَكَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ [الذاريات: ٢٩].

وكما وصفها الله تبارك وتعالى بأنها كانت قائمة، وأنها ضحكت، وليس من سبب لضحكها هنا سوى فرحها بالأضياف، فجاءتها البشارة بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب. وقالت مستغربة متعجبة: ﴿قَالَتْ يَتُوبَلَىٰ ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ [هود: ٧٢].

وفي قوله ﷻ: ﴿رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّكُمْ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ [هود: ٧٣]. دليل قاطع على أن زوجة الرجل من أهل بيته وفيه ردٌ حاسم على بعض أهل الأهواء المنحرفين عن سُنَّةِ رسول الله ﷺ أولئك الذين لا يُدْخِلُونَ زَوٰجَاتِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ [الأحزاب: ٣٣] حقدًا منهم على الطيبات الطاهرات أمهات المؤمنين مع أن السياق جاء نصًّا في زواج رسول الله ﷺ حيث يقول ﷻ: ﴿يٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ لَسْنَا مِنْ أَلْسَانٍ مِّنَ السَّمٰوٰتِ إِنَّا نَقِيْنٌ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ [٣٢] وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ

الْجَهْلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقَمَنَ الصَّلَاةَ وَعَاتَبَنَ الرَّكُوعَ وَأَطَعَنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَأَذْكُرَنَّ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿الأحزاب: ٣٢ - ٣٤﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ﴾ [هود: ٧١]. إشعار بأنها تلد غلاماً عليماً يعيش ويكون له نسل، وأن الله تعالى هو الذي سمي ولدها إسحاق، وسمى ولد ولدها يعقوب، ويمكن أن يكون فيه إشعار كذلك بأنها سيمتد بها العمر حتى ترى ولد ولدها، ولا شك أن يعقوب هو ولد إسحاق، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنِّي بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًُا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

وإبراهيم جد وإسماعيل عم وإسحاق والد، والكل يسمى أباً، وكما قال ﷻ: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْنِبُكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ٦].

وقد نص رسول الله ﷺ على أن يعقوب هو ولد إسحاق بن إبراهيم ﷺ، فقد روى البخاري من حديث عبد الله بن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم». وقد وصف الله تبارك وتعالى يعقوب في البشارة بإسحاق بأنه نافلة، حيث يقول: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۗ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٢ - ٧٣]، وقال ابن عباس وقتادة والحكم بن عيينة: النافلة ولد الولد، ومن فسر النافلة في الآية بأنها العطية أو الزيادة فإنه مقر بأن يعقوب هو ولد إسحاق لما جاء في نص القرآن العظيم والسنة النبوية بأن يعقوب هو ولد ولد إبراهيم عليهم الصلاة والسلام.

وقد أورد الله تبارك وتعالى ذكراً إسحاق في مواضع من كتابه الكريم مع

جملة من النبيين والمرسلين . وفي ذلك يقول في حق إبراهيم عليه السلام : ﴿ فَلَمَّا أَعْتَرَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ [مريم: ٤٩].

وكما قال عليه السلام : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوشَعَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زُبُورًا ﴾ [١١٣] وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ [١١٤] رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٣ - ١٦٥].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل التاسع والعشرون

يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم

تحدث في هذا الفصل عن يعقوب نبي الله بن إسحاق نبي الله بن إبراهيم نبي الله عليهم الصلاة والسلام، وقد تقدم في الفصل السابق أن الله تعالى بشر سارة بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، وأشارت إلى أن القرآن قد نص على أن يعقوب هو ابن إسحاق كما نص على ذلك رسول الله ﷺ في الخبر الذي أخرجه البخاري في ذلك.

ويعقوب هو إسرائيل، وإليه تنتمي جميع أسباطهم، ومعنى إسرائيل: عبد الله، فهو مركب تركيب الإضافة؛ فإن إسرا بالعبرانية هو: العبد، وإيل هو: الله، على أن العرب قد تصرفت في هذا الاسم بلغات كثيرة منها: إسرائيل، بإبدال اللام نوناً، كما قالوا في إسماعيل: إسماعين. وهي لغة عربية فصيحة كذلك.

وقد ساق الله تبارك وتعالى الكثير من أخبار يعقوب ﷺ في قصة ولده يوسف ﷺ، وقد أشار القرآن العظيم إلى أن يعقوب تزوج أكثر من زوجة، وأنه كان يحس بحنان وعاطفة قوية إلى يوسف ﷺ، وأن إخوة يوسف من أبيه حقدوا عليه لحب أبيه له، وأن يوسف كان له أخ شقيق بدليل قوله تعالى عن يوسف: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُوْنِي بِأَخٍ لَكُمْ مِّنْ أَيْكُمُ﴾ [يوسف: ٥٩].

وأشار القرآن إلى أن يعقوب ﷺ كان يسكن في بادية بفلسطين مع بنيه، وأن يوسف ﷺ رأى وهو صغير رؤيا فقصّها على يعقوب، قال: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]. فنصحه أبوه بكتمان هذه الرؤيا عن إخوته مخافة أن تحملهم على الكيد له وإلحاق الأذى به. وأفاده أن هذه الرؤيا تدلُّ على أن الله ﷻ يصطفيك ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُمْتَرُ﴾

نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِيْرِهِمْ وَإِسْحَاقَ ﴿٦﴾ [يوسف: ٦]، وقد ازداد يعقوب بهذا حرصاً على يوسف ﷺ، وكان لا يكاد يطيق فراقه أو بعده عنه، وقد أشعل الشيطان نار الحقد على يوسف في قلوب إخوته فتأمروا عليه: أن يقتلوه أو يطرحوه أرضاً بعيدة عن أبيهم ليخلو لهم وجه أبيهم، واستقر رأيهم على عدم قتله، وأن يلقوه في غيابة الجب لتلتقطه بعض السيارة ويحموله إلى أرض بعيدة مُدَّعين لأبيهم أن الذئب أكله. ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمِنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصِِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [يوسف: ١١ - ١٢]، فأظهر يعقوب ﷺ تعلقه بيوسف وأنه لا يحب أن يبتعد عنه ويخشى عليه من الذئب ﴿قَالَ إِنِّي لِحِزْنِي أَنْ تَدَّهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّيْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذَّيْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَاءَ وَآبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذَّيْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءَهُ عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٣ - ١٨].

وقد ذكر الله ﷻ قصة مجيء إخوة يوسف إليه في مصر يمتارون طعاماً وهم لا يعرفونه، وأنه طلب منهم إحضار أخ لهم من أبيهم ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْدُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانًا نَكْتَلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٣﴾ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا آمَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٣ - ٦٤]، وقال يعقوب ﷻ: ﴿قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَبْنَئِي لَأُدْخِلُوهُنَّ مِنْ بَابٍ وَجِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَلْحَمْتُمْ إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ [يوسف: ٦٦ - ٦٨]، وأن يوسف ﷻ عندما رأى شقيقه عرفه بنفسه

وقال: ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف: ٦٩]، ﴿جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ [يوسف: ٧٠]، لتكون سبباً ظاهراً لحجزه عنده، وحاول إخوة يوسف أن يجعلوا أحد أشقائهم مكانه لكنه رفض ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرْنَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٧٨]، فرفض يوسف ﷺ: ﴿فَلَمَّا أَسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْتِيَ لِي آيٌ أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٨٥) ﴿رَجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ (٨٦) ﴿وَسَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [يوسف: ٨٠ - ٨٢].

قال يعقوب ﷺ لَمَّا قَالَ لَهُ أَوْلَادُهُ ذَلِكَ: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (٨٣) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا سَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَأَبْيَضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٣ - ٨٤]، فقال له بنوه: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَوْنَا تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ [يوسف: ٨٥] أي قريباً من الموت لما يجلبه لك الحزن من الأسقام والأوجاع ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ [يوسف: ٨٥] أي أو تموت. ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُرْبِي إِلَى اللَّهِ وَعَلِمْتُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٨٦) ﴿يَبْنَئِي أَدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٦ - ٨٧].

فلما دخلوا على يوسف وشرحوا له ما أصاب أباهم من الهم والحزن على فراق ولده عرفهم يوسف بنفسه، وأمرهم أن يذهبوا بقميصه ليضعوه على وجه أبيه ليذهب حزنه وليأتي بصيراً، وأمرهم أن يأتوه بأهلهم أجمعين، ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعَيْرُ قَالَ أَبُوهُمْ﴾ يعقوب ﷺ لبنيه: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ ألقى قميص يوسف على وجه أبيه ﴿فَازْتَدَّ بِصَبْرًا﴾ وقال لبنيه: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَغْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٩٦) ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ (٩٧) ﴿قَالَ سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٩٨) ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبُويَهُ﴾ [يوسف: ٩٦ - ٩٩] أي ضم إليه أباه وخالته أم إخوانه

لأبيه، والخالة أم فهي أحد الأبوين، أو هي أمه. ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ٩٩ - ١٠٠] وسجدوا لله للشكر.

وقال يوسف: ﴿يَتَابَتْ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الثلاثون

يوسف الصديق ﷺ

نتحدث في هذا الفصل عن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف الصديق نبي الله ورسوله ﷺ، وقد تقدم في الحديث عن آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم الصلاة والسلام بعض الحديث عنه ﷺ، وعامة النسابين على أنه وُلِدَ ليعقوب من زوجته راحيل، وأكثر أهل العلم على أنها ماتت وهو صغير بعد أن تركت له شقيقاً أصغر منه هو بنيامين.

وكان يعقوب ﷺ قد أنجب من غير راحيل عشرة أولاد آخرين، وكانت زوجته الأخرى هي أخت راحيل الكبرى، وقد أعطى الله ﷻ يوسف ﷺ من الحُسن والجمال ما جُعِلَ مضرب المثل في ذلك حتى وصفه رسول الله ﷺ بأنه أُعطي شطر الحُسن، فقد روى مسلم في صحيحه في قصة الإسراء والمعراج من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال في حديثه عن عروجه إلى السموات العلى: «ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بُعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بيوسف، فإذا هو قد أُعطي شطر الحُسن» إلخ الحديث.

وقد ذكر الله تبارك وتعالى عن النسوة اللاتي لُمنَ امرأة العزيز أنها لما اختبرتهم فوضعت ﴿لَمَنْ مَثَلاً وَأَنْتَ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سَيِّئًا وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيْنَ فَمَا رَأَيْتَهُ أَكْبَرَهُ وَقَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَسْبُ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١].

وقد أحبه أبوه يعقوب ﷺ، لما منَّ الله عليه به من جمال الظاهر والباطن، ورأى إخوته أن أباهم يحب يوسف وبنيامين أكثر منهم، وأبوهم أعرف بحالهم وحاله وسلوكهم وسلوكه.

فحقدوا على يوسف ﷺ، وإخوة يوسف ليسوا بمعصومين من المعاصي

والسيئات، فهم ليسوا بأنبياء، وهم وإن كانوا من الأسباب لكنهم غير الأسباب الذين ذكر الله ﷻ أنه أوحى إليهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ﴾ [النساء: ١٦٣] إذ السبط يطلق على ولد الولد مهما نزل. كما يطلق على ولد البنت كذلك. وقد خصَّ الله تبارك وتعالى يوسف بسورة كاملة من القرآن قصَّ فيها قصته وقد ختم سورة هود بقوله تعالى: ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠] الخ، وقد ذكر في أنباء الرُّسل المذكورين في سورة هود ما لقي الأنبياء من قومهم من الأقارب والأباعد من الأذى ذكر في سورة يوسف وهو أحد الرسل العظام ما لقي من أذى إخوته له، ليعلم ما لقيه الأنبياء من أذى الأقارب والأجانب لِمَا في ذلك من تثبيت فؤاد رسول الله ﷺ وتثبيت قلوب المؤمنين.

وقد اشتملت قصة يوسف ﷺ على الجليل من الأحكام والحكم والآداب وقواعد السوك وسيير الملوك، وتفكير العلماء، وتدبير الخطط للوصول إلى المقاصد الصالحة، ورسم الوسائل الجميلة لنيل الأهداف السامية، ومكر النساء، وعدم صبرهن على ما قد يعرض لهن من الفتن. وبيان حسن عاقبة المتقين الصابرين، وأن الأنبياء لا يعلمون الغيب إلا ما يطلعهم الله عليه منه.

وقد بدأ الله تبارك وتعالى قصة يوسف برؤياه التي رأى ﷺ وهو صغير السن، وختم قصته بأن ما آل إليه من العزة والكرامة كان تأويل رؤياه وتحقيقها، وفي رؤيا يوسف يقول الله ﷻ: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، وقد فهم يعقوب ﷺ أن رؤيا يوسف هذه تدل على أنه أعدَّ لأمر عظيم من تشریف الله له، وإعزاز جنابه، واصطفاء الله له، وأنه يتم نعمته عليه وعلى أبيه يعقوب كما أتمها على أبويه إبراهيم وإسحاق، وطلب من يوسف أن يكتفم هذه الرؤيا عن إخوته لما يستشعره يعقوب من حقدهم عليه وبغضهم له، وأنه لو أخبرهم بقصة هذه الرؤيا لازدادوا حقداً وكادوا له كيداً.

وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿قَالَ يَبْنِي لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَيَّ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ وَيَعْلَمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَبُيِّنَ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿يوسف: ٥ - ٦﴾، وقد فهم يعقوب من هذه الرؤيا كذلك أن ابنه يوسف سيكون طويل الباع في تعبير الرؤيا والأحلام، مما ينبني على ذلك من رفعة شأنه وعلو منزلته، وتمكينه في الأرض، وعامة المفسرين على أن الأحد عشر كوكباً هم إخوة يوسف، وأن الشمس والقمر هما أبوه وخالته أو أبوه وأمه.

وقد وصف الله ﷻ ما كان من شأن يوسف وإخوته بأنه آيات للسائلين حيث يقول: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْسَّائِلِينَ﴾ [يوسف: ٧]، أي عبر وعظات وعجائب وحكم للمستخبرين المستشرفين المعتبرين المتشوفين. وماذا يفعل الحسد بصاحبه، ونهاية حال الحاسدين، وأثار الصبر والعاقبة الحميدة للصابرين، وحنان الأب، وأنه مهما حرص الإنسان على حفظ ولده من السوء، فإنه لا يخلّصه من قضاء الله، وأن الأب الصالح قد يلد الابن غير البار. وأن العفو عند المقدرة من شيم الكرام، وإثبات النبوة والرسالة لخاتم الأنبياء محمد ﷺ، إلى غير ذلك من الدلالات والعبر مما لا يحيط به إلا الله ﷻ.

وكانت أول بادرة سوء من إخوة يوسف أن قالوا: ﴿لِيُؤَسِّفُوا وَأَخُوهُ﴾ [يوسف: ٨] بنيامين ﴿أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَّا﴾ [يوسف: ٨]، فميله إليهما أكثر، وحنانه عليهما أعظم، وعطفه عليهما أشد مع أننا لقوتنا أعظم نفعاً لأبينا، ونحن مع كثرتنا يد واحدة، إن أبانا لمخطئ في هذا الحب، بعيد عن الرشد والصواب، قال بعضهم لبعض: لا بد من صرف يوسف عن وجه أبيه فاقترح بعضهم قتله، واقترح بعضهم رميه في أرض بعيدة تفرسه الوحوش أو يموت في تلك الأرض ونكون صالحين بعد ذلك، واقترح بعضهم إبعاده عن أبيه مع محاولة المحافظة عليه من أسباب الهلاك بإلقائه في ﴿غَيْبَتِ الْجُبِّ﴾ [يوسف: ١٠]، وهي إحدى جوانب البئر المظلمة لئلا تقط، واستقر رأيهم على أن يجعلوه في مكان مظلم من بئر يردّها المسافرون إلى مصر من فلسطين، ولما بدؤوا في تنفيذ هذه الخطة قالوا

لأبيهم: يا أبانا ما لك لا تسمح لنا باستصحاب يوسف معنا إلى مراعينا ومراعينا مع أننا نحبه وننصح له ونخلص مودته، ابعثه معنا غداً إلى الصحراء نتنعم ونأكل ونلهو وننشط ونتسابق ويتدرب على رعي الماشية، ونؤكد لك أننا سنحافظ عليه من كل ما يسوء.

فأجابهم يعقوب عليه السلام بأنه لا يطيق فراقه، وأنه يحزنه بعده عنه، ويخشى عليه من الذئب في حالة لهوهم وغفلتهم عنه، فاستبعدوا أن يأكله الذئب؛ لأنهم عُصبة أي جماعة أقوياء يشد بعضهم أزر بعض، فلن يصل إليه الذئب بحال؛ لأنه لو وصل إليه الذئب مع قوتنا وكثرتنا فإنه لا خير فينا حينئذ ونكون هالكين عاجزين ضعفاء، فأخذوه من أبيه مع حذر أبيهم؛ لأن الحذر لا ينجي من القدر وتركوا بنيامين، وذهبوا به إلى الجُب فلما ألقوه في غِيَابَةِ الجُب (غيابة الجب شبيهة (بيت الماكينة) في عصرنا الحاضر، يجذب بها الماء من البئر، ولو ألقوه في وسط البئر ل مات) ألقى الله تعالى في قلبه الطمأنينة وأنه لن يهلك في هذه البئر، وأنه سيرى إخوانه الحسدة هؤلاء مرة أخرى، وأنه سيخبرهم بهذا الذي فعلوه معه في وقت يكون فيه عزيزاً وهم أذلاء، وكانوا قد جرّده من قميصه قبل إلقائه في الجُب، فوضعوا على قميصه دماً كذباً، أي دماً مكذوباً مفتعلاً ليس بدم يوسف، ﴿وَجَاءَ وَآبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ [يوسف: ١٦] وقالوا لأبيهم: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعِنَا فَاكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ وما أنت بمصدق ما نقول ﴿وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]، ولم يصدقهم يعقوب عليه السلام في أكل الذئب له ولا أنه قتل ليقينه أنه سيكون ليوسف شأن، ولذلك قال لهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

والى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الفصل الحادي والثلاثون

تابع يوسف الصديق ﷺ

ذكرت في الفصل السابق ما كان من إخوة يوسف ﷺ وكيدهم له، والاحتيال على أبيهم في أخذهم يوسف منه والقائه في الجُب، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّالِئِينَ﴾ (٧) إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا أَيْسًا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَيْكُمُ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ (أي بعض المسافرين المارين من القوافل، والسيارة جمع سيار، أي الكثير السير المبالغ فيه) ﴿إِن كُنْتُمْ فَعَلِينَ﴾ [يوسف: ٧ - ١٠]. ﴿قَالُوا يَتَّابَانَا مَا لَكَ لَا تَأْتِنَا عَلَيُّ يُونُسَ وَإِنَّا لَكُمُ لَنَصْحُونَ﴾ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَكُمُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لِيَحْرُتِي أَن تَذَهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِن أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَاءَ آبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَتَّابَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْلَعِنَا فَآكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءَهُ عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١١ - ١٨].

وكان موقف يعقوب ﷺ عندما أخبره بنوه بأن الذئب أكل أخاهم يوسف مع يقينه بكذب بنيه هؤلاء وأن يوسف قد تعرّض لامتحان عسير كان موقف يعقوب ﷺ هو هذا الموقف الكريم من الصبر على البلاء، وتفويض الأمر لله وعدم الجزع، وفي ذلك قدوة لكل عبد صالح يُبتلى ويُمْتَحَن.

ولذلك روى البخاري أن الصديقة بنت الصديق أم المؤمنين الحصان الرزان

عائشة رضي الله عنها لما رُميت بالإفك قالت: «والله لا أجد لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف إذ قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا نَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].»

وقد وصف الله تبارك وتعالى ما حدث ليوسف بعد أن ألقاه إخوته في الجُب بما يفيد أن وحشته في الجُب لم تطل، وأن الله تعالى هياً له قوماً من المسافرين نزلوا قريباً من الجُب، وبعثوا واردهم، أي شخصاً يرد الجُب ليستقي لهم، فألقى دلوه في الجُب فتعلق بها يوسف عليه السلام، فلما أحسَّ به الوارد أخرجه وقال: يا فرحتي هذا غلام، واتفق في السر مع بعض رفقة أن يزعموا أنه عبد استبضعناه لبعض أهل المال القريبين من الجُب لنبيعه لهم في مصر، وكان يوسف عليه السلام رأى أنه لا يستطيع رد دعواهم هذه في عبوديته، فاستسلم، وكان الذين جعلوه بضاعة أحسوا بأنهم أمام إنسان كريم، لا ينبغي أن تتداول مثله الأيدي، ورأوا أنه لا يصلح أن يضعوه إلا عند كبير وزراء ملك مصر تكرمته له، فما إن قدموا مصر حتى قدّموه لعزیزها وباعوه له بثمن «رمزي» ﴿بِثْمَنِ بَئِضِ دَرَاهِمٍ مَعْدُودَةٍ﴾ أي قليلة، يقيناً منهم أن هذا الإنسان الكريم حريٌّ أن يستقر في بيت العزيز على أي حال، وأنهم ليسوا أهلاً لجعله تحت أيديهم أو أيدي سواهم ممن دون العزيز، وبدأت مراحل التكريم والإكبار والإجلال والإعزاز تتراقد على يوسف عليه السلام، وكانت فرحة العزيز به غامرة، وقال ﴿لَا مَرَأَتَهُ أَكْرَمِي مَثْوُهُ﴾ وأنزليه أحسن المنازل ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَنْفَعُهُ وَكَذَلِكَ﴾، وهكذا فرَّب ضارة نافعة، فقد انتقل من شظف العيش في البادية إلى أكبر القصور المتحضرة، وكان اللقاء في الجُب سبباً لوصوله إلى مصر وتنقله في أطوار الكرامة حتى صار ملكها، فرحم الله به العباد والبلاد وبخاصة في سني الفحط والجذب، حتى امتد ما أفاء الله به بسببه إلى أبويه وإخوته، وفي هذا تثبت لفؤاد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإعلام له بأني عالم بأذى قومك لك، ولكن الفرج قريب، فسأجعل لك حُسن العاقبة والتمكن منهم، وكذلك فعل الله صلى الله عليه وسلم، فلم يطل الأمر حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وبعد سنين قريبة من سني ابتعاد يوسف عن أبيه فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ودخل الناس في دين الله أفواجا، وقد أثر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأهل مكة

الذين آذوه وأخرجوه: «ما تظنون أنني فاعلٌ بكم؟» قالوا: أخ كريم، وابن أخ كريم. قال: «لا أقول لكم إلا كما قال أخي يوسف ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَعْضُرُ اللَّهُ لَكُمُ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ اذهبوا فأنتم الطلقاء».

وقد وصف الله تبارك وتعالى انتقال يوسف إلى بيت عزيز مصر بأنه تمكين له في الأرض، وقد بلغ فيه أشدّه، وآتاه الله الحكمة والعلم، وفي ذلك كله يقول الله ﷻ: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَىٰ هَذَا عَلْمٌ وَأَسْرُوهُ يَضْمَةٌ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرُّهُ ﴿أي باعوه﴾ ﴿بِشْمَنِ بَحْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ «كان زهدهم فيه زهد إجلال وإكبار لا زهد ازدراء واحتقار» ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ١٩ - ٢٢].

وقد ذكر الله تبارك وتعالى عن زوجة العزيز أنها تعلّق قلبها بيوسف، وقد ﴿شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي دخل حبه شغاف قلبها، أي غلافه أو حجابها أو حبه أو سويداءه، فصار في قلبها كأنه ملك وهي أمته، تبذل كل ما تطيق لإسعاده وإعرازه وإكرامه، حتى بلغ بها الحال أن فكرت في مخالطته، فبذلت كل ألوان الإغراء بها أمامه، وهو منصرف عنها غير عابئ بتصرفاتها، فلما أيقنت أن مراودتها له لم تصرف وجهه إليها رأت كما قيل:

فما نيل المطالب بالتمني ولكن تؤخذ الدنيا غلاباً

وأن التلويح لم يفدها بشيء وأنه لا بد من التصريح ليوسف بحاجتها، ﴿وَعَلَّقَتْ الْأُتُوبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ أي تهيتت وتجملت من أجلك أنت فأقبل عليّ، ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ أي أتحصن بالله وأستجير به من أن ارتكب جريمة الزنا، وهي أفحش الجرائم، وقد أحسن الله إليّ كثيراً وهيئاً لي المنزل الحسن والمرجع الكريم فكيف أقابل إحسانه بمعصيته، والزناة لا يسعدون ﴿لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أي لا يسعد الزناة، فإن الزنا مجلبة لزوال النعمة في الدنيا وعذاب الله في الآخرة،

ولما كان الطيش والثورة الجنسية قد بلغت بالمرأة كل مبلغ فلم تعبأ بامتناعه واعتصامه عن السوء فأقبلت عليه، ولولا أن الله تعالى يعصم أنبياءه ورسله من السوء لأقبل عليها، ولكن يوسف عليه السلام قد تجلت له نعم الله عليه فصرف الله عنه السوء والفحشاء، وخرج إلى جهة الباب هارباً منها، فلحقته وأدركت قميصه من خلفه فجبذته فانقطع القميص من دبر «أي من خلف»، لكنه تمكن من الباب، وكان العزيز عند هذا الباب، فسارعت إلى إلصاق التهمة بيوسف، وقالت لزوجها: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فدافع يوسف عن نفسه وقال للعزيز: ﴿هِيَ زَوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ فأنطق الله شاهداً من أهلها فقال للعزيز: انظر القميص إن كان قطعه من جهة صدره فهي بريئة؛ لأنها تكون قطعته وهي تدافع عن نفسها وهو مقبل عليها، وإن كان القميص قطع من جهة الخلف فهو بريء؛ لأنها قطعته وهو يحاول الفرار منها وهي تلاحقه، فلما رأى أن قطع القميص كان من الخلف أيقن ببراءة يوسف عليه السلام.

ومن الملاحظ هنا أن الشاهد بدأ بالنظر في قطع القميص من أمام ليكون أدعى لمحاولته براءتها حتى لا يتهم بمحابة يوسف عليه السلام، وإن كان هذا الشاهد من أهلها، كما أن ذلك يكون أوقع في قبول شهادته عندهما، وهذا شبيه بما قال مؤمن آل فرعون لفرعون وقومه في موسى عليه السلام: ﴿وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨]. فإن هذا المؤمن بدأ فرض المسألة باحتمال أن يكون كاذباً، وثنى باحتمال أن يكون صادقاً ليكون كلامه أوقع في قلوبهم، وأقرب لتصديق نصحه لهم، ولم يسم الله تبارك وتعالى امرأة العزيز ولم يسمها رسول الله ﷺ والناس يقولون فيها: زليخاء أو زُلَيْخَاءُ أو راعيل، ولما لم يكن لتعيين اسمها كبير فائدة لم يسمها الله ﷻ لنا، وإنما ذكر الأمر المهم الدال على رفعة قدر يوسف ونزاهته بأنه في بيتها، وأنها غلقت الأبواب، وأنها قالت: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ وأنها ﴿هَمَّتْ بِهِ﴾ [يوسف: ٢٤] ومع ذلك صرف الله عنه ﴿السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾.

وفي ذلك كله يقول الله ﷻ: ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ

الْأُتُورِبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾
 وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ
 إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُتَّحِلِّينَ ﴿٢٤﴾ وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصُهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا
 الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ
 رَاوِدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ
 مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَى
 قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا
 وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾ [يوسف: ٢٣ - ٢٩].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الثاني والثلاثون

تابع يوسف الصديق ﷺ

ذكرت في ختام الفصل السابق ما ذكره الله ﷻ من محاولة العزيز استكتام قصة مراودة زوجته ليوسف ﷺ، وأنه طلب منها أن تستغفر الله لذنبها، وأنها من الخاطئين، حيث قال: ﴿يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٢٩].

غير أن استكتام هذه الحادثة لم يتم، فتناقلته بعض الألسن، وتحدثت به نسوة في المدينة من نساء الأمراء وبنات الكبراء، وطعنن على امرأة العزيز وعيبتها وبشعن عملها، وشنعن عليها في مراودتها فتاها، وحبها الشديد له وتشوقن لرؤيته، فلما سمعت بتشنيعهن عليها، والتنفص لها، وعيبتها ومدميتها بحب مولاهما، ولم يعرفن أن جمال يوسف يفتن ذات اللب، فأحبت أن تبسط عذرها عندهن، وتبين أن هذا الفتى لا وجود لمثله في الفتيان، فأرسلت إليهن فجمعتهن في منزلها، وأعدت لهن ضيافة، وأحضرت في جملة ذلك شيئاً مما يُقَطَّع بالسكاكين كالأترج ونحوه، وآتت كل واحدة منهن سكيناً، فلما بدأن بتقطيع ما بأيديهن بالسكاكين أمرته بالخروج عليهن، فخرج وهو أحسن من البدر لا محالة، فلما رأينه أعظمه وأجللته وهبته واندھشن لرؤيته وبهرهن حسنه حتى اشتغلن عن أنفسهن به، وجعلن يقطعن ويحززن في أيديهن بالسكاكين بدل تقطيع الفاكهة ولا يشعرن بالجراح، وظنن أنه لا وجود لمثل هذا في بني آدم، ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١]، أي معاذ الله أن يكون هذا من بني آدم، ما هذا إلا ملك كريم.

وأهل مصر يومها وإن كانوا وثنيين إلا أنهم كانوا يقرون برب السموات والأرض كمشركي قريش وغيرهم، وإن كانوا يعبدون غير الله، وعندئذٍ أبرزت

امرأة العزيز مكنون ما في قلبها من عشقه والهيام به، ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ﴾ [يوسف: ٣٢]، وأظهرت عفته وبراءته التامة، وقالت: ﴿وَلَقَدْ زُوِّدْتُهُ مِنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعَصَمَ﴾ «أي امتنع وأبى» ﴿وَلَيْنَ لَمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢].

ولا شك أنها كانت قد وصلت من الهيام به والجنون فيه إلى حد أنها أصبحت تصرح بهذا الذي قالته عند هذا الملام من الناس، فلما سمع يوسف ﷺ ما توعدته به من السجن ومذلته إن لم يخضع لما تريده منه ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ «أمل إليهن» ﴿وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣] فإنه لا يصرف عني السوء أحد سواك يا أرحم الراحمين، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، فإنك إن وكلتني لنفسي وكلتني إلى عجز وضعف، ولا أملك لنفسي نفعاً ولا ضرراً إلا ما شاء الله، فاعصمني من السوء واحفظني من الشر، وحطني بحولك وقوتك يا رب العالمين، ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٤].

واستحق يوسف ﷺ أن يكون بهذا على رأس السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، فمنهم رجل دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله. كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ في الحديث الذي في الصحيحين.

وبعد أن ذاع وشاع براءة يوسف ﷺ رأى العزيز وزوجته أنه من المصلحة سجن يوسف؛ ليكون ذلك أقل لكلام الناس في تلك القضية، وليغالبا الناس بأنه هو الذي راودها عن نفسها فسُجن بسببها، فسجنوه ظلماً وعدواناً، وكان السجن أحب إلى يوسف من مخالطتها، وأبعد له عن معاشرتهم وقربهم.

وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٣١﴾ ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَآتَتْ كُلَّ وَجِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَسْبُ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿٣٢﴾ ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ زُوِّدْتُهُ مِنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعَصَمَ وَلَيْنَ لَمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾

الصَّغِيرِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٢٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٤﴾ ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجْنُهُنَّ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿يوسف: ٣٠ - ٣٥﴾.

وقد قيَّض الله ﷻ ليوسف الصديق أن يدخل معه السِّجْنَ فَيَتَيَّانِ، فلما رَأَى يوسف في السِّجْنِ أعجبهما سمته وهديه وما كساه الله ﷻ به من الجلال والبهاء، وأبصر في سلوكه النجابة والكرامة وكثرة عبادته لله وإحسانه إلى خلقه، فكان سلوكه أفصح دعوة إلى الله، فتعلق قلبهما به، وقد رأى كل واحد منهما رؤيا، ورأيا أن خير من يعبر لهما رؤياهما هو يوسف الصديق، فأقبلا عليه وقص كل واحد منهما عليه رؤيا، قال أحدهما: إني أراني أعصر عبناً لأتخذه خمراً، وقال الآخر: إني أراني أحمل فوق رأسي سلة خبز وأن الطير تأكل من هذا الخبز، ففسر لنا رؤيانا وعرفنا بحقيقة ما تدل وتؤول إليه هذه الرؤيا، إنا نرى في وجهك الخير والعلم والمعرفة والإحسان. وقبل أن يفسر لهما رؤياهما، استغل فرصة إقبالهما عليه هذا الإقبال الصادق، فدعاهما إلى الله ﷻ إلا أنه قبل دعوتهما إلى الله تعالى بدأ بتعريفهما بنفسه وبمنة الله تعالى عليه وعلى آبائه، فأخبرهما أنه عليم بتعبير الرؤى والأحلام، فمهما رأيتما من حلم فإني أعبره لكما قبل وقوعه فيكون كما أقول، وأخبركما بما يأتيكما من طعام قبل مجيئه، وليس هذا مني، إنما هو من الله الذي علمني، وقبل أن يجرد دعوتهما إلى توحيد الله ﷻ سلك أجمل الطرق في الدعوة إلى الله بترك عبادة الأصنام والأوثان، وأنه لا يجوز لأحد أن يتعلق بها فقال: ﴿رَبِّيَ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانُوا لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [يوسف: ٣٧ - ٣٨]، وأن أفضل ما يُعطى العبد ترك عبادة الأصنام والأوثان ومعرفة حق الله ﷻ، ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: ٣٨].

ولما وصل إلى هذا المقام جرد دعوتهما إلى توحيد الله ﷻ فقال: ﴿يَصْلِحْ لِي السِّجْنَ عَذَابٌ مَّتَّفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاءُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [يوسف: ٣٩ - ٤٠].

وبَيَّن أن الخلق كله لله، وأن الأمر كله لله، وأنه لا يجوز لأحد أن يحتكم لغير شرع الله، فله الخلق والأمر، ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْقِيَمَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠].

وبعد أن دعاها إلى الله فسّر لكل واحد منهما رؤياه، وأن الذي رأى أنه يعصر خمراً سيخرج من السجن ويسقي سيده خمراً. وأما الآخر الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه فإنه يُصَلب فتأكل الطير من رأسه، ولكنه لم يحدد لهما مَنْ الذي يُصَلب؟ بل قال: أحكما يسقي ربه خمراً والآخر يُصَلب فتأكل الطير منه. وتم تعبير رؤياكما، يعني: فليصبر الذي قُضِيَ عليه بالصَلب وليشكر الذي سينجو من السجن، ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي﴾ [يوسف: ٤٢] عند الملك واذكر أنني مظلوم، والظن قد يأتي بمعنى اليقين كقوله تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكٌ حَسْبِيَّةٌ﴾ [الحاقة: ٢٠]. وقوله: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقَوُا رَبَّهُمْ﴾ [البقرة: ٤٦]. وقوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤٦﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [المطففين: ٤ - ٥].

وقد أنسى الشيطان الناجي بعد خروجه من السجن ذكر يوسف السجين المظلوم، فمكث يوسف ﷺ في السجن بضع سنين، أي عدداً من السنين، والبضع قيل ما بين الثلاث إلى التسع أو إلى الخمس أو من أربع إلى تسع أو هو سبع، وقد قص الله تبارك وتعالى ذلك في كتابه الكريم حيث يقول: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٌ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرِنِّي أَخَصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرِنِّي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خَبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَأْتُهَا مِنِّي بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانُوا لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَصْحِيحُ السِّجْنَ عَزَابٌ مَُّنْفَرِقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴿٤٠﴾﴾

إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْقِيَمَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا

يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ يَصْحَجِي السِّجْنَ أَمَا أَحَدُكُمْ فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَا الْآخِرُ فَيُضَلَّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ فُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا أَذْكَرُنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذَكَرَ رَبَّهُ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿يوسف: ٣٦ - ٤٢﴾.

هذا وقول يوسف ﷺ: ﴿لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا أَذْكَرُنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢] يدل على أن الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل على الله، وقد زعم بعض الناس أن الضمير في قوله: ﴿فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذَكَرَ رَبَّهُ﴾ [يوسف: ٤٢] عائد على يوسف، وأنه إنما عُوقِبَ بلبثه في السجن بضع سنين لطلبه الفرج من غير الله، وهذا كذب على الله وعلى يوسف ﷺ، وأما ما ذكره ابن جرير في تفسيره حيث قال: حدثنا ابن وكيع حدثنا عمرو بن محمد عن إبراهيم بن يزيد عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعاً قال: قال النبي ﷺ: «لو لم يقل - يعني يوسف - الكلمة التي قالها ما لبث في السجن طويلاً، حيث يبتغي الفرج من عند غير الله». فإن هذا الخبر لا يصح عن رسول الله ﷺ. قال ابن كثير في تفسيره: وهذا الحديث ضعيف جداً؛ لأن سفيان بن وكيع ضعيف وإبراهيم بن يزيد هو الخوزي أضعف منه أيضاً.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الثالث والثلاثون

تابع يوسف الصديق ﷺ

أشرت في الفصل السابق إلى نسيان الناجي من صاحبي سجن يوسف ﷺ ذكر شأن يوسف للملك، وقد أسند الله ﷻ أمر هذا النسيان إلى الشيطان حيث قال: ﴿فَأَنسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٤٢].

وهذا الأسلوب في إسناد الشر إلى الشيطان قد كرر الله تبارك وتعالى ذكره في القرآن العظيم حيث قال في قصة أيوب: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١]؛ وذلك لأن كل شر وضير يصيب الإنسان إنما هو بسبب الشيطان الذي أخرج أبويننا من الجنة، وهو من الأدب مع الله ﷻ في إسناد الخير إليه وإسناد الشر إلى الشيطان وإلى النفس الأمارة بالسوء؛ مع الاعتقاد الجازم بأن كل شيء بقضاء الله وقدره، وأن الكل من عند الله، ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١].

وعندما أراد الله ﷻ إعلاء شأن يوسف وتثبيت كرامته في قلوب ملك مصر وعموم شعبها رأى الملك في منامه سبع بقرات سمان وسبع بقرات هزيلة، وأن السبع البقرات الهزيلة تأكل السبع السمان، كما رأى في منامه سبع سنبلات خضر وسبع سنبلات يابسات، وقد اهتم الملك بأمر رؤياه هذه وطلب من أشرف قومه ومن يظن فيهم المعرفة بتأويلها أن يؤلّوها ويعبروها له ويفتوه فما تقتضيه هذه الرؤيا، فقالوا: هذه أخلاط منامات وأضغاث أحلام، وأصل الضغث قبضة الحشيش المختلط الرطب باليابس، أي هذه رؤيا لا يصح تأويلها لاختلاطها، ونحن غير قادرين على تعبيرها، وغير عارفين بتفسيرها، وعندئذٍ تذكّر الناجي من صاحبيه في السجن بعد هذه المدة الطويلة، وقال: أنا آتيكم بتفسيرها وتعبيرها من الخبير بذلك يوسف السجين، فأرسلوني إليه، فأرسلوه إلى يوسف ﷻ، وبمجرد

ما عرض عليه الرؤيا سارع إلى تفسيرها، ففسّر السبع البقرات السمان والسبع السنبلات الخضر بسبع سنوات رغيدة مخصبة، وفسر السبع البقرات العجاف الهزيلة والسبع السنبلات اليابسة بسبع سنوات مجدبة، ولم يكتف بهذا التفسير العظيم لرؤيا الملك، بل وضع لهم خطة تجاوز محنة السبع السنوات المجدبة، فقال: تزرعون السبع السنوات مغتتمين فرصة رغدها وجودة محاصيلها دون تضييع شيء من هذه الفرصة، وإذا نضج الزرع فلا تدوسه واتركوه في سنابله إلا بقدر حاجتكم الضرورية من الطعام منه، ولا تتوسعوا في النفقة وادخروا كل ما يمكنكم ادخاره في هذه السنوات المخصبة، حتى يبقى لكم ما تحتاجون إليه في السنوات السبع المجدبة، وبشرهم بأن الله سيغيثهم في أول عام بعد هذه السبع بخير كثير يغاث الناس ويذهب الجذب عنهم، وتعود معاصر الزيت ونحوه إلى عملها كما كانت قبل هذه السنوات.

ولا شك أن ما أشار به يوسف الصديق عليه السلام من حفظ الحبوب في سنابله لا يزال محل إعجاب وتقدير من علماء الزراعة في القديم والحديث؛ فإن بقاء الحبوب في سنابله أدهى لصيانتها من السوس والفساد وأبقى لها على طول الزمان دون حاجة إلى صوامع أو نحوها، وعندما سمع الملك بهذا التعبير عظم يوسف في قلبه وظهر له أنه في أمس الحاجة إلى قربه؛ فقال: اثّوني به، فلما جاء الرسول وعرفه أن الملك يدعوه لتكريمه وإجلاله لم يسارع إلى الخروج من السجن، بل طلب من الرسول أن يرجع إلى الملك ويسأله عن خبر النسوة اللاتي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ليكون ذلك أظهر لبراءته وأعز لمكانته، وقطعاً لألسنة السوء، والله لا تخفى عليه خافية، وقد ذهب عامة العلماء إلى أن المراد من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: «ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي». أي لسارعت إلى الخروج من السجن دون تريث، ولأجبت رسول الملك في الحال وخرجت من السجن، وعلى أي حال فإن المقصود من هذا الحديث كما أشرت في سرد قصة إبراهيم عليه السلام ولوط عليه السلام هو بيان علو منزلة يوسف عليه السلام لا أنه أفضل من رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن من المتفق عليه عند العقلاء أن تواضع الرفيع القدر

لمن دونه لا يُنزل من قدره، ورسول الله ﷺ هو أفضل خلق الله قاطبة، فهو شيخ المرسلين وإمام الأنبياء، وهو العالي الدرجات المشار إليه في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أَرْسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] فرسول الله محمد ﷺ في المرسلين سماء ما طاولتها سماء.

وقد سأل الملك النسوة اللاتي أخبر أنهن قطعن أيديهن: هل رأيتم من يوسف شيئاً يسوء؟ ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ ما رأيين عليه من سوء، ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ أَكْفَنَ حَصْحَصَ الْحَقِّ﴾ ووضح وبان وانكشف، ﴿أَنَا زَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي أعترف له بفضله وهو غائب عني، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ﴾، وقالت امرأة العزيز أيضاً: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنْ أَلْفَسَ لِأَمَارَةٍ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَجَمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وعندما تأكد الملك أن يوسف سُجن ظلماً، وأنه أحد الأمناء الكرام، والعلماء العظام فلم يطق الملك صبراً، وقال: ﴿آتُونِي بِهِ﴾؛ ليكون خاصتي، فلما جاء يوسف وكلمه قال له الملك: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدِينَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ فأراد يوسف ﷺ نفع البلاد والعباد، فقال للملك: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا﴾ فمكّن الله ﷻ ليوسف في أرض مصر ينزل فيها حيث يشاء حراً كريماً سيداً مطاعاً من فضل الله عليه وعلى كل محسن، وهذا في الدنيا ﴿وَلَا جُرْ الْأَخْرَجَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: ٥٧].

وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ (٤٣) قَالُوا أَضْغَنْتَ أَحْلِمٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ (٤٤) وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنْتَبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ (٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا الصَّادِقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٤٦) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ﴾ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ﴾ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِصُونَ﴾ (٤٩) وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُوتَنِي بِهِ؟﴾

فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْأَلُهُ مَا بَأَلِ النَّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ «أي إن إلهي وخالقي وسيدي رب السموات والأرض لا تخفى عليه خافية من كيد النساء ومكرهن الذي أوصلني إلى السجن» ﴿٥١﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رُودَتْنَّ يُوسُفُ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتُ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْقَنْ حَصَّصَ الْحَقُّ أَنَا رُودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبْرِي قَمِيصًا إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْمِنُ بِدِيهِ اسْتَحْلَصَهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ ﴿٥٥﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُفِصِلُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَا جُرْ الْأَخْرَجَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿يوسف: ٤٣ - ٥٧﴾ .

وقد أورد بعض المفسرين هنا أحاديث باطلة، وأخباراً مردودة عاطلة في تفسير بعض هذه الآيات يحمي الله تعالى أنبياءه ورسله عن مثل ما روي في هذه التفاسير كمثل ما روي في قوله ﴿وَهُمْ بِهَا﴾ أنه حلَّ الهميان، أي تكة سراويله وجلس منها مجلس الرجل من زوجته. وهذا والله الحمد لم يثبت بخبر عن رسول الله ﷺ، وإنما هو قول مدسوس من اليهود وأخبار بني إسرائيل، وصريح الآية علق الهمم بها على رؤيته برهان ربه بصيغة الماضي، فكأنه قال: ولولا أنه رأى برهان ربه لهمم بها، ولكنه لم يهمم بها؛ لأنه رأى برهان ربه، وسياق الآية يكذب ما زعموا، كقوله تعالى عنها: ﴿وَلَقَدْ رُودَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾. معطوفاً بالفاء الدالة على التعقيب، وأنه بمجرد مرادتها له استعصم وهذا ظاهر.

وكذلك تفسيرهم لقوله: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ بأنه أراد بربه عزيز مصر، وهذا والله الحمد لم يثبت بخبر صحيح ولا حسن عن رسول الله ﷺ، والسياق يدل على أن الذي رأى يوسف برهانه وأحسن مثواه هو رب العالمين.

كما زعموا أن قوله: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ من كلام يوسف لامرأة العزيز، وأن جبريل قال له: ولا حين هممت بها، أو أن امرأة العزيز قالت له حينئذ: ولا حين حللت سراويلك يا يوسف.

فهذا كله مفترى على يوسف الصديق وقد صانه الله وعصمه من كل سوء
كما عصم إخوانه الأنبياء والمرسلين .

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ﴾ [الصفات: ١٨٠ - ١٨٢].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الرابع والثلاثون

تابع يوسف الصديق ﷺ

بعد أن مكن الله ﷻ ليوسف وقرر ملكها جعله عزيزها، وأطلق له حرية التصرف في خزائن الأرض، واحتاج القاضي والداني إلى الميرة من عنده، وكانت الأقطار المجاورة لمصر ولا سيما أرض كنعان في حاجة شديدة إلى الطعام وقتئذٍ، فصاروا يجيئون إلى يوسف ﷻ يمتارون لأنفسهم وعيالهم وأهلهم. يحملون معهم إلى مصر ما عندهم من بضائع وأثمان، وكان يوسف ﷻ قد قرر أنه لا يُعْطَى أحدٌ من هؤلاء إلا مقداراً معيناً من الكيل في النوبة الواحدة، وله أن يرجع في وقت آخر في المستقبل ليأخذ مرة أخرى على الطريقة المعروفة في العصر الحديث، وفي بعض أمصار العالم بنظام التموين.

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ ليمتاروا عندما بلغهم أن عزيز مصر يعطي الناس الطعام بثمنه، فأخذوا معهم بضاعة يعتاضون بها طعاماً، وقد أبقى يعقوب ﷻ ولده بنيامين عنده، فلما وصلوا إلى يوسف ﷻ ودخلوا عليه عرفهم لأنهم عندما رموه في الجُب كانوا كباراً بالغين فلم تتغير صورهم؛ أما يوسف ﷻ عندما رُمي في الجب كان صغيراً، والصغير إذا شب وبلغ أشده لا يكاد يعرفه من رآه في الصغر فقط؛ لأنه في الغالب تتغير ملامحه؛ ولذلك لم يعرفه إخوته ولم يخطر على بالهم أنه يوسف الصديق، والظاهر أن يوسف ﷻ أخذ يسألهم عن أحوالهم وأهلهم ليصل من وراء ذلك إلى الاطمئنان على حال أبيه وأخيه بنيامين، فعرفوه بحالهم وأن لهم أخاً من أبيهم؛ وأن أباهم هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، فأكرمهم يوسف ﷻ وأظهر العناية بهم، وأمر بجهازهم ووفى لهم كيلهم كأنه قال لهم: لقد شوقتموني إلى أخيكم من أبيكم وأنا حريص على رؤيته، ولن تحصلوا على كيل منا في المستقبل في النوبات القادمة إلا إذا جئتموني بأخيكم

من أبيكم ولكم مني زيادة في تكميمكم حينئذٍ بأني أزيدكم كيل بعير، وأضعف لكم الميرة، وأوعز إلى غلمانه أن يدسوا في رحالهم جميع ما جاؤوا به من بضاعة زيادة في صلة رحمهم وإحساناً إليهم، وإبقاءً لثرواتهم معهم ليعودوا بها إلى يوسف تحنثاً، وإنما لم يضع بضاعتهم في رحالهم علناً لأنه ربما يؤدي ذلك إلى امتناعهم عن أخذها.

وقد قالوا ليوسف ﷺ: سنبدل كل جهدنا في إحضار أخي من أبنينا معنا في المرة القادمة، وسنحاول أباه في ذلك بكل ما نطيق، ولن نقصّر في ذلك.

فلما رجعوا إلى أبيهم أخبروه بقصتهم مع عزيز مصر وأنه قرر ألا يكيل لنا في المستقبل إلا إذا أحضرنا أخانا بنيامين معنا، فنرجو أن ترسله معنا لنكتال، وسنحافظ عليه أشد المحافظة، قال يعقوب ﷺ: كيف آمنكم عليه وقد فعلتم بأخيه يوسف ما فعلتم، وزعمتم أنكم ستحافظون عليه عندما قلت في يوسف: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَع وَيَلْعَب وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [يوسف: ١٢] لكن الله تعالى هو الحافظ له، وهو خير الحافظين، ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ﴾ ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا بَنَاتَنَا﴾ [يوسف: ٦٥] ما نريد؟ لقد أوفى لنا الكيل ورد إلينا بضاعتنا، وأحسن مثوانا فأرسل معنا بنيامين في المرة القادمة لنمير أهلنا أي نأتيهم بالميرة وهي الطعام، وسنحفظ أخانا ونزدداد كيل بعير، ذلك العطاء الجزل سهل على هذا العزيز الكريم، فقرر يعقوب ﷺ أن يرسل معهم بنيامين بشرط أن يؤتوه عهد الله وميثاقه أن يحافظوا عليه، وأنهم لا يقصرون في حفظه إلا إذا بلوا بشيء لا طاقة لهم به، ولا قدرة لهم على دفعه، فلما حلفوا له ووثقوا عهدهم أشهد يعقوبُ الله تعالى على عهدهم وميثاقهم ﴿وَقَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: ٦٦].

ولما تقرر سفرهم للميرة نصحهم يعقوب ﷺ بأنهم لا يدخلون من باب واحد. وإنما يدخلون من أبواب متفرقة إما من خوف العين عليهم إذا كانوا مجتمعين وعُرف أنهم أبناء رجل واحد، وإما من خوف أن يحصروا جميعاً إذا كان أريد بهم شر، غير أن يعقوب ﷺ بيّن أن الحذر لا ينجي من القدر، وأن حرصه على سلامتهم لن ينفعهم إذا كان الله ﷻ أراد أن يضرهم، فقضاء الله

نافذ. وحكم الله غالب، والله وحده الحكم، وعليه أتوكل وأعتمد، ويجب على كل مؤمن أن يكون توكله على الله واعتماده عليه وحده لا إله غيره ولا رب سواه، وسارت القافلة ووصلوا إلى مصر، ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ﴾ [يوسف: ٦٨] من الأبواب المتفرقة مع صدق ما قال يعقوب ﷺ أنه ما يُغني عنهم من الله من شيء؛ لأن الله وحده هو الحافظ، لكن الله تبارك وتعالى نفعهم بما علمهم أبوهم، وقد علمه الله ﷻ، فوصية يعقوب لابنه وصية حق ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٦٨]، والعين حق، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «العين حق»، كما أخرج مسلم من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: «العين حق، ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين».

وقد ذكر الله تبارك وتعالى ما كان من مجيء إخوة يوسف إليه ودخولهم عليه، وما صار من جهة الكيل ودس البضاعة في أوعيتهم ورحالهم، وطلب أخيهم غير الشقيق، ورجوعهم إلى أبيهم. ومرادته في بنيامين حتى قرر إرساله معهم، ووصية أبيهم لهم عند دخولهم، وتقرير أن الأمر كله لله، وأن الحذر لا ينجي من القدر، والإشارة إلى أن العين حق، حيث يقول ﷻ:

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتَأْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَتَرُوهُ عَنْهُ آتَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضْعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَمَحْفُظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُتُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَأَلَّه خَيْرٌ حِفْظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَتَزَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَبْنَئِي لَأَ

تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَحْكَمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَنَهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿يوسف: ٥٨ - ٦٨﴾.

وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن إخوة يوسف لما دخلوا عليه ومعهم أخوهم بنيامين وتلقاهم يوسف ﷺ بما يثلج صدورهم ويطمئن نفوسهم أسر إلى بنيامين وقال له: ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾ يوسف، فلا تحزن بما أصابك من إخوتك بسبب الحسد، وأمره ألا يخبرهم بأن هذا العزيز هو أخوهم، وتواطأ معه على أنه سيحتال على أن يبقيه عنده، وأفهمه أن جمع جميع الأحبة قريب، لما خططه يوسف ﷺ ودبره حتى يجيء إليه أهله أجمعون، وعلى رأسهم أبوه يعقوب ﷺ، وأنه لما جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ وَوَفَّى لَهُمْ كَيْلَهُمْ وَزَادَهُمْ كَيْلَ بَعِيرٍ دَسَّ السَّقَايَةَ «وهو صواع الملك»، في رَحْلِ أَخِيهِ بِنِيَامِينَ دُونَ أَنْ يَرَاهُ أَحَدٌ مِنْ غُلَامَانِهِ أَوْ غَيْرِهِمْ، ولما افتقد فتیان يوسف الصواع وشاع أنه سُرق نادى منادٍ: ﴿أَيَّتَهَا أَلْعِيرُ﴾ يا أهل القافلة! ﴿إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾ قال أهل القافلة بمن فيهم من إخوة يوسف وقد انزعجوا: ماذا ضاع منكم؟ ﴿قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧٢]. ولم يكن يوسف ﷺ هو الذي نادى، ولا هو الذي أمر المنادي، وإنما المسؤول عن المحافظة على أمواله هو الذي نادى أو أمر المنادي، فلا يقول قائل: كيف يليق بيوسف ﷺ مع علو منصبه وشريف مرتبته من النبوة والرسالة أن يتهم أقواماً بالسرقة وهم براء؟ لأن عمل يوسف ﷺ اقتصر على جعله ﴿السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ وهذه لا حرج فيها، أما المنادي أو الأمر بالنداء فلم يكن يوسف ﷺ، وقد قال أهل القافلة للمنادي بفقد الصواع: والله لقد علمتم أننا في أمس الحاجة للتردد عليكم، ومثلنا مع حاجته إليكم لا يفسد في أرضكم، ولا يسرق منها، فقال المسؤولون عن المحافظة على الغلال والأمتعة: فما جزاؤه إن كنتم كاذبين في دعواكم أن الصواع ليس معكم، وثبت أن صواع الملك في رحل بعضكم؟ قالوا: جزاء من وُجد في رحله صواع الملك أن يؤخذ ويصير في خدمة الملك جزاء له على ذلك، كذلك النظام الذي نجازي به السارقين.

وهنا بدأ يوسف عليه السلام بالتفتيش والبحث في رحالهم قبل التفتيش في رحل أخيه ووعائه؛ لأنه لو بدأ برحل أخيه لخطر ببالهم أنها حيلة لأخذ أخيهم، فأخّر تفتيش رحل أخيه ليدفع هذه الخاطرة عنهم، ثم استخرجها من وعاء أخيه، يقول الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَدْنَا لِيُوسُفَ﴾ أي كذلك ألهمنا إخوة يوسف أن يحكموا على من سرق الصواع بأن يؤخذ به كما ألهمنا يوسف بدس الصواع في رحل أخيه، وهذا الذي فعله يوسف عليه السلام من الكيد المحبوب الذي يحبه الله ويرضاه، ولكن الله تعالى يرفع من يشاء من عباده درجات، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ﴾ [يوسف: ٧٦].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الخامس والثلاثون

تابع: يوسف الصديق ﷺ

ذكرت في ختام الفصل السابق ما كان من تدبير يوسف ﷺ لاستبقاء أخيه بنيامين عنده وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَىٰ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَتْهَا الْيَعْرُبُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا تَفْقَدُ صُوعًا مَّلِكٍ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جِرَّؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جِرَّؤُهُ مِنْ وُجْدٍ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جِرَّؤُهُ كَذَلِكَ نَجْرِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كَدْنَا يُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿يوسف: ٦٩ - ٧٦﴾.

ولما رأى أخوة يوسف أن الصراع وُجد في رحل بنيامين أطلقوا ألسنتهم بسبه وسب يوسف، وقالوا: إن يكن قد سرق الصواع فقد سرق أخ له من قبل، وكأنهم أرادوا أن يوسف سرق قلب أبيه منهم، أو أنهم لبغضهم ليوسف ﷺ بسبب حب أبيه له رموه وسبوه ولم يتركوا الإساءة إليه؛ ولذلك قال يوسف ﷺ في نفسه وسره عن إخوته هؤلاء: ﴿أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ٧٧]، ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾ إن أخانا هذا له أب شيخ كبير لا يطيق فراقه ﴿فَخَذَ أَحَدُنَا مَكَانَهُ﴾ وأعطينا بنيامين لنوصله إلى أبيه، فقال يوسف: أعوذ بالله ﴿أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعْنَا عِنْدَهُ﴾ إنا إذاً لواضعو الأمر في غير موضعه، فيوسف ﷺ لا حاجة له في واحد منهم سوى بنيامين، فلما يشؤوا من تخليص بنيامين الذي قد التزموا لأبيه برده إليه وعاهدوه على ذلك ﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ أي

انفردوا عن الناس ليتناجوا فيما بينهم: ماذا يفعلون؟ فقال أسنهم: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ آبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْتَقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٠] برده إليه إلا أن يحاط بكم، فأنا سأبقى في هذه البلدة قريباً من بنيامين حتى يأذن لي أبي في الرجوع إليه راضياً عني أو يحكم الله لي، أي أو أن يقضي الله لي قضاء إما بموتي أو تخلص أخي والله خير الحاكمين.

ثم أمرهم أن يخبروا أباهم بصورة ما وقع حتى يكون ذلك عذراً لهم فيقولوا له: إن ابنك نسب إلى السرقة وأخذ بذلك. وما شهدنا إلا بما علمنا وشاع عند جميع من حولنا من أهل العير والقرية، وما كنا ندري أنه سيقع في هذا الأمر؛ لأننا لا نعلم الغيب، وأسأل القافلة التي أقبلنا فيها والقرية التي كنا فيها، وإنا لصادقون، فوصلوا إلى أبيهم وأخبروه بما نصحهم به أخوهم الكبير، فأجابهم يعقوب عليه السلام بمثل ما أجابهم به حين جاؤوا على قميص يوسف بدم كذب وقال لهم: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ حَمِيدٌ﴾، ورجا الله عز وجل أن يرد عليه يوسف وبنيامين وأخاهم الكبير، فقال: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣]، وأعرض يعقوب عن هؤلاء ﴿وَقَالَ يَتَأَسَّفُ عَلَى يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤]، واشتد حزنه حتى ابيضت عيناه من الحزن، إذ جدد حزن الأخيرين حزن يوسف، لكنه كظم غيظه وسكت عن الشكوى لغير الله عز وجل، ومع ذلك فقد هيج حزنه على يوسف كوامن حقدهم فقالوا: تالله لا تزال ولا تبرح تذكر يوسف ولا تنسى حبه حتى تكون حرضاً أي مشرفاً على الموت والهلاك، أو تكون من الهالكين، قال إنما أشكو بثي أي عظيم حزني وغمي إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون، من أن يوسف حي وقد يكون في مصر، اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه واطلبوا خبرهما، ولا تيأسوا من روح الله أي لا تقنطوا من رحمة الله، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون. فانطلقوا مرة أخرى إلى مصر بحثاً عن يوسف وشكوى إلى عزيز مصر مما أصابهم من الضر وطلباً للميرة؛ فلما دخلوا على يوسف قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة أي مدفوعة لا يقبلها أحد لردائها، فأحسن إلينا من فضلك، وأوف لنا وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين.

فقال لهم يوسف ﷺ: هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه وقت جهلكم، فلما سمعوه يذكر ما فعلوه بيوسف تفرسوا فيه، ووقع في نفوسهم أنه يوسف ﷺ فقالوا: إنك لأنت يوسف، قال: أنا يوسف وهذا بنيامين أخي قد من الله علينا بالإعزاز والإكرام، إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين، فأظهروا الندم على ما كان منهم، وقالوا: تالله لقد آثرك الله علينا وفضلك، وإنا كنا خاطئين آثمين فيما فعلناه بك. قال: لا عتب ولا تثريب عليكم، اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين.

وقد علم أن أباه قد ابيضت عيناه من الحزن فقال لإخوته: اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً، وأتوني بأهلكم أجمعين. وهذا يدل على أن الحزن يؤثر على العين ويؤذيها، وأن السرور يؤثر على العين صحة وعافية؛ ولذلك قالت الخنساء في صخر عن نفسها:

قذى بعينيك أم بالعين عوار أم ذرفت إذ خلت من أهلها الدار

وبمجرد خروج العير من أرض مصر ومعهم قميص يوسف شم يعقوب ريح يوسف ﷺ، فقال لمن حضره من بنيه وأولادهم: إني لأجد ريح يوسف لولا أن تنسبوني إلى السفه لصدقتُموني، قالوا تالله إنك لفي ضلالك وهيامك القديم في حب يوسف. فلما جاء البشير بالقيمص وألقاه على وجه يعقوب ﷺ رجح بصيراً. وقال لهم: ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون، فطلبوا من أبيهم الصفح عنهم، وأن يستغفر الله لهم، وأنهم أخطؤوا في حق أبيهم وأخيهم. فوعدهم بأنه سيستغفر لهم ربه إنه هو الغفور الرحيم. ثم توجهوا جميعاً إلى مصر وجمع الله شملهم.

فلما دخلوا على يوسف ضم إليه أبويه أي أباه وخالته أو أباه وأمه على القول بأنها عاشت إلى ذلك الحين، وقال: ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين، وأجلس أبويه على سريره، وسجدوا لله جميعاً شكراً من أجل يوسف على ما من الله عليهم وما أعز به يوسف. وقال يوسف لأبيه: يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً، وقد تفضل عليّ إذ أخرجني من السجن وجاء بكم

من البدو من بعد أن نزع الشيطان، فأفسد قلوب إخوتي عليّ، إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم.

وقد تمت على يوسف النعمة وآتاه الله الملك، وطلب من الله ﷻ أن يلحقه بالصالحين. وفي ذلك يقول:

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَفَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَّانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنًا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا لَطَلْمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ارْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا سَفِي عَلَىٰ يُوسُفَ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَاطِمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتُوا تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُرْفِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَنْبَغِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْبَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضَّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُرْجَحَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَوَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ أَتَرَكْنَا اللَّهَ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِبِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ بِغَفْرِ اللَّهِ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ أَذْهَبُوا بِمِصْصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعَيْرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ

تَفِيدُونَ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْفَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبُوهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبْتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَرَبِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّقِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿يوسف: ٧٧ - ١٠٢﴾.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل السادس والثلاثون

شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ

نتحدث إليكم عن شعيب نبي الله ورسوله الموصوف بأنه خطيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأكثر أهل العلم ينسبونه إلى إبراهيم خليل الرحمن عليهما الصلاة والسلام، وبعضهم يذكر أنه من العرب العاربة، وقد بعثه الله ﷻ إلى قومه مدين، وكانوا يسكنون الأرض المعروفة باسمهم قرب معان من أطراف الشام مما يلي أرض الحجاز قريباً من بحيرة قوم لوط المعروفة باسم البحر الميت، على طريق يسلكه العرب في أسفارهم إلى الشام، كما هي على طريق يسلكه المسافرون بين مصر والشام والحجاز بالقرب من خليج العقبة، والظاهر أنهم كانوا بعد هلاك قوم لوط بزمان غير بعيد؛ كما أن أرضهم غير بعيدة من قرى قوم لوط عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وكان أهل مدين كفاراً يقطعون السبيل ويخيفون المارة ويعبدون مع الله آلهة أخرى منها الأيكة؛ وهي شجرة أو غيضة تنبت السدر والآراك، كما كانوا من أسوأ الناس معاملة وتعدياً على الأموال، يطففون في المكيال والميزان، ويبخسون الناس أشياءهم ويفسدون في الأرض بعد إصلاحها، ويسلكون كل سبيل معوجة، وينحرفون عن الصراط المستقيم، وقد سماهم الله ﷻ مدين باسم قبيلتهم، كما وصفهم بأنهم أصحاب الأيكة، وقد تَوَهَّم بعض الناس فزعم أن شعيباً أرسل إلى أُمَّتَيْنِ هما مدين وأصحاب الأيكة، وهذا قول مردود، وفهم غير سديد، وإنما مدين هم أصحاب الأيكة، وإنما قال الله ﷻ: ﴿وَأِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥] وقال في أصحاب الأيكة: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ [الشعراء: ١٧٧]. ولم يقل أخوهم؛ لأنه لما ذكر مدين - وشعيب في نسبها - قال: أخوهم، ولكنه لما ذكر أصحاب الأيكة وشعيب غير مشارك معهم في أيكتهم قال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ ولم يقل أخوهم وَهُمْ هُمْ، وجملة الأوصاف

التي وصف الله ﷻ بها أهل مدين هي جملة الأوصاف التي وصف الله ﷻ بها أصحاب الأيكة، وقد بعث الله ﷻ إلى مدين أصحاب الأيكة شعيباً ﷺ، وهو من أهل بيت هم أعز بيوت مدين، فدعاهم إلى إخلاص العبادة لله وحده، وأمرهم أن يوفوا الكيل والميزان. وأن لا يبخسوا الناس أشياءهم، وأن يتركوا الإفساد في الأرض، وأن لا يقطعوا الطريق، وأن يستغنوا بالحلال من رزق الله عن الحرام، وأن يتركوا الظلم ويلتزموا بالعدل في معاملاتهم، وأن ما عند الله خير وأبقى للمؤمنين، ويبن لهم أنه لا يسألهم على تبليغ الرسالة أجراً ولا يسألهم عن نصيحته لهم عوضاً، وأنه يخاف عليهم إن كذبوه أن يحل بهم ما حل بالمكذبين بالرسول، وتهدهم إن شاقوه أن يصيبهم ﴿مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ﴾ [هود: ٨٩]، وذكرهم بما أصاب قوم لوط لما كذبوا لوطاً ﷻ، وهم غير بعيدين عنهم، يعلمون ما حل بهم.

وقد ساق القرآن قصة مدين بعد قصة قوم لوط مباشرة في سورة الأعراف، وفي سورة هود، وفي سورة الحجر، وفي سورة الشعراء، كما ذكرهم شعيب ﷺ بنعمة الله عليهم في أنفسهم وبلادهم، وكيف كانوا قليلاً فكثرتهم، فما كان جواب قومه إلا أن سخروا منه، واستهزؤوا به وبصلاته. وقالوا له: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَخَّرِينَ﴾، و﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾، تماماً كما قال الكفار لرسول الله محمد ﷺ وإخوانه الأنبياء من قبله، وقالوا: يا شعيب أصلاتك تأمرك أن ندع عبادة الأوثان والأصنام التي عبدها آبائنا من قبل مجيئك لنا ودعوتك إيانا؟ وهل صلاتك تقيد حريتنا في التصرف في أموالنا كيف نشاء من نهب أو سلب أو غصب أو ربا أو رشوة أو تطفيف الكيل والميزان، كنا قبل دعوتك نظنك حليماً رشيداً، وجهلوا أن رسل الله صلى الله عليه وسلم قد اتفقت دعوتهم على أنه يجب صيانة النفس والمال والعرض والعقل مع صيانة الدين، وأنه لا يحل لأحد أن يأخذ من مال غيره شيئاً من غير طريق مشروع، كما جهل هؤلاء أن طيب المطعم أو خبثه له أثر خطير على سلوك الإنسان استقامة أو انحرافاً، وقد أجابهم شعيب ﷻ بأن الله تفضل عليه وهداه إلى هذا الدين الذي يسلك بهم سبل السلام ويهديهم إلى الصراط المستقيم.

والسعيد من سارع إلى اتباعه والعمل بما يرسمه، وهذا رزق حسن تفضل الله به على عباده، وأنا أول المؤمنين الملتزمين بهذا الدين، ولن ﴿أَخَافُكُمْ إِنَّمَا أَنهَلِكُمْ عَنْهُ﴾، ولا أريد لكم إلا الخير. ﴿إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

وبعد هذا البيان الواضح والدعوى المشرقة من شعيب ﷺ قالوا له: ﴿يَسْعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا وَمَا نَقُولُ﴾، ولا ندري حكمة هذه الأوامر والنواهي التي جئت بها، وأنت رجل ضعيف نستطيع القضاء عليك، إلا أننا من أجل رهطك وعشيرتك تركناك ولم نرجمك، ولن ترى منا بعد اليوم كرامة ولا إعزازاً، فقال لهم شعيب: أمقام رهطي أهيب في قلوبكم من الله المحيط بكم الآخذ بنواصيكم الذي لا يعجزه شيء ولا يفوته شيء، ومع ذلك لم تخافوه ولم تعظموه وهو رب كل شيء وسيده ومليكه المحيط بأعمالكم، وقد أجابه إلى الله تبارك وتعالى جماعة من قومه فأغاظ ذلك الكافرين وهددوا شعيباً والمؤمنين بطردهم من البلاد إذا لم يرجعوا عن هذا الدين وحاولوا التلبيس على المؤمنين فقالوا لهم: ﴿لَئِن أَتَبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٠]. فأجابهم شعيب والمؤمنون معه: كيف تطلبون منا أن نرجع من النور إلى الظلمات ومن الهدى إلى الضلالة، وقد تفضل الله علينا فهدانا إلى صراطه المستقيم. ﴿قَدْ أَفْرَبْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِن عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ جَعَلْنَا اللَّهَ مِنهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا﴾ ولا حول ولا قوة إلا بالله الذي يفعل ما يشاء ويقضي ما يريد لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ وانصرنا عليهم ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْأَفْئِدِينَ﴾، وسيد الحاكمين، وخير الناصرين، وليس في قوله تعالى عن شعيب والمؤمنين: ﴿إِن عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ جَعَلْنَا اللَّهَ مِنهَا﴾ دليل على أن شعيباً كان على ملتهم، بل المراد بالعود هنا الصيرورة، أي إن صرنا في ملتكم بعد أن صاننا الله عن الوقوع فيها. وكذلك ما حكاه الله عن قوم شعيب في قولهم له وللمؤمنين به: ﴿لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ أي لتصيرن إلى ملتنا، فكلمة عاد قد تستعمل بمعنى صار، وقد بلغ الحال بقوم شعيب أن استعجلوا عقوبة الله وطلبوا من

شعيب أن يأتي بها وأن يُسقط عليهم كسفاً من السماء إن كان من الصادقين . فبين لهم شعيب أن عقوبتهم بيد الله وحده يأتي بها إن شاء متى شاء، وأنه لا تخفى عليه خافية، وأنه عليهم بأقوالكم واستهزائكم ولن تفلتوا من عقوبته، ثم تحداهم ﷺ وقال لهم: ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ﴾ أي ابدلوا كل جهدكم وطاقتكم لمقاومة عذاب الله إذا نزل بكم، وأنا عامل على طاعة الله أبذل كل جهدي في مرضاته، وسترون قريباً لمن تكون العاقبة الحميدة، وانتظروا واني منتظر، وستندمون حيث لا ينفعكم الندم، ولما جاء أمر الله نجّى الله تعالى شعيباً والذين آمنوا معه برحمة من الله، وسلّط الله تبارك وتعالى على الكافرين من قومه العذاب؛ فجاءتهم رجفة وزلزلة من تحتهم، وصيحة زلزلت قلوبهم، وظلّةً أمطرتهم كسفاً من عذاب الله، وقطعاً من النار، وحق بهم ما كانوا به يستهزئون، فأصبحوا في بلادهم وديارهم جاثمين صرعى هالكين كأن لم يغنوا في هذه الديار ولم يقيموا فيها، وألحقهم الله ﷻ بالكافرين المكذبين، فبعداً لمدين كما بعدت ثمود، هذا وقد ساق الله تبارك وتعالى قصة شعيب مع قومه في مواضع من كتابه الكريم، فذكر قصتهم في سورة الأعراف وفي سورة هود وفي سورة الشعراء، وذكرها على سبيل الإيجاز في سورة العنكبوت وفي سورة الحجر .

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل السابع والثلاثون

تابع شعيب عليه السلام

أشرت في ختام الفصل السابق إلى أن الله تبارك وتعالى ذكر قصة شعيب مع قومه في مواضع من كتابه الكريم؛ فذكرها في سورة الأعراف حيث يقول:

﴿وإلى مدين آخاهم شعيباً قال إنقوموا أعبدوا الله ما لكم من إله غيري قد جاءكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ﴿٨٥﴾ ولا تقعدوا بكل صراط نعوذون ونصدون عن سبيل الله من آمن به وتبعونها عوجاً وأذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم وأنظروا كيف كان عقبة المفسدین ﴿٨٦﴾ وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحكيمین ﴿٨٧﴾ قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجك يسهيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال أولو كنا كرهين ﴿٨٨﴾ قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجاننا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علماً على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفلجین ﴿٨٩﴾ وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذا لخبرون ﴿٩٠﴾ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جثمين ﴿٩١﴾ الذين كذبوا شعيباً كان لهم يفتنوا فيها الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الظالمين ﴿٩٢﴾ فنولى عنهم وقال إنقوم لقد أبلغتكم رسالت ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كفرون ﴿٩٣﴾

[الأعراف: ٨٥ - ٩٣].

وقال تعالى في سورة هود: ﴿وإلى مدين آخاهم شعيباً قال إنقوموا أعبدوا الله ما لكم من إله غيري ولا تنقصوا الكيال والميزان إنني أرى أنكم تبخسون عابكم عذاب يوم محيط ﴿٨٤﴾ وينقومون أوفوا الكيال والميزان بالقيسط ولا تبخسوا

النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَشْعَبُ أَصْلُوكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤَنَا أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشْتَوُا إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَشْعَبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَهَيْتُمُ عِزِّي مِنْ اللَّهِ وَأَتَّخِذْتُمُوهُ رِجَالًا وَإِنِّي لَأَعْلَمُ سَوَاءَ تَعْلَمُونَ مِنْ بَاتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿٩٤﴾ كَانُوا يَفْقَهُوا فِيهَا إِلَّا بَعْدًا لِمَنْ كَمَا بَعَدَتْ سَعُودٌ ﴿هود: ٨٤ - ٩٥﴾.

وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿كَذَبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا نُنْفِقُ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطِاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْحِجْلَةَ الْأُولَى ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَطَّنُكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿الشعراء: ١٧٦ - ١٩١﴾.

وقال في سورة العنكبوت: ﴿وَإِلَى مَدِينٍ آخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿العنكبوت: ٣٦ - ٣٧﴾.

عَلَىٰ وَاللَّهِ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ فَلَمَّا فَصَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ۚ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ [القصص: ٢٠ - ٢٩].

فإن شعيباً عليه السلام متقدم على موسى عليه السلام بقرون كثيرة وأزمان متباعدة، ولا يلزم من ورود موسى أرض مدين ووجود شيخ كبير صالح فيها يزوج موسى إحدى ابنتيه أن يكون هذا الشيخ الكبير هو شعيب عليه السلام. ولم يرد خبر صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر أن الرجل الذي صاهر موسى بمدين هو شعيب عليه السلام، بل القرآن يشير إلى أن الله تعالى بعث موسى بعد قرون متطاولة من إهلاك قوم شعيب، حيث يقول عز وجل في سورة الأعراف بعدما ذكر قصة شعيب مع قومه وهلاكهم: ﴿تِلْكَ الْأَقْرَبُ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا ۗ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ ۗ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ [الأعراف: ١٠١ - ١٠٣].

وقال في سورة القصص: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ [القصص: ٤٣].

وقال شعيب لقومه: ﴿وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ [هود: ٨٩].

وقوم لوط أهلكوا في حياة إبراهيم خليل الرحمن، وبينهم وبين موسى أمم متطاولة وأجيال متباعدة، أما الذي زوج موسى عليه السلام ابنته فهو رجل مؤمن، من ذرية أحد المؤمنين الذين نجاهم الله من قوم شعيب. والله أعلم.

هذا وظاهر سياق القرآن لقصة قوم شعيب عليه السلام يشعر أن أكبر جرائمهم بعد الشرك بالله كان التططيف في الكيل والميزان؛ مما ينبه الناس إلى الاحتراز من هذه الجريمة، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ [المطففين: ١ - ٦].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الفصل الثامن والثلاثون

أيوب عليه السلام

نتحدث في هذا الفصل عن نبي الله ورسوله قدوة الصابرين المضروب به المثل في الصبر على البلاء أيوب عليه السلام، وأكثر أهل العلم على أنه من ذرية إبراهيم عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿[الأنعام: ٨٣ - ٨٤]﴾. بناءً على أن الضمير في قوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ﴾ عائد على إبراهيم عليه السلام؛ لأن الكلام سيق من أجله، وقال بعض أهل العلم إنه ليس من ذرية إبراهيم وجعل الضمير في قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ﴾ راجعاً إلى نوح؛ لأنه أقرب مذكور. على أن الله تبارك وتعالى قد حصر النبوة بعد إبراهيم في ذريته حيث قال في سورة العنكبوت: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [٢٧].

وقد اشتملت قصة أيوب عليه السلام في كتاب الله تعالى وفي سنة رسول الله ﷺ على نقاط: منها ابتلاؤه وأنه مسه الضر، وأن هذا الضر أصابه في نفسه وأهله، فأحس بنُصْبٍ وعذاب، أي بتعب وألم ومشقة، ومنها أنه ابتلي فحلف على فعل شيء يؤلمه تنفيذه ويشق عليه، كما أنه ابتلي بالغنى الواسع والمال الوفير، ولم يثبت عن الله ولا عن رسوله ﷺ تحديد نوع البلاء الذي أصيب به أيوب عليه السلام في جسمه؛ إلا أن القرآن العظيم يشير إلى أنه أصيب بنوع من الحمى الشديدة، إذ جعل الله تبارك وتعالى علاجه من مرضه أن يغتسل بماء بارد، وأن يشرب منه، وقد أوصى رسول الله ﷺ مَنْ أُصِيبَ بِنَوْعٍ مِنَ الْحُمَى أَنْ يَغْتَسِلَ بِالْمَاءِ الْبَارِدِ؛ فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «الحمى من فيح جهنم فأطفئوها بالماء»؛ وفي لفظ للبخاري من حديث

عائشة ؓ عن النبي ﷺ قال: «الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء»، كما روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من طريق فاطمة بنت المنذر أن أسماء بنت أبي بكر ؓ كانت إذا أتيت بالمرأة قد حمت تدعو لها، أخذت الماء فصبتة بينها وبين جيها وقالت: كان رسول الله ﷺ يأمرنا أن نبردها بالماء.

وليس كل مرض أو كل حمى يعالجها التبريد بالماء، إنما هو نوع خاص من الحمى، إذ إن بعض أمراض الحمى قد يقتل المريض أن يغتسل بالماء.

والظاهر أن نوع المرض الذي أصاب أيوب ؑ كان غاية في الشدة والوجع والألم، وليس ذلك بغريب، فإن أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، فقد روى البخاري ومسلم من حديث ابن مسعود ؓ قال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو يُوعك وعكاً شديداً، فمسسته بيدي فقلت: يا رسول الله، إنك توعك وعكاً شديداً؛ فقال رسول الله ﷺ: «أجل إنني أوعك كما يوعك رجلان منكم» فقلت: ذلك أن لك أجرين؟ فقال رسول الله ﷺ: «أجل»، ثم قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حط الله له سيئاته كما تحط الشجرة ورقها».

وقد أخرج الدارمي والنسائي في الكبرى وابن ماجه وصححه الترمذي وابن حبان والحاكم كلهم من طريق عاصم بن بهدلة عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله! أي الناس أشد بلاءً؟ قال: «الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل». وقال ابن كثير في قصص الأنبياء من البداية والنهاية: وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل».

أما ما يذكر من أن أيوب مرض وطال مرضه حتى عافه الجليس وأخرج من بلده وألقي على مزبلة خارجها، وانقطع عنه الناس، ولم يبق أحد يحنو عليه سوى زوجته، وأن الدود صار يسرح ويمرح في جسده، وأنه تساقط لحمه حتى لم يبق إلا العظم والعصب، وأنه مر عليه في هذا المرض ثلاث سنوات أو سبع سنوات أو ثلاث عشرة سنة أو ثمان عشرة سنة، وأنه كان له أخوان صديقان

فجاء يوماً فلم يستطيعا أن يدنوا منه من ريحه فقاما من بعيد، فقال أحدهما لصاحبه: لو كان الله علم من أيوب خيراً ما ابتلاه بهذا، فجزع أيوب جزعاً شديداً إلخ. وأنه لما شفاه الله جاءت امرأته إلى المذلة فلم تعرفه، فقالت له: أين ذهب هذا المبتلى الذي كان ههنا لعل الكلاب ذهبت به أو الذئاب؟ هذا القصة المختلق لم يثبت شيء منه بخبر صحيح عن رسول الله ﷺ وعامة أهل العلم، على أن الله تبارك وتعالى يحمي أنبياءه من الأمراض المنفرة، وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أن الله تبارك وتعالى أعطى أيوب غنى واسعاً، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بيننا أيوب يغتسل عرياناً خرَّ عليه رجل جرادٍ من ذهب فجعل يحثي في ثوبه، فناداه ربه يا أيوب ألم أكن أغنيك عما ترى؟ قال: بلى يا رب، ولكن لا غنى لي عن بركتك».

وقد ساق الله تبارك وتعالى قصته في موضعين من كتابه الكريم، فقال في سورة الأنبياء: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرْنَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣ - ٨٤]. وقد عقب ذلك في هذا المقام ببيان أن الصبر من شيمة المرسلين فقال: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنبياء: ٨٥]. وقد بين الله تبارك وتعالى في هذا المقام أنه تفضل على أيوب فاستجاب له وكشف الضر عنه وأعطاه أهله ومثلهم معهم رحمة من الله وذكرى للعابدين.

وقال في سورة ص: ﴿وَأَذْكُرُّ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرْنَا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخَذَّ بِبِدِكَ ضِعْفًا فَأَضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُتْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص: ٤١ - ٤٤].

وفي هذا المقام الكريم يسند أيوب الضر الذي أصابه إلى الشيطان تأديباً مع الله تعالى في إسناد الشر إلى الشيطان؛ لأنه سبب كل بلاء يصيب ابن آدم في

الدنيا، حيث إنه هو المتسبب في إخراج آدم من الجنة وإهباطه إلى هذه الأرض للامتحان والابتلاء. وقد أشار الله تبارك وتعالى بقول: ﴿وَعُذِّبَتْ يَدَاكَ ضَعْفًا﴾ الآية. والضغث قُبْضَةُ الحشيش المختلطة الرطب باليابس، وهو يشعر أنه حلف في حالة غضب أن يضرب حبيباً له عدداً معيناً، وقد أمره الله تعالى أن يبر بيمينه فيضرب من حلف على ضربه بهذه القبضة، مكافأة له على صبره وإحسانه؛ لأنه لو ضربه بسوط أو نحو لآلم ذلك الضارب والمضروب؛ ففرج الله كربته، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٢ - ٣].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل التاسع والثلاثون

إدريس وإلياس عليهما السلام

نتحدث في هذا الفصل عن نبيين كريمين من أنبياء الله تعالى وهما إدريس وإلياس عليهما الصلاة والسلام، وقد أشار البخاري في صحيحه إلى أن إدريس هو إلياس، حيث قال: يذكر عن ابن مسعود وابن عباس أن إلياس هو إدريس، كما أشار البخاري رحمته الله إلى اختلاف الناس في نسب إدريس عليه السلام، حيث قال في صحيحه: باب ذكر إدريس عليه السلام، وهو جد أبي نوح، ويقال: جد نوح عليه السلام، ولم يجزم البخاري بشي من نسب إدريس عليه السلام، ولم يرد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ثابت يؤكد أن إدريس قبل نوح عليه السلام، وقد ذهب القاضي أبو بكر ابن العربي رحمته الله إلى أن إدريس عليه السلام لم يكن جداً لنوح عليه السلام، وإنما هو من بني إسرائيل بناءً على أن إدريس هو إلياس، وأن إلياس من أنبياء بني إسرائيل، ومما يرجح ذلك الذي ذهب إليه ابن العربي ما رواه البخاري في صحيحه في حديث الإسراء والمعراج بلفظ: فلما مرَّ جبريل بالنبي صلى الله عليه وسلم بإدريس قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح، فقلت: من هذا قال: هذا إدريس، وفي لفظ للبخاري من طريق قتادة: ثم صعد حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح فقبل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك قال: محمد، قيل: أوقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، ولنعم المجيء جاء، قال: ففتح لنا، فلما خلصت فإذا إدريس عليه السلام، قال: هذا إدريس. قال: فسلمت عليه، فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح. فقوله: بالأخ الصالح، يشعر بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس من ذريته، ولو كان إدريس جداً لنوح لكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذريته قطعاً، ولقال له كما قال له آدم وإبراهيم عليهما السلام في ليلة الإسراء والمعراج في هذا الحديث الصحيح: مرحباً بالابن الصالح والنبى الصالح.

وكون إدريس عليه السلام قبل نوح أو بعده لا يتعلق به عظيم قصد، ولذلك لم يرد تحديد تاريخ وجوده وزمان بعثته في خبر ثابت صريح، وإنما المهم هو أنه من أنبياء الله تعالى، وأن الله رفعه مكاناً علياً، وأنه كان صديقاً نبياً.

وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ [مريم: ٥٦ - ٥٧]. وكما قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِسَ إِذْ أَلْكَفَلُ كُلُّ مِّنَ الصَّادِقِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنبياء: ٨٥ - ٨٦].

وقد ذكر كثير من المفسرين والإخباريين كثيراً من الأساطير عن إدريس عليه السلام، فزعموا أنه طلب من أحد الملائكة أن يتوسط له عند ملك الموت أن يؤجل قبض روحه ليزداد عملاً، فحمله بين جناحيه ثم صعد به إلى السماء، فلما كان في السماء الرابعة تلقاه ملك الموت منحدرًا، فكلم ملك الموت في الذي كلمه فيه إدريس، فقال له ملك الموت: وأين إدريس؟ قال: هو ذا على ظهري، فقال ملك الموت: يا للعجب! بُعِثْتُ وقيل لي: اقبض روح إدريس في السماء الرابعة، فجعلت أقول: كيف أقبض روحه في السماء الرابعة وهو في الأرض، فقبض روحه هناك.

كما زعموا له أوليات كثيرة فقالوا: إنه أول من خط بالقلم، وأول من خاط الشياطين، وأول من خط بالرمل.

وقد قال ابن كثير في قصص الأنبياء: ويزعم كثير من علماء التفسير والأحكام أنه أول من تكلم في ذلك، ويسمونه هرمس الهرامسة، ويكذبون عليه أشياء كثيرة، كما كذبوا على غيره من الأنبياء والعلماء والحكماء والأولياء. ١. هـ.

أما إلياس عليه السلام فظاهر القرآن الكريم يشير إلى أنه من ذرية نوح عليه السلام، حيث يقول الله ﷻ في سورة الأنعام: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنعام: ٨٤ - ٨٥]، فهذا يدل على أن إلياس من ذرية نوح سواء قلنا: إن الضمير في قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ﴾ يعود على نوح أو على إبراهيم؛ لأن إبراهيم؛ من ذرية نوح، فمن كان من ذرية إبراهيم فهو من ذرية نوح لا محالة.

وقد ذكر الله تبارك وتعالى إلياس في سورة الأنعام كما ذكرت قريباً، كما ذكر قصته في سورة الصافات، وقد تضمنت هذه القصة صورة مشرقة من صور دعوته إلى الله ﷻ، ووجوب إخلاص العبادة لله وحده، وحض قومه على تقوى الله تبارك وتعالى وتحذيرهم من أسباب سخطه، وأنه لا ينجيهم من عذاب الله إلا الفرار إلى الله وحده واتباع أوامره واجتناب نواهيه وسلوك صراط الله المستقيم، ونفّرهم من عبادة صنمهم «بعل»، وأشعرهم بأن هذا الصنم لا يستحق تقديساً ولا تكريماً، وأن الله تبارك وتعالى قد أيدّ إلياس بالحق ونصره على قومه المكذبين، وأن الله تعالى قد جعل العاقبة الحميدة لإلياس ﷺ ومن آمن به، وأنه ترك له ذكراً حسناً وثناءً جميلاً وسلاماً في الآخرين من الأنبياء والأمم إلى يوم القيامة.

وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَنَدَعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأُولَى (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلَّمَ عَلَيَّ إِلْيَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿﴾ [الصافات: ١٢٣ - ١٣٢].

وفي هذه القصة تثبت لفؤاد رسول الله ﷺ وعبرة لأولي الألباب، وأن العاقبة الحسنة لعباد الله الصالحين، وأن عاقبة السوء للمكذبين المنحرفين، وإلياس اسم عبراني، وقد تزايد في آخره ياء ونون، فيقال فيه: إلياسين كما قالوا في إدريس: إدريسين، وقد قرأ أكثر القراء السبعة: سلام على إلياسين. وهذا يحتمل أن المراد إلياس وحده بزيادة الياء والنون على اللغة التي ذكرتها، ويحتمل أن المراد به: سلام على إلياس ومن معه من المؤمنين، فجمعوا معه تغليياً كقولهم للمهلب وقومه: المهلبون، وللأشعري وقومه أشعرون بحذف ياء النسب، وقد قرأ نافع وعبد الله بن عامر: سلام على آل ياسين. وهذا يحتمل أن يكون اسم والد إلياس ياسين، فكأنه قيل: سلام على إلياس ولد ياسين، ويحتمل أن يكون ياسين اسماً ثانياً لإلياس ﷺ، والمراد بآله رهطه وقومه المؤمنون معه ﷺ، فكأنه قيل: سلام على إلياس ومن معه من المؤمنين، والعلم عند الله ﷻ.

هذا وقد قال ابن كثير في قصص الأنبياء وقد قدمنا قول من ذكر أن إلياس والخضر يجتمعان في كل عام في شهر رمضان بيت المقدس، وأنهما يحجان كل سنة ويشربان من زمزم شربة تكفيهما إلى مثلها من العام المقبل، وأوردنا الحديث الذي فيه أنهما يجتمعان بعرفات كل سنة، وبيننا أنه لم يصح شيء من ذلك، وأن الذي يقوم عليه الدليل أن الخضر مات وكذلك إلياس ؑ. ١.١. هـ. كلام ابن كثير.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الأربعون

يونس بن متى عليه السلام

نتحدث إليكم في هذا الفصل عن نبي الله ورسوله ذي النون يونس بن متى عليه الصلاة والسلام، وقد أرسل الله تبارك وتعالى يونس إلى أهل نينوى من الموصل بالعراق، فدعاهم إلى الله وحده، ونبذ عبادة ما سواه، وقد بذل لهم النصيح، وبلغهم رسالة ربه، ولما لم يكن يونس عليه السلام من أولي العزم من المرسلين لم يتحمل ما يتحمله أولو العزم من الرسل من الصبر على تكذيب قومه له، وإيذائه، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن قومه أغضبوه، وأنه أحسَّ منهم الكفر، فتهدهدهم بعقوبة من الله تعالى تحل بهم إن لم يؤمنوا به، وبدأت أمارات العذاب تظهر في جوهم، وأخذت مقدمات العذاب تتجه نحوهم، فظن يونس عليه السلام أنه قد أدى ما عليه من أعباء الرسالة، ما دام قد أوضح لقومه الطريق وعرفهم صراط الله المستقيم، وحذرهم من أسباب سخط الله وغضبه، وأن الله تعالى لن يضيق عليه إن هاجر من أرض قومه، وأن له أن يذهب حيث يشاء، فاتجه نحو البحر، وركب سفينة مشحونة، ويظهر أن أهل السفينة عندما رأوه، وشاهدوا ما علاه من الوقار والبهاء لم يحاولوا رده عن ركوب سفينتهم.

غير أن البحر لما هاج، اضطرب ركاب السفينة إلى تخفيف حمولتها من الركاب، فعملوا قرعة ليلقوا في البحر من تقع عليه القرعة، فكان يونس عليه السلام : ﴿مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ [الصفات: ١٤١]، أي ممن وقعت عليهم السهام، فألقي في البحر وهو في كربه وغمه وهمه الذي فارق عليه قومه، فهياً الله تعالى له حوتاً أي سمكة فابتلعه الحوت، وصان الله تبارك وتعالى يونس من أذى الحوت فلم يكسر له عظماً، ولم يخدش له لحماً، وإنما صار بطن الحوت كالسجن المؤقت ليونس عليه السلام، وأحاطت به ظلمة بطن الحوت داخل ظلمات البحر، فصرخ يونس

ينادي ربه متوسلاً إليه بكلمة التوحيد التي من أجلها خلق الله الإنس والجن، ومن أجلها أنزل الكتب وأرسل الرسل ومن أجلها يقام سوق الجنة والنار، وقد نزه الله ﷻ عن كل نقص، واعتذر إلى الله ﷻ من فراره من قومه، فقال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، فاستجاب الله له، ونجاه من الغم، فأسرع الحوت إلى شاطئ البحر، وقذف بيونس في العراء، وهو مريض من شدة ما أصابه من الهول والكرب والهم والغم، وأنبت الله تعالى عليه شجرة من يقطين، واليقطين هو ما لا ساق له من النبات، ويقال لحمله القرع أو هو الدباء، وهو نوع من القرع.

وقد ذكر العلماء في حكمة إنبات اليقطينة على يونس ﷻ أن ورقة شجرة القرع في غاية النعومة، وأنه كثير، وأنه ظليل، ولا يقربه الذباب، ويؤكل ثمره من أول طلوعه إلى آخره نياً ومطبوخاً، ويؤكل بقشره وبيذره أيضاً، وفيه نفع كثير، وتقوية للدماغ وللبدن إلى غير ذلك؛ ولذلك أثر أن رسول الله ﷺ كان يحب الدباء، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إن خياطاً دعا رسول الله ﷺ لطعام صنعه، قال أنس: فذهبت مع رسول الله ﷺ فرأيته يتبع الدباء من حوالي القصعة، قال: فلم أزل أحب الدباء من يومئذ.

وقد ردَّ الله تبارك وتعالى ليونس كمال صحته، وأخبره بأن قومه آمنوا لما رأوا عذاب الله متجهاً نحوهم، وأن الله قبل منهم إيمانهم وكشف عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا، وأمره الله تبارك وتعالى بالرجوع إليهم والاستمرار في توجيههم إلى صراط الله المستقيم، فرجع إليهم يونس ﷻ، وكانوا أكثر من مئة ألف إنسان، وقد أفاض الله عليهم من الخيرات والبركات، فعاشوا آمنين في ظل شريعة الله التي بعث بها يونس ﷻ.

وقد ذكر الله تبارك وتعالى جوانب من قصة يونس ﷻ في مواضع من كتابه الكريم، وقد ذكر في كل مقام منها مقاله الذي يناسبه، فذكر في سورة سُميت بكاملها سورة يونس أنه امتنَّ على أمة يونس بمنة تفردوا بها من بين الأمم السابقة، وأنه استثناهم بها من قاعدة: أن من آمن من الكفار عند رؤية العذاب لا

ينفعه إيمانه على حد قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدِيثُ الْوَكْفَرَانَا إِنَّمَا نَكُنَّا مِنْ قَبْلُ مَشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكٰفِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤ - ٨٥]. فقد استثنى الله تبارك وتعالى أمة يونس من هذه القاعدة، فإنهم عندما رأوا مقدمة العذاب مقبلة عليهم آمنوا بالله وصدقوا يونس عليه السلام وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ ءَٰذَابَ الۡحِزْيِ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

وفي سورة الأنبياء يقول تعالى: ﴿وَدَا التَّنُونَ إِذْ ذَهَبَ مُغْتَضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحٰنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَجَّعْنَاهُ مِنَ الغَرِّ وَكَذٰلِكَ نُفَصِّحُ الۡمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧ - ٨٨]. فقوله تعالى: ﴿وَدَا التَّنُونَ﴾ أي واذكر في المرسلين صاحب النون، والنون الحوت والمراد به يونس عليه السلام، فقد لقبه الله تعالى بصاحب النون وصاحب الحوت لالتقام الحوت له، ورحمته به، وملازمته له فترة من الزمن، وتخليصه إياه من الغرق، حتى طرحه على الساحل، وقوله تعالى: ﴿إِذْ ذَهَبَ مُغْتَضِبًا﴾ أي فارق قومه وهو ممتلئ من الغضب عليهم لكفرهم به، وتكذيبهم له، فهو غاضب عليهم وهم عليه غضاب. وقوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي فحسب أن الله تعالى لن يضيق عليه إذا فارق قومه الكافرين بعد أن بلغهم رسالة ربهم، وكان هذا عن اجتهاد منه عليه السلام، فمعنى نقدر: نضيق على حد قوله تعالى: ﴿وَيَكَاذِبُ اللَّهُ يُبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ [القصص: ٨٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يُبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الإسراء: ٣٠] أي يوسع على من يشاء ويضيق على من يشاء، فلا ينبغي أن يخطر ببال مسلم أن ﴿وَيَقْدِرُ﴾ هنا بمعنى يستطيع، فإن أحاد المؤمنين من غير الأنبياء لا يخطر بباله أن الله يعجز عن شيء ولا يستطيعه، إذ هو على كل شيء قدير.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الفصل الحادي والأربعون

تابع: يونس بن متى ﷺ

ذكرت في ختام الفصل السابق معنى قوله تعالى عن يونس ﷺ: ﴿وَذَا التُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغْلَبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، أما قوله تعالى: ﴿فَتَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. أي فصرخ مستغيثاً بربه في ظلمات بطن الحوت في البحر اللجج متوسلاً إليه بكلمة التوحيد، مُنْزَهاً الله تعالى عن كل نقص، واصفاً له بكل كمال، مستغفراً الله ﷻ من مفارقة قومه دون إذن من الله ﷻ قائلاً: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وقوله: ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لا يدل على أنه ارتكب ذنباً أو أتى معصية، فقد ثبت أن نوحاً رسول الله ﷺ وأحد أولي العزم من المرسلين لما قال: ﴿وَتَادَى تُوْحٌ رَبِّيُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ أَبِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْمَكِينِ﴾ (٤٥) قَالَ يَنْوُحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَلَوَّنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٥ - ٤٧]. وقوله تعالى: ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخَيِّجُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨] أي فأجبنا يونس لما دعانا وهو في بطن الحوت، وخلصناه من الغم والهم والحزن والكرب الذي وقع فيه، فوضعه الحوت على ساحل البحر، وأتمنا عليه النعمة، وكذلك ننجي كل مؤمن يقع في غم وكرب فيلتجئ إلينا فإننا نخلصه مما هو فيه من الغم والكرب ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أُوْلَئِكَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا نَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿وَإِنْ يُوسُفُ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٢٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى

الْفُلْكَ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَمَمَهُ الْحَوْتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلِثَّ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَبَدَّنَتْهُ بِالْعَرَاكِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَبْتَنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ زَيْدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَفَاتَمَوْا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿[الصافات: ١٣٩ - ١٤٨].﴾

وقوله تعالى: ﴿أَبَى﴾ أي ذهب بلا خوف أو استخفى ثم ذهب، وقوله: ﴿فَسَاهَمَ﴾ أي اشترك في القرعة مع ركاب السفينة، واقترح معهم فيمن يُلقى من الركاب في البحر لتخفيف حمل السفينة ولتنجية من لم يقع عليه السهم من الركاب. وقوله: ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ أي من المغلوبين الذين وقعت عليهم القرعة ليُلقى بهم في البحر.

وقوله: ﴿فَالْتَمَمَهُ الْحَوْتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي فابتلع الحوت يونس عليه السلام، وهو ملِيم، أي معاتب نفسه على فراق قومه بلا إذن من ربه، أو وهو آت بما يلام عليه أي يعاتب عليه، فاللوم العذل والعتب، وكون بعض الأنبياء يفعل ما يعاتب عليه عن طريق الاجتهاد لا ضير فيه، وقد وقع ذلك لأكمل خلق الله وسيد المرسلين محمد عليه السلام يوم بدر حينما استشار أصحابه فيما يفعله بالأسرى فأشار عليه أبو بكر رضي الله عنه باستبائهم وقبول الفداء منهم، وأشار عليه عمر رضي الله عنه بقتلهم لإضعاف شوكة المشركين، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يخيّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فمال إلى رأي أبي بكر رضي الله عنه وقَبِلَ الفداء من الأسرى، فعاتبه الله تعالى على قبول الفداء، وقال صلى الله عليه وسلم في ذلك: ﴿مَا كَانَتْ لِيَنِي أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُشْخَبَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَوْلَا كُنْتُ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿[الأنفال: ٦٧ - ٦٩].﴾

وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ لَلِثَّ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿[الصافات: ١٤٣ - ١٤٤].﴾ أي فلولا أن يونس عليه السلام كان من الذاكرين الله كثيراً المسبحين بحمده في السراء والضراء لجعلنا بطن الحوت مقبرة له، لكنه كان يتعرف إلى الله في الرخاء، وفرّج الله كربته في الشدة؛ ولذلك أثر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال لابن عباس رضي الله عنهما كما رواه أحمد وبعض أهل السنن: «يا غلام! إني معلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة».

وقوله تعالى: ﴿فَبَدَّدْنَا بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾. أي فأمرنا الحوت بطرحه على ساحل البحر في الفضاء، وكان قد سقم ومرّض مما أصابه من الغم والكرب وبطن الحوت، و﴿أَوْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ ليست للشك في عدد المرسل إليهم، بل هي للإضراب بمعنى بل، فقد أثبتت مئة ألف، فاستقر هذا العدد الكثير في نفوس السامعين، ثم ذكر أنهم يزيدون على ذلك، فيكون زيادة في تعظيم عدد المرسل إليهم، وهو أبلغ من قول القائل: أرسل إلى أكثر من مئة ألف، وأجمل وأفصح وفي هذا تثبيت لفؤاد رسول الله صلى الله عليه وسلم بما من الله تعالى به على يونس عليه السلام، والزائد من عدد هؤلاء عن مئة ألف لا يعلمه إلا الله إذ لم ينقل عن المعصوم صلى الله عليه وسلم تحديد لهذه الزيادة.

وقوله تعالى: ﴿فَقَامُوا مُتَعَنِّهِمْ إِلَىٰ جَيْنٍ﴾، أي فاستمروا على إيمانهم، وازدادوا إيماناً بما رسمه لهم يونس عليه السلام، ففتح الله عليهم من البركات والخيرات مدة استمسакهم بالدين الذي جاءهم به يونس عليه السلام.

وقال تعالى في سورة (ن): ﴿فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَالِحِ الْقَوْمِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَوْلَا أَن تَدَارَكُهُ نِعْمَةٌ مِّنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [٤٨ - ٥٠] وفي هذا المقام الكريم من مقامات ذكر يونس عليه السلام يبدأ الله صلى الله عليه وسلم بأمر حبيبه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم بالصبر على أذى قومه له مهما كان منهم، لأنه سيد أولي العزم من المرسلين، ثم نبهه إلى أنه لا ينبغي له أن ينفذ صبره كما نفذ صبر أخيه يونس عليه السلام بعد أن امتلأ كرباً وغماً من أذى قومه له، فإن يونس عليه السلام ليس من أولي العزم من المرسلين، فهو من جملة النبيين المرسلين من غير أولي العزم، وقد قال الله تعالى في واحد منهم وهو أبوهام آدم عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَسَىٰ وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ [طه: ١١٥] وقال لشيخ المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أَوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وهذا لا يمنع أن يقتدي رسول الله ﷺ بإخوانه النبيين فيما جاؤوا به من الهدى بما فيهم يونس عليه السلام؛ ولذلك لما ذكر الله تعالى جملة من النبيين والمرسلين في سورة الأنعام وفيهم يونس عليه السلام قال الله لرسوله ﷺ بعد ذكرهم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَفْتَدَهُمْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

والى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الثاني والأربعون

تابع: يونس

ذكرت في ختام الفصل السابق معنى قوله تعالى عن يونس عليه السلام من سورة «ن»: ﴿فَأَصْرًا لِّأَكْمَرٍ رَّيَكٍ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨]. وقوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨] ليس داخلاً في حيز النهي، فإن نداء المكظوم ودعائه ربه محبوب مطلوب، ومعنى إذ نادى وهو مكظوم، أي دعا ربه وهو ممتلىء كرباً وغماً، حيث قال وهو في بطن الحوت، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وقوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْ تَدْرَكُهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ [القلم: ٤٩]، أي لولا أن أدركته رحمة الله وعنايته لطح بالأرض الفضاء وهو ملوم، وما دام قد أدركته رحمة الله فقد ألقاه الحوت على الساحل غير ملوم، وكأن الله تبارك وتعالى تفضل على يونس عليه السلام فلم يؤاخذه باجتهاده في فراق قومه حين ذهب مغاضباً بلا إذن من ربه، كما تفضل على محمد عليه السلام حينما لم يؤاخذه على قبول فدية الأسارى يوم بدر حيث قال: ﴿لَوْلَا كَتَبُ مِنَّا لَللَّهِ سَبَقَ لَمَسْكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٨] و﴿لَوْلَا﴾ حرف امتناع لوجود، فقد امتنع جوابها هنا لوجود شرطها، وكل من لم تدركه رحمة الله مذموم، لكن يونس لم يذم؛ لأنه أدركته رحمة الله.

وقوله تعالى: ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القلم: ٥٠] زيادة في فضل الله تعالى على يونس عليه السلام أن الله تعالى اجتباه، أي أعلى درجته في المصطفين الأخيار، وجعله من الكاملين في الصلاح، وقد وردت أحاديث كثيرة صحيحة تُشعر بفضل يونس عليه السلام وتنتهي عن تفضيل سيد الأنبياء وشيخ المرسلين محمد عليه السلام على يونس بن متى، وهي محمولة على أنها من باب تواضعه عليه السلام كما أشرت في قصة إبراهيم ولوط ويوسف عليهم السلام إلى أن تواضع الرفيع القدر لا ينزل من قدره،

وقد جاء صريح القرآن في تفضيل بعض الأنبياء على بعض حيث يقول الله ﷻ: ﴿تِلْكَ أَرْسُلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] ولا شك عند أهل العلم أن أولي العزم من المرسلين أفضل ممن سواهم من الأنبياء والمرسلين، وأن أفضل أولي العزم محمد ﷺ ثم أبوه إبراهيم خليل الرحمن صلى الله عليهم جميعاً وسلم، غير أنه إذا كان المقام مقام تنازع بين أهل الأديان وسبباً لإثارة الشر وإلحاق الضرر بالمسلمين، فإنه ينبغي الكف عن التفضيل على حد قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَلَيْهِمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

فإن الأصنام والأوثان تستحق السب، لكن إذا كان سبُّ الأصنام يثير عابديها على المسلمين فإنه نهي عن سبها لذلك.

وكذلك التفضيل على وجه الفخر أو الحمية أو العصبية، وعلى هذا يحمل ما ورد عن رسول الله ﷺ في منع تفضيله على موسى أو يونس بن متى عليهم جميعاً الصلاة والسلام، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما يهودي يعرض سلعة له، أعطي بها شيئاً كرهه أو لم يرضه، قال: لا، والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر، فسمعه رجل من الأنصار فلطم وجهه، قال: تقول والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر ورسول الله ﷺ بين أظهرنا؟ قال: فذهب اليهودي إلى رسوله الله ﷺ فقال: يا أبا القاسم! إن لي ذمّة وعهداً، وقال: فلان لطم وجهي، فقال رسول الله ﷺ: «لِمَ لَطَمْتَ وَجْهَهُ؟». قال: قال يا رسول الله: والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر وأنت بين أظهرنا، قال: فغضب رسول الله ﷺ حتى عُرف الغضب في وجهه ثم قال: «لا تفضلوا بين أنبياء الله، فإنه ينفخ في الصور فيصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، قال: ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من بعث، أو في أول من بعث، فإذا موسى عليه السلام أخذ بالعرش فلا أدري أحوسب بصعقته يوم الطور أو بُعث قبلي، ولا أقول: إن أحداً أفضل من يونس بن متى». وقوله ﷺ في هذا الحديث عن

موسى عليه السلام: «فأكون أول من بُعث فإذا موسى عليه السلام أخذ بالعرش فلا أدرى أحوسب بصعقته يوم الطور أو بُعث قبلي» لا يدل على أن موسى أفضل من محمد عليه السلام، إذ القاعدة عند أهل العلم أن المزية لا تنافي الأفضلية. أي إن ثبت لأحد مزية على أحد في جانب من جوانبه لا يدل على أن صاحب هذه المزية أفضل من الآخر، ومثال ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى في منامه أن بلالاً رضي الله عنه يمشي بين يديه في الجنة، فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لبلال عند صلاة الفجر: «يا بلال! حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام فإني سمعت دف نعليك بين يدي في الجنة» قال: ما عملت عملاً أرجى عندي أني لم أتطهر طهوراً في ساعة ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كتب الله لي أن أصلي، وفي لفظ لمسلم: «فإني سمعت الليلة» وفي لفظ له بدل «دف نعليك» «خشف نعليك» والدف الحركة الخفيفة، والخشف الحركة الخفيفة أيضاً، فالدف والخشف بمعنى واحد. وقد جاء في رواية الترمذي وابن خزيمة وأحمد من حديث بريدة رضي الله عنه في حديث بلال هذا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يا بلال! بم سبقتني إلى الجنة؟» ولا يخطر على بال مسلم أن بلالاً أفضل من رسول الله صلى الله عليه وسلم لهذه المزية.

ولعل أحداً يحسب أنه خير من يونس بن متى عليه السلام عندما يسمع قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨]، ويجهل أن المقصود من هذا الذكر الكريم تنبيه رسول الله صلى الله عليه وسلم - كما أسلفت - إلى التأسي في باب الصبر بأولي العزم دون التأسي بمن ليسوا من أولي العزم في هذا الباب، وينسى كذلك أن الله أمر رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بالافتداء بالأنبياء والمرسلين بما فيهم يونس عليه السلام في باب الاهتداء إلى الصراط المستقيم كما جاء في سورة الأنعام كما أشرت؛ ولذلك كله حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين من أي خاطر شيطاني في هذا الأمر، فقد روى البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما ينبغي لعبد أن يقول: إني خير من يونس بن متى» ونسبه إلى أبيه، وفي لفظ للبخاري من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير

من يونس بن متى». كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى». سلام على يونس في المرسلين.

والى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الثالث والأربعون

اليسع وذو الكفل عليهما السلام

نتحدث في هذا الفصل عن نبيين كريمين من أنبياء الله تعالى وهما اليسع وذو الكفل عليهما الصلاة والسلام، وقد ذكر الله تبارك وتعالى اليسع في كتابه مرتين، فذكره في جملة الأنبياء الذين أعطاهم الله تعالى الحجة على قومهم، وأمر رسوله ﷺ أن يقتدي بهم، فقال تعالى في سورة الأنعام:

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن دُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُوشَعَ وَثَمَارًا وَكَانَ هَٰؤُلَاءِ سِيقًا لِلَّذِينَ آمَنُوا لِيُذَكَّرَ بِهِ لِقَاءَ رَبِّهِمْ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام: ٨٣ - ٨٦]، ثم قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فِيمَهْدِيهِمْ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وذكر اليسع مرة أخرى في جملة الأنبياء الذين أمر رسوله محمداً ﷺ أن يتأسى بهم في الصبر على أذى قومه له، فقال تعالى في سورة «ص»: ﴿أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧]. وبعد سياق قصة داود قال: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠].

وبعد سياق قصته ذكر من كان أشد منهما ابتلاء وهو أيوب عليه السلام، وقال في آخر قصته: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]. ثم ذكر ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ [ص: ٤٥] ثم قال: ﴿وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكُفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٨].

واليسع اسم يمكن أن يكون عبرانياً، ويمكن أن يكون عربياً، قال أبو حيان في البحر المحيط في تفسير سورة الأنعام: وقرأ الجمهور واليسع كأن أُل أُدخلت

على مضارع وسع، وقرأ الأخوان «يعني بهما حمزة والكسائي» واللَّيْسَعُ على وزن فيعل نحو الضيغم، واختلف في: أهو عربي أم أعجمي، فأما على قراءة الجمهور وقول من قال إنه عربي فقال: هو مضارع سمي به ولا ضمير فيه. فأعرب ثم نُكِّرَ وعُرِّفَ بأل، وقيل: سمي بالفعل كيزيد ثم أدخلت فيه أل زائدة شذوذاً كاليزيد في قوله: رأيت اليزيد بن اليزيد مباركاً. ولزمت كما لزمته في الآن. ومن قال: إنه أعجمي فقال: زيدت فيه أل ولزمت شذوذاً، وممن نص على زيادة أل في اليسع أبو علي الفارسي، وأما على قراءة الأخوين فزعم أبو علي أن أل فيه كهي في الحارث والعباس؛ لأنهما من أبنية الصفات، لكن دخول أل فيه شذوذ عما عليه الأسماء الأعجمية، إذ لم يجئ فيها شيء على هذا الوزن، كما لم يجئ فيها شيء فيه أل للتعريف، وقال أبو عبد الله بن مالك الجياني: ما قارنت أل نقله كالمسمى بالنضر أو بالنعمان أو ارتجاله كاليسع، والسموئل فإن الأغلب ثبوت أل فيه، وقد يجوز أن يحذف، فعلى هذا لا تكون أل فيه لازمة؛ واتضح من قوله أن اليسع ليس منقولاً من فعل كما قال بعضهم ١٠١ هـ.

ثم قال أبو حيان: وهذه الأسماء الأعجمية لا تجر بالكسرة ولا تنون إلا اليسع فإنه يجربها ولا ينون، وإلا لوطاً فإنه مصروف لخفة بنائه بسكون وسطه وكونه مذكراً وإن كان فيه ما في إخوته من مانع الصرف وهو العلمية والعجمة الشخصية ١٠١ هـ.

هذا وكون اليسع هو ابن أخطوب أو ابن العجوز أو كان اسمه الأسباط ابن عدي من ذرية يوسف بن يعقوب عليه السلام، أو هو ابن عم إلياس، وكان مستخفياً معه بجبل قاسيون، وأنه خلف إلياس في قومه أو كان بيانياس من أرض الشام فإن هذه الأقوال كلها لا تستند إلى دليل صحيح، وفيما ذكره الله وَعَلَى عنه في محكم كتابه كفاية. والعلم عند الله وَعَلَى.

أما ذو الكفل فقد ذكره الله تبارك وتعالى كذلك مرتين في كتابه الكريم، فذكره في سورة الأنبياء في جملة من المرسلين بعد قصة أيوب عليه السلام ليتأسى بهم رسول الله محمداً ﷺ في الصبر على أذى قومه، فقال وَعَلَى: ﴿وَأَسْمِعِمْ وَإِدْرِيسَ

وَذَا الْكِفْلِ كُلِّ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٤٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾
[الأنبياء: ٨٥ - ٨٦].

كما ذكره الله ﷻ في سورة «ص» بعد قصة أيوب أيضاً حيث قال ﷻ: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾ [ص: ٤٥ - ٤٨].

وقد زعم بعض الناس أن ذا الكفل لم يكن نبياً، ونسبوا هذا القول المردود إلى بعض السلف، معتمدين على أخبار مدسوسة إسرائيلية، لم يصح منها خبر عن رسول الله ﷺ، والمتبادر من سياق القرآن العظيم يثبت أنه من الأنبياء العظام الذين أمر الله رسوله ﷺ أن يتأسى بهم، إذ قرنه في سورة الأنبياء بجملة من عظماء المرسلين، ثم قرنه في سورة (ص) بجملة من هؤلاء السادة المرسلين بعد أن أمر محمداً ﷺ بالصبر تأسياً بهؤلاء، ومنهم ذو الكفل ﷺ، والقاعدة عند الأصوليين أن الأصل وجوب العمل بظاهر اللفظ حتى يرد دليل يصرفه عن هذا الظاهر، ولم يرد دليل صحيح يثبت أن ذا الكفل لم يكن من جملة الأنبياء.

أما ما رواه ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد بأن اليسع ﷺ استخلفه بعد أن كبر اليسع واشترط عليه أن يصوم النهار ويقوم الليل ولا يغضب، وأنه كان تزديره العين، وأنه وقى بما اشترطه عليه اليسع. فهذا من أساطير بني إسرائيل، وكذلك ما رواه ابن أبي حاتم عن أبي موسى الأشعري بأنه خطب فقال: لم يكن ذو الكفل نبياً، فهو خبر في سنده اضطراب وعليه الشنشنة المعروفة عن بني إسرائيل.

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد من طريق أسباط بن محمد حدثنا الأعمش عن عبد الله بن عبد الله عن سعد مولى طلحة عن ابن عمر أنه سمع من رسول الله ﷺ سبع مرات أو أكثر قال: «كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله، وأنه جاءته امرأة محتاجة، وأنه أعطاها ستين ديناراً ليقارفها، وأنها بكت عندما جلس منها مجلس الرجل من زوجته، فقام وتاب وأعطاها الدنانير،

وأنه مات من ليلته فأصبح مكتوباً على بابه: قد غفر الله للكفل». وقد رواه الترمذي من حديث الأعمش به، وقال: حسن. وذكر أن بعضهم رواه فوقفه على ابن عمر، فهو كذلك من دسائس بني إسرائيل ضد أنبياء الله ورسله، قال ابن كثير في قصص الأنبياء من البداية والنهاية: هو حديث غريب جداً وفي إسناده نظر.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الرابع والأربعون

موسى ﷺ

نتحدث إليكم عن كبير أنبياء بني إسرائيل، أحد أولي العزم من المرسلين، كليم الله موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام، وعمران والد موسى ﷺ من نسل يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، وليس هو عمران المذكور في سورة آل عمران المسماة باسمه، حيث يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]، فإن عمران هذا هو والد مريم أم عيسى ﷺ، وقد بيّن الله ﷻ ذلك في قوله بعد هذه الآية مباشرة: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٣٤) إِذْ قَالَتْ أَمْرَأْتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَدَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَئِن لَّا لَأُنْثَىٰ وَلَئِن لَّا لَأَكْفُرُ بِكَ وَذُرِّيَّاتَهَا مِن الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٤ - ٣٦].

وبين عمران والد موسى وعمران والد مريم قريب من ألفي سنة.

وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى الحالة التي كانت سائدة بمصر عند ميلاد موسى ﷺ، إذ كان ظلم فرعون وبغيه على بني إسرائيل وفساده في الأرض قد بلغ أقصى حدود الطغيان، فجعل أهلها شيعاً، يقرب بعضهم، ويستضعف طائفة منهم وهم بنو إسرائيل، يُذَبِّحُ أبناءهم ويستحيي نساءهم ويستعمل معهم صنوف الذلّة، وأنواع الهوان والعذاب، وأراد الله ﷻ أن يُؤمِّنَ على الذين استضعفوا في الأرض من بني إسرائيل، وكانوا يومها محصورين في مصر، وأن يبذل خوفهم أمناً، وأن يُمَكِّنَ لهم في الأرض، وأن يجعل منهم أئمة هدى، ويجعلهم الوارثين، وقد كان الحقد والبُغض لبني إسرائيل قد اشتعل في قلب فرعون وهامان وجنودهما بسبب ما ألقى في روعهم أن زوال ملكهم، وتدميرهم سيكون

على يد رجل من بني إسرائيل، ولكن الحذر لا ينجي من القدر، فأراد الله ﷻ أن يُري ﴿فَرَعُونَ وَهَمَنَ وَحَوَدَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٦].

فَوَلَدَ موسى ﷺ في هذا الجو الخائق، وخافت أمه أن يذبحه فرعون؛ لأن ميلاد موسى ﷺ صادف إحدى النوبات التي يقوم بها فرعون بتذبيح أطفال بني إسرائيل الذكور، فأوحى الله تعالى إلى أم موسى أن أرضعيه، فإذا خشيت عليه من فرعون أن يذبحه فاصنعي له صندوقاً محكماً كأنه سفينة، وضعيه في الصندوق وألقيه في نهر النيل، وأبعدي الخوف عن نفسك فلا تخافي ولا تحزني، فإن الله ﷻ سيحفظه لك، ويرده عليك، وسيكون ولدك هذا من المرسلين، قال بعض أهل العلم: المراد بالوحي هنا وحي إلهام أو منام. قلت: لا مانع أن يكون الله تبارك وتعالى أرسل لها ملكاً بهذا الوحي فآمنت به وصدقت بوعده. ولا يلزم من مجيء الملك لها بهذه النصيحة أن تكون نبيّة، فقد ثبت في صحيح البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «إن ثلاثة من بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى أراد الله أن يبتليهم فبعث إليهم ملكاً فأتى الأبرص، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لو نؤ حسن وجلد حسن ويذهب عني الذي قد قدرني الناس، فمسحه فذهب عنه قدره، وأعطني لوناً حسناً، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الإبل أو قال: البقر، شك الراوي، فأعطي ناقه عشاء، فقال: بارك الله لك فيها، فأتى الأقرع. فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن ويذهب عني الذي قدرني الناس، فمسحه فذهب عنه وأعطني شعراً حسناً، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: البقر فأعطي بقرة حاملاً. قال له: بارك الله لك فيها، فأتى الأعمى فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: أن يرُدَّ الله إليّ بصري فأبصر الناس؛ فمسحه فردَّ الله إليه بصره، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الغنم، فأعطي شاةً والداً. فأنج هذا ن وولد هذا؛ فكان لهذا وادٍ من الإبل، ولهذا وادٍ من البقر، ولهذا وادٍ من الغنم، ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بغيراً أتبلغ به في

سفري، فقال: الحقوق كثيرة، فقال: كأني أعرفك ألم تكن أبرص يقدرك الناس، فقيراً فأعطاك الله؟ فقال: إنما ورثت هذا المال كابرأ عن كابر. فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت، وأتى الأقرع في صورته وهيبته. فقال له مثل ما قال لهذا، وردّ عليه مثل ما ردّ هذا، فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت، وأتى الأعمى في صورته وهيبته، فقال: رجل مسكين وابن سبيل، انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي رد عليك بصرك شاةً أتبلغ بها في سفري، فقال: قد كنت أعمى فردّ الله إليّ بصري. فخذ ما شئت ودع ما شئت، فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته الله ﷻ، فقال: أمسك مالك فإنما ابتليتم فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبك».

فهذا الحديث الصحيح المتفق عليه يثبت أن الله قد يبعث ملكاً لأحد من عباده وليس بنبي ولا برسول، كما روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: أن رجلاً زار أخاً له في قرية أخرى فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكاً، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخاً لي في هذه القرية. قال: هل لك عليه من نعمة تربُّها عليه؟ قال: لا غير أنني أحببته في الله تعالى. قال: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه.

فهذا يثبت أن الله تعالى قد يرسل ملكاً إلى بعض الناس ويخاطبهم وليس بأنبياء.

وقد أرسل الله تعالى الملائكة لمريم حيث يقول: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْرِمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَمْرِمُ أَقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عمران: ٤٢ - ٤٣]، ثم يقول تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْرِمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهَاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران: ٤٥ - ٤٦]، ولم تكن مريم نبيّة وإنما كانت امرأة صالحة صديقة من القانتين.

وفي ميلاد موسى ﷺ وبيان الجو الذي وُلد فيه وما كان من طغيان فرعون وإذلاله لبني إسرائيل والإيحاء إلى أم موسى بإلقائه في اليم مع الوعد برده إليها،

يقول الله ﷻ: ﴿تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبِعُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَزُرِيدُوا أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُكِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِي فَإِذَا خَفِيَ عَلَيْهِ فِئْتَابُهَا فَوَلَّىٰ وَكَانَ مِنَ الْمَرْسُورِينَ ﴿٧﴾﴾

[القصص: ٣ - ٧].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الخامس والأربعون

تابع: موسى ﷺ

ذكرت في ختام الفصل السابق ما قصّه الله ﷻ عن ميلاد موسى ﷺ وإيحاء الله تعالى لأمه أن ﴿أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

وقد اشتمل هذا الوحي على أمرين ونهيين وخبرين، وقد أجمل الله تبارك وتعالى ذلك في سورة طه حيث يقول ممتناً على موسى ﷺ: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ﴾ [طه: ٣٧ - ٣٨]، ثم فصّل ذلك الوحي المجمل فقال: ﴿أَنْ أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩].

وقد قامت أم موسى ﷺ بما أمرها الله تعالى به فألقت ولدها في اليم بعد أن وضعته في التابوت أي الصندوق. وقد ذكر الله تبارك وتعالى أن اليم ألقى بالصندوق وفيه موسى ﷺ إلى الساحل، أي شاطئ النهر أمام بيت آل فرعون ﴿فَالْقَظَّةُ مَاءَ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ [القصص: ٨] وفرحوا به لما ألقى الله ﷻ على موسى من المحبة في قلب من يراه، غير أن فرعون خشي أن يكون من بني إسرائيل، وفكّر في قتله، فقالت زوجته آسيا ﷺ: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَسْعُرُونَ﴾ [القصص: ٩] أنهم التقطوا من يزول ملكهم على يديه، وأنه سيكون لهم عدواً وحزناً، فقيض الله له ﷺ أعدى أعدائه أن يربوه، وأن ينشأ في بيتهم على حد قول الشاعر:

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

وهياً الله تعالى له المرأة الصالحة آسيا زوجة فرعون عدو الله ورسله لتشرّف على تربيته، غير أن الله ﷻ منعه من التقام أي ثدي غير ثدي أمه. فكلما قدموه

لمرضعة رفض الامتناص من ثديها، وقد بلغ الحال بأمر موسى مع شدة كظم ما بها من الخوف عليه أن أصبح فؤادها كالهواء، كأنها كادت أن تُجَنَّ لولا أن ربط الله على قلبها لتكون من المؤمنين، وقالت لأختها: تتبعي أثره وانظري ماذا يفعل به ملتقطوه، وإياك أن يعرفوا أنك أخته أو أنك تحاولين معرفة شيء عنه، فانظري عن بُعد وبطريقة جانبية لا يُعرفُ منها أنك مشغولة به، فقامت أخته بتنفيذ وصية أمها، ومروا بها يبحثون عن مرضعة له، فقالت: أنا أدلكم على مرضعة لعله يقبل منها، فجاؤوا به إلى أمه فالتقم ثديها ففرحوا فرحاً عظيماً. وجعلوا يترددون به عليها، وقد قرت عينها به وخلصها الله تعالى من الحزن عليه. وعلمت أن وعد الله حق، وأن الله على كل شيء قدير، وأنه إذا أراد أمراً هياً له الأسباب وأزال الموانع. وقد استمر موسى ﷺ في بيت فرعون كأنه ولد لهم، يحوطونه بمحبتهم حتى بلغ أشده واستوى، وملاً الله قلبه حكمة وفقهاً وعلماً.

وفي هذا تثبتت فؤاد رسول الله ﷺ والمؤمنين، وأن الله تعالى ينصر أولياءه، ويخلصهم من المحن وينجيهم من سوء.

وفي ذلك كله يقول الله تبارك وتعالى في سورة القصص: ﴿فَالْتَقَطَهُ آءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِبِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتْ أُمَّرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنَ لِي وَكَأَنَّ لَا تَفْقَهُهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرَجًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَيَّ قَلْبُهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُمْ نَصْحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ آئِهِ كَىٰ نَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آءَالِيَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْرِي الْمُحْسِنِينَ ﴿القصص: ٨ - ١٤﴾.

ويقول تعالى في سورة طه: ﴿إِذْ تَسُوْءُ أَخْتُكَ فَتَقُوْلُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ آئِيكَ كَىٰ نَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴿طه: ٤٠﴾﴾ وفي قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾

لام العاقبة. أي ما دروا أنهم بالتقاطه ستكون العاقبة أن يكون لهم ﴿عُدْوًا وَحَزْنًا﴾، وكم من عمل يعمله الإنسان لأمر فتكون عاقبته على عكس ما أراد من عمله؛ لأن الأمر كله لله وحده.

والإنسان مهما ادّعى القدرة والمعرفة فإنه يجهل عاقبة أمره.

وهامان هو وزير فرعون لعنهما الله، وفي تنشئة موسى في بيت فرعون يقول الله تعالى في سورة الشعراء: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلِئْتَ فِينَا مِنْ عُمَرِكَ سِنَّينَ﴾ [الشعراء: ١٨]، وبعد أن بلغ موسى ﷺ أشده وتم نضجه وشبابه وتكامل عقله وأفاء الله تعالى عليه من الحكمة والفقه والعلم، وأراد الله ﷻ أن يقيم على يديه سبباً يدعو للخروج من مصر، والهروب من آل فرعون والبعد عن تقاليدهم وعاداتهم قدر الله له أن يدخل وسط المدينة في وقت غفلة أهلها، إما في وقت نومهم أو في وقت اشتغالهم بلعبهم ولهوهم، حيث تكون الطرقات شبه خالية من المارة، فوجد فيها رجلين يتصارعان يريد كل منها الفتك بصاحبه، وموسى ﷺ قد عرف أن أحدهما إسرائيلي وأن الآخر قبطي، وكأنه رأى أن القبطي أشد بأساً من الإسرائيلي؛ ولذلك استغاثه وطلب منه العون، فأراد موسى ﷺ أن يدفع القبطي عن الإسرائيلي، فوكزه بيده ودفعه بجُمع كفه ليدفعه عنه. ولم يكن موسى ﷺ يدري أن هذه الوكزة ستقضي عليه وتقتله؛ ولذلك أحسّ بندم شديد وأسند هذا الشر للشيطان فقال: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ [القصص: ١٥ - ١٦] وعزم على أنه لن يعود لمثلها وقال: ﴿رَبِّ يَا أَنعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧] أي نصيراً لأحد من الكافرين المجرمين.

وقد أصبح ﴿فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ١٨] ماذا سيؤدي إليه قتل هذا القبطي، وهل سيعرفون أنه موسى فيأخذونه به، وبينما هو كذلك في طريق قريب من موضع قتل القبطي وإذا بالإسرائيلي الذي ساعده بالأمس (يستصرخه) ويستغيث به على قبطي آخر، فأجابه موسى ﷺ بأنك شديد الغواية بين الأذى، ولما أشار موسى ﷺ بيده إلى الإسرائيلي إشارة غضب مؤدباً له على سوء سلوكه

﴿قَالَ يَمْؤِسُ أَتْرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص: ١٩]، فعلم موسى ﷺ أن الخبر لا بد وأن يصل إلى فرعون من هذا القبطي، وأنهم لا بد قاتلوه، وفعلاً أعلم القبطي آل فرعون بأن موسى هو الذي قتل القبطي بالأمس، فتأمروا على قتل موسى ﷺ.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل السادس والأربعون

تابع: موسى ﷺ

ذكرت في ختام الفصل السابق أن القبطي أخبر آل فرعون أن موسى ﷺ هو الذي قتل القبطي، وأنهم تأمروا عليه، وقد أحسَّ موسى ﷺ بغمٍّ شديد، وامتحان عسير وفتنةٍ شديدة، وقد سَخَّرَ اللهُ تعالى لموسى ﷺ رجلاً قريب المنزل من آل فرعون يسكن معهم في أقصى المدينة كالعادة في القديم والحديث أن الأشراف يسكنون الأطراف، ويعرف أخبارهم، ويكنُّ لموسى ﷺ محبة قوية، فسارع يبحث عن موسى ﷺ حتى وجده في داخل المدينة، وأخبره أن آل فرعون يأتمرون بموسى ليقتلوه، وأمره أن يسارع بالفرار من مصر ليسلم من شرهم، وينجو من مكرهم، ويبيِّن له أن الحامل له على ذلك هو حُبُّه ونصحه له، فخرج موسى ﷺ مسرعاً متجهاً إلى سيناء وهو يدعو ربه أن ينجيه من القوم الظالمين الذين يقررون قتل من لا يستحقُّ القتل، وقد عزم ﷺ أن يتجه تِلْقَاءَ مَدْيَنَ، غير أنه غير خبير بالطريق إليها، فتضرَّع إلى الله تعالى أن يهديه إلى طريقها، وأن يوقفه إلى سلوك طريق قصد وأن يرشده إلى سواء السبيل.

واستمر في سِيره ﷺ حتى ﴿وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ ووجد عليه جماعة من الناس يسقون مواشيهم، ووجد أمامه قبل هؤلاء الجماعة الذي يسقون مواشيهم امرأتين تدفعان غنمهما حتى لا ترد الماء مع رؤية موسى ﷺ للغنم في حاجة إلى الماء، فقال موسى ﷺ للمرأتين ما شأنكما؟ لماذا تدفعان غنمكما عن الماء وهي في حاجة إليه، قالتا: نحن لا نحب أن نختلط مع الرجال الرعاء، ولنا أب شيخ كبير لا يستطيع أن يتولى سقي أغنامنا، فتقدم موسى ﷺ وسقى لهما دون أن يطلب منهما أجراً على ذلك، ولَمَّا سقى لهما أغنامهما تولى إلى ظل شجرة قريبة وجلس تحتها وناجى ربه قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]،

أَسْتَصْرَمُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِمُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَعَوِيُّ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالْبَدْيِ هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمُوسَى أَرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَمُوسَى ابْنَ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَجَرَحَ مِنْهَا حَافِيًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَبَاءَتْهُ إِحْدَهُمَا تَمَشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ ابْنُ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَبَوْتُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَهُمَا يَتَأَتَّى اسْتَجِرَّهُ ابْنُ خَيْرٍ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هُنْتَيْنِ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَجٌ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ سَكَدْتِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجْلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَيَّ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿القصص: ١٥ - ٢٨﴾.

وقد ذكرت في قصة شعيب ﷺ أنه لم يكن صهر موسى ﷺ، وأن الشيخ الكبير الذي زوج موسى ﷺ ابنته في مدين هو رجل صالح من بقايا من آمن بشعيب ﷺ، وذكر ما يدل على ذلك من كتاب الله تبارك وتعالى في هذا المقام.

هذا وأما ما اشتهر عند الناس من حديث الفتون الذي ذكره النسائي في كتاب التفسير من سننه المتضمن قصة موسى مبسوطة من أولها إلى آخرها الذي رواه النسائي فقال: حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا يزيد بن هارون حدثنا أصبغ بن زيد حدثنا القاسم بن أبي أيوب أخبرني سعيد بن جبيرة قال: سألت عبد الله بن عباس عن قول الله تعالى لموسى: ﴿وَفُتِنَّا فُتُونًا﴾ فسألته عن الفتون ما هي؟ فقال: استأنف النهار يا ابن جبيرة فإن لها حديثاً طويلاً. فلما أصبحت غدوت إلى

ابن عباس لأتجز منه ما وعدني من حديث الفتون، فساق الحديث. قال ابن كثير في تاريخه بعد أن ساقه: هكذا ساق هذا الحديث الإمام النسائي وأخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم في تفسيرهما من حديث يزيد بن هارون، والأشبه والله أعلم أنه موقوف، وكونه مرفوعاً فيه نظر، وغالبه متلقى من الإسرائيليات، ثم قال: وفي بعض ما فيه نظر ونكارة. والأغلب أنه من كلام كعب الأحبار، وقد سمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزني يقول ذلك. والله أعلم.

والى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل السابع والأربعون

تابع: موسى ﷺ

بعد أن قضى موسى الأجل الذي التزم به وأدّاه على أكمل وجه، ألهمه الله ﷻ أن يتجه بأهله نحو مصر، وهو لا يعلم أن مراسيم السعادة تنتظره في الطريق، وأن الله ﷻ سيناديه ويكلّمه ويناجيه بالوادي المقدس طوى، فسار بأهله ومعه قطيع من الغنم متجهاً إلى أرض مصر، وفي أثناء سيره مرّت به ريح باردة في ليلة مظلمة، لم يتمكن معها من مواصلة السير، إذ اشتد بهم البرد، ولم يعرف اتجاه الطريق، وفجأة لاحت له نار أبصر عندها شجرة، فدخل عليه لذلك أنس ومسرة، وقال لأهله: ﴿أَمْكُتُوا إِنِّي مَأْسُتٌ نَارًا﴾ [طه: ١٠] سَأَذْهَبُ إِلَيْهَا، لعلني أجد عندها من يرشدنا إلى الطريق السوي والصراط المستقيم، أو آتيكم منها بقطعة من النار لعلكم تستدفنون بها، والظاهر أن زوجته ﷻ لم تبصر هذه النار، وأن النار إنما تجلّت لموسى وحده، كما يظهر أن موسى ﷻ لم يعرف اسم المكان الذي رأى النار فيه، ولم يدرك أنه الوادي المقدس طوى، وأنه سيجد عنده أعظم الهدى، وما إن اقترب موسى ﷻ من النار وبيده عصا حتى ﴿تُودِيكَ مِنْ شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ﴾ [القصص: ٣٠] أي من جانب الوادي مما يلي الجبل عن يمينه من ناحية الغرب ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ [القصص: ٣٠] ﴿أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٨] ﴿فَأَخْلَعَ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى﴾ [طه: ١٢] ﴿يُمَوِّسِي إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النمل: ٩] ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسَعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: ١٤ - ١٦].

وبعد أن توجّج الله ﷻ موسى ﷻ بمراسيم السعادة سأله وهو العليم الخبير عما بيده، ليدخل عليه الأنس وليثبت قلبه، وليظهر له معجزة تبين له أن الله تعالى

سيؤيده وينصره ويجعل العاقبة الحميدة له ولمن آمن به، فقال ﷺ: ﴿وَمَا تَلَكَ بِمِمينِكَ يَمُوسَى﴾ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ ﴿طه: ١٧ - ١٨﴾ ولم يقف موسى في الجواب إلى هذا الحد، فأخذ يبين بعض منافع عصاه زيادة في طول لذة المناجاة، فقال: ﴿أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي﴾ ﴿طه: ١٨﴾ ثم قال: ﴿وَلِي فِيهَا مَنَارِبٌ أُخْرَى﴾ ﴿طه: ١٨﴾ لعله يسأله عن هذه المنارِب والمقاصد فيزداد لذة وتطول لذة المناجاة، فالحبيب يود أن لا ينقطع عنه صوت حبيبه على حد قول الشاعر:

ولا حسن إلا سماع حديثكم مشافهة يملئ عليّ فأنقل
وعلى حد قول الشاعر الآخر:

وكنت إذا ما جئت سعدى أزورها أرى الأرض تطوى لي ويدنو بعيدها
من الخفريات البيض ودّ جليسيها إذا ما انقضت أحدى لو تعيدها

ولله المثل الأعلى، فأمره الله ﷻ بإلقاء العصا على الأرض، فألقاها فإذا هي حية تسير على بطنها في غاية السرعة كأنها جان. فلما رآها موسى ﷺ وهي تهتز وتتحرك مسرعة ولّى مُدبراً ولم ينتظر من شدة الخوف. فناداه الله ﷻ: ﴿يَمُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ١٠]. وقال له: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ ﴿طه: ٢١﴾ فأخذها فعادت في يده عصا كما كانت أول مرة.

ثم أمره الله ﷻ أن يدخل يده في جيبه أي في طوق قميصه فأدخلها، فلما أخرجها إذا هي بيضاء من غير برص ولا مرض، مع أن موسى ﷺ كان أسمر اللون آدم، فهذه آية أخرى.

وأمره الله ﷻ بالذهاب إلى فرعون الطاغية الذي يقول لقومه: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، ويطلبه وقومه بإخلاص العبادة لله وحده، وأن يسلمه بني إسرائيل، ويخلصهم من العذاب المهين، وطلب منه أن يتلطف في دعوة فرعون إلى الله، وأن يقول: ﴿لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا لَعَلَّمُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَحْشَى﴾ ﴿طه: ٤٤﴾، فطلب موسى ﷺ من ربه أن يشرح له صدره، وأن ييسر له أمره، وأن يحلّ له عقدة من لسانه ليفقهوا قوله، وأن يرسل معه هارون أخاه ليُشد به أزره ويُشركه في

أمره؛ لأن هارون بن عمران ﷺ مشهور بالفصاحة بين قومه، فأجابه الله ﷻ لذلك كله، وبين له أن منة الله عليه عظيمة، وليست هذه أول منة، وذكره بمنة أخرى عند ولادته إذ أوحى إلى أمه أن تلقيه في اليم ليلتقطه آل فرعون ويربى في حجر عدوه، الذي يصونه ويرعاه مع أنه لا يفتأ يذبح أبناء بني إسرائيل.

وقد ذكر موسى ﷺ أنه يخاف من فرعون أن يقتله بالقبطي، فطمأنه الله ﷻ وعرفه أنه سيجعل له سلطاناً فلا يتمكن فرعون من قتله، وقال له: ﴿لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ (٤٦) فَأَيُّهَا فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَاتٍ مِّنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ أُنْبَعِ الْهُدَى﴾ (طه: ٤٦ - ٤٧).

وقد وصف الله تبارك وتعالى مجيء موسى إلى الوادي المقدس طوى وحدد المكان الذي تمت فيه المناجاة، وذكر ما ناجى به موسى ﷺ في مواضع من القرآن العظيم ليثبت بذلك فؤاد رسول الله محمد ﷺ، وليكون آية بينة للعرب والعجم أن محمداً رسول الله ﷺ، فلم يكن رسول الله ﷺ ولا أحد من قومه يعرف هذه الأخبار الدقيقة الصادقة، وهو الأُمِّي في القوم الأُمِّيِّين، فلم يكن محمد ﷺ بجانب الغربي إذ قضى الله إلى موسى الأمر، وما كان من الشاهدين، وما كان بجانب الطور إذ نادى موسى ﷺ ولكنها رحمة من الله للبشير النذير ولمن آمن به إلى يوم القيامة.

وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى في سورة مريم: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَوْسَىٰ إِذْ قَالَ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ (٥١) وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ (٥٢) وَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥١ - ٥٣].

ويقول ﷻ في سورة طه: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ (٩) إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ (١٠) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ بِمُوسَىٰ﴾ (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ (١٣) إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْرَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ (١٥) فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾ (١٦) وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَا مُوسَىٰ﴾ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا

وَأَهْشُ بِهَا عَلَى غَنَجِي وَإِي فِيهَا مَنَارِبُ أُخْرَى ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقَهَا يَمْوَسَى ﴿١٩﴾ فَأَلْقَهَا فَإِذَا هِيَ
 حَيَّةٌ تَسْعَى ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴿٢١﴾ وَأَضْمَمَ يَدَكَ إِلَى
 جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ آيَةٌ أُخْرَى ﴿٢٢﴾ لِئَرْيَاكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ أَذْهَبَ إِلَى
 فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِنْ
 لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَؤُلَاءِ أَخِي ﴿٣٠﴾ أَشَدُّ بِهِ أَزْرِي
 ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسِجَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذُكُّكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾
 قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمْوَسَى ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴿٣٧﴾ [طه: ٩ - ٣٧].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الثامن والأربعون

تابع: موسى ﷺ

نتابع في هذا الفصل ما ذكره الله ﷻ في سورة طه عن قصة مجيء موسى ﷺ إلى الوادي المقدس طوى، ومناجاة الله ﷻ له ومنته عليه حيث يقول: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنْ أَقْرِضْنِي الْقُرْآنَ فَأَقْرِضْنِي فِي الْيَمِّ فَلْيَقْضِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَاخُذْهُ عِدْوٌ لِّي وَعِدُو لَّهُ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ مِّمِّي وَلِنُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْقِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُمْ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَلَلْتَ نَفْسًا فَجَعَلْنَاكَ مِنَ الْغَيْرِ وَفَنَّاكَ فُتُونًا فَلَمَّ بَتَّ سِينِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ (٤٠) وَأَصْطَلَعْتَكَ لِنَفْسِي (٤١) أَذْهَبَ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا نَبِيًّا فِي ذِكْرِي (٤٢) أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقَوْلَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَاتٍ مِّنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَن أَتْبَعَ الْهُدَىٰ (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [طه: ٣٧ - ٤٨].

ويقول ﷻ في سورة الشعراء: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٧) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَنْقُورُونَ (١٨) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (١٩) وَيَضْمِقُوا صَدْرِي وَلَا يُنطَلِقُوا لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ (٢٠) وَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (٢١) قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (٢٢) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢٣) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٠ - ١٧].

ويقول ﷻ في سورة النمل: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنستُ نَارًا سَاتِرَةً مِنِّيهَا يُخْبِرُ أَوْ عَاتِبِكُمْ بِشَهَابٍ مِّنْ سَمَوَاتٍ لِّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحٰنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨) يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) وَأَلْقِ

عَصَاكَ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ فَخَرَجَ بِضَاءٍ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿النمل: ٧ - ١٢﴾.

وقال تعالى في سورة القصص: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمُوسَى أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأُمَمِينَ ﴿٣١﴾ أَسْلَكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ فَخَرَجَ بِضَاءٍ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَدِ انْتَهَيْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَسُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَجَعَلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغٰلِبُونَ ﴿القصص: ٢٩ - ٣٥﴾.

وقال ﴿عَلَّكَ﴾ في سورة النازعات: ﴿هَلْ أُنذِرَكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْأَيْمَنِ تَلَوَّى أَنَّهُبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَزْكَى ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَخَشَى ﴿النازعات: ١٥ - ١٩﴾.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جِئْتَنَا عَلَىٰ قَدَرٍ يَمُوسَىٰ﴾ ﴿طه: ٤٠﴾.

أي إن توجهك من أرض مدين إلى أرض مصر ليناديك ربك ويناجيك بالوادي المقدس كان أمراً مقدوراً قضاه الله ﴿عَلَّكَ﴾، فحركك ووجهك وألهمك لتجيء البقعة المباركة وفق ما قضاه الله ﴿عَلَّكَ﴾ في الأزل وقدره قبل خلق السموات والأرض، فكل شيء عنده بمقدار، وهو ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرِ الْمَعَالِ﴾ ﴿الرعد: ٩﴾. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿النمل: ١١﴾ الاستثناء فيه منقطع بمعنى لكن، والجملة اعتراضية لبيان فضل الله

تعالى على خلقه، وأنه يعفو عن السيئات ويغفر ﴿لَمَنْ تَابَ وَعَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ أَهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢]، فلا يحل لأحد أن ييأس من رحمة الله، ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وفي قوله تعالى: ﴿وَنَدَبْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢]. وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمُوسَى﴾ [طه: ١١]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى﴾ [الشعراء: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [٨] ﴿يَمُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النمل: ٨ - ٩] وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَلْطِي الْأَوْدِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمُوسَى إِنَّتَ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠] وقوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْأَرْسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

في هذه الآيات المباركات دليل قطعي على إثبات صفة الكلام لله ﷻ، وأنه يتكلم متى شاء وأنى شاء، وأن الله ﷻ جعل موسى ﷺ كليمه كما جعل إبراهيم ومحمداً ﷺ خليلين، وقوله تعالى: ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ [القصص: ٣٠] أي إن النداء كان في البقعة المباركة من عند الشجرة كما تقول: سمعت كلام زيد من البيت. فقولك: من البيت ابتداءً الغاية، لا أن البيت هو المتكلم، فذلك ليست الشجرة هي المتكلمة بل سمع موسى كلام الله من عند الشجرة، إذ ليست الشجرة هي القائلة: ﴿يَمُوسَى إِنَّتَ أَنَا اللَّهُ﴾ [القصص: ٣٠]، بل قائل ذلك هو رب العالمين.

وقوله ﴿إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ [طه: ٤٥]، معنى ﴿يَفْرِطُ عَلَيْنَا﴾ أي أن يعجل بعقوبتنا قبل سماع قولنا. وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ﴾ [القصص: ٢٩] أي أتمه وأداه ووفاه، فإن «قضى» قد تستعمل بمعنى أدى ووفى ومنه قول الشاعر:

قضى كل ذي دين فوفى غريمه وعزة ممطول مُعنى غريمها

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمَا جَأْنٌ﴾ [القصص: ٣١] أي صارت العصا شبيهة بالجان، وهو حية بيضاء أكحل العين سريعة الحركة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ [القصص: ٣٢] أي وَضَع يَدَكَ عَلَى صَدْرِكَ لِيَزُولَ مَا بَكَ مِنَ الرَّعْبِ وَالْفَزَعِ وَالْخَوْفِ الَّذِي أَصَابَكَ.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل التاسع والأربعون

تابع: موسى ﷺ

أرشد الله تبارك وتعالى موسى ﷺ أن يبرز إلى فرعون آية العصا وآية اليد. ولما وصل موسى ﷺ إلى مصر وانضم إليه أخوه هارون بن عمران ﷺ توجهوا إلى فرعون، وطلبوا منه أن يُخْلِصَ العبادة لله وحده، وأخبراه أنهما رسولا رب العالمين، وقال له موسى ﷺ: ﴿هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَرَكَّ ۗ﴾ (١٨) وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَنَخْسِي ﴿[النازعات: ١٨ - ١٩] وتسعد في الدنيا والآخرة؟ ﴿لَا أَقُولُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴿[الأعراف: ١٠٥]، و﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ ﴿[طه: ٤٧] ومعجزة ظاهرة قاهرة. فآمن بالله، وأرسل معنًا بنبي إسرائيل، قال فرعون: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿[الشعراء: ١٨] عديدة. ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتَك الْتِي فَعَلْتَ ﴿[الشعراء: ١٩]، وأنت جاحد للنعمة التي أسديناها إليك. قال موسى ﷺ: لقد فعلتها وأنا غير قاصد، فلم أرد قتل القبطي عندما وكزته، ولعلمي أنكم لن تحكموا في هذه القضية بالحق فررت منكم لأنني خفتكم ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿[الشعراء: ٢١]. ولقد أوحى إلينا يا فرعون أن العذاب على من كذب بآيات الله وأعرض عن دين الله وكذب المرسلين، ولا تتكبروا على الله رب العالمين. ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿[الشعراء: ٢٣]، قال موسى ﷺ: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴿[الشعراء: ٢٤]، إن كان هناك شيء يُوقن به فهو رب السموات والأرض لظهور برهانه وبلوغ حجته، وهو الذي خلق كل شيء، وأعطى كل شيء من خلقه ما يتميز به عن غيره، ثم هداه بما فطره فيه من الجبل إلى مطعمه ومشربه وبقاء نسله وغير ذلك، فالدواب والطيور والأسماك تعرف مساربها، وقد أودعها الله ﷻ من آياته وآلائه ما لا يحيط به إلا الله ﷻ، ففي العالم آيات ساطعات وبراهين قاطعات تشهد أنها من صنع رب العالمين، وقد أقام في كل شيء من الكون آية على حد قول الشاعر:

فيا عجباً كيف يعصى إلهه أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

ولو بذلنا ما في الأرض من محابر لنشرح آيات الله في الإنسان والسموات والأرض وما بينهما وجميع ما وصلت إليه المدارك الإنسانية لعجزنا عن الوفاء بذلك؛ ولذلك اكتفى موسى ﷺ بقوله لفرعون: ﴿قَالَ رَبِّنا الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى﴾ [طه: ٥٠]. قال فرعون لمن حوله وقد انبهر: ألا تستمعون إلى ما يقول موسى في دعواه وجود إله غيري؟ قال موسى ﷺ: الذي أرسلني وهو الذي خلق السموات والأرض هو ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦]، قال فرعون لمن معه من ملئيه مستهزئاً منقطعاً: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُم لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧]، فأجابه موسى ﷺ بأن الله الذي أرسلني هو ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨] فسارعوا إلى الإيمان به قبل أن ينزل بكم عقوبته، فاشتد انقطاع فرعون عن المحاجة ولجأ إلى التهديد بالسجن لموسى ﷺ فقال: ﴿لَئِن أُتِّخِذتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]، فلم يزد موسى ﷺ أمام هذا التهديد إلا نصحاً فقال: أتسجنني ولو جئتك بآية واضحة وحُجة قاهرة على أني رسول الله رب العالمين، فازداد فرعون سفهاً وعلواً وقال لوزير هامان: ﴿فَأَوْفِدْ لِي يَهْمَنُنَّ عَلَى الْطَّيْرِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً﴾ [القصص: ٣٨] لأصعد عليه لعلني أنظر إلى إله موسى وأكلمه إن كان صادقاً أن في السماء إلهاً، وأراد بذلك أن يموه على قومه وأن يستخفهم حتى لا تتسرب إلى قلوبهم أنوار الحق الذي جاء به موسى ﷺ، وقال له موسى ﷺ: أتستمر يا فرعون على تكذيبك وإن جئتك بشيء مُبين؟ [الشعراء: ٣٠]. قال فرعون: ﴿فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ٣١] فألقى موسى عصاه فإذا هي حية تجري على بطنها وتهتز مسرعة كأنها جانٌّ، وصارت تتضحَّم وتكبر فكاد قلب فرعون ينخلع، ثم أدخل موسى يده في جيبه ثم أخرجها فإذا هي بيضاء من غير برص ولا سوء، فقال فرعون وقومه: ﴿قَالُوا إِنَّ هَٰذِهِ لَسِحْرانِ يُرِيدانِ أَنْ يُخْرِجاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِما وَيَذهبا بِطِرِيقَتِكُمُ الْمُثْنانِ﴾ [طه: ٦٣]، وهذا السحر يدل على أنه سحر ساحر عليم.

وطلب ملاً فرعون من فرعون أن يبعث في المدائن رسلاً يجمعون السحرة من سائر أنحاء بلاد مصر؛ ليجيئوا ويجتمعوا عند فرعون لمغالبة موسى ﷺ، وقال فرعون وملؤه لموسى ﷺ: ﴿أَجْتَنَّا لِنُخْرِجَنَّا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمْوَسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ سِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ ﴿٥٨﴾﴾ [طه: ٥٧ - ٥٨] في مكان متفق عليه بيننا وبينك، قال موسى ﷺ: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ ﴿٥٩﴾﴾ [طه: ٥٩]، وهو يوم عيدهم الذي يتزينون ويجتمعون فيه، وأن يكون الاجتماع بيننا وبينكم وقت الضحى.

وفي مجيء موسى ﷺ وأخيه هارون ﷺ إلى فرعون وتبليغهما له رسالة الله وما كان من فرعون وملئه مع موسى ﷺ يتحدث القرآن العظيم في مواضع شتى فيقول الله ﷻ في سورة الأعراف وهو أصدق القائلين، وما يقصه هو أحسن القصص:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١١٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَىٰ اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١١٥﴾ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١١٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿١١٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿١١٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١٢١﴾ يَا تَوَكُّلْ بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف: ١٠٣ - ١١٢].

ويقول ﷻ في سورة يونس: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَكُنَّا لَكُمْ الْكَافِرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَقْتَفُونَ أَتَقْتَفِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ [يونس: ٧٥ - ٧٩].

وقال تعالى في سورة هود: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾﴾ [هود: ٩٦ - ٩٧].

وقال تعالى في سورة طه عن موسى وهارون أنهما قالا لفرعون لما جاء إليه: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عَلِمْنَا مِنْ رَبِّكَ مَا لَا يَعْضِلُ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ﴾ [طه: ٤٧ - ٥٤].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الخمسون

تابع: موسى ﷺ

نتابع في هذا الفصل إيراد ما ذكره الله ﷻ في سورة طه عما دار بين موسى وفرعون عند قيام موسى بدعوة فرعون إلى الله حيث يقول ﷻ في سياق ما استدلل به موسى ﷺ على أن الله وحده هو رب كل شيء وسيدته ومليكه، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه: ﴿مِنهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ۗ وَلَقَدْ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ۗ (٥٦) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ۖ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ ۚ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلَفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى (٥٧) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ۗ﴾ [طه: ٥٥ - ٥٩].

وقال ﷻ في سورة الشعراء: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَعِينُونَ (٢٥) قَالَ رَبِّكُمْ رَبُّ رَبِّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ أَلَدَىٰ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونًا (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَئِن أَخَذتَّ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ (٢٩) قَالَ أَوْلَوْ جِئْتِكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَتَّبِعْ فِي الدُّنْيَا حَشِيرَةَ عَصْرَةَ (٣٦) يَا تُورَاقُ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨ - ٣٧].

ويقول تعالى في سورة النمل: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٣) وَحَدِّثُوا بِهَا وَأَسْتَفِئْتَهَا أَنْفُسَهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٣ - ١٤].

ويقول ﷻ في سورة القصص: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرَى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُمْ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي الْفِطْرَةَ عَلَى الطَّيْنِ فَأَجْعَلَ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَأَسْتَكَبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِعَكْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [القصص: ٣٦ - ٣٩].

وقال تعالى في سورة غافر: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَفِرْعَوْنَ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾ [غافر: ٢٣ - ٢٧].

وعندما أظهر موسى هذا الالتجاء العظيم إلى الله وحده، سخر الله ﷻ له رجلاً مؤمناً من آل فرعون يكتنم إيمانه، فبدأ في الدفاع عن موسى ﷺ، وأخذ ينصح فرعون وملاه بضرورة المسارعة إلى طاعة موسى ﷺ والدخول في دينه قبل أن يسلط الله على المكذبين عقوبته التي ينزلها بالمكذبين، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ ﴿٢٨﴾ يَقْوَمُ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَبْصُرْنَا مِنْ بَاسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقْوَمُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَقْوَمُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُنَادُونَ مُدْرِبِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِيٍّ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْبَيِّنَاتِ فَآرَزَلْتُمْ فِي شَكِّ سَمَاءِ جَاءَكُمْ بِهِ حَقٌّ إِذَا هَلَكَ قَلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا

كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿٢٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ
سُلْطَانٍ أَتْلَهُمْ كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ
مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُ ابْنُ لِي صِرَاحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٢٦﴾ أَسْبَابَ
السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ
وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَنْقُورُ
أَتَعْبُورُونَ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿غافر: ٢٨ - ٣٨﴾.

وعندما وصل فرعون إلى هذه الدرجة من البغي والطغيان صرح الرجل وأعلن
إيمانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَنْقُورُ أَتَعْبُورُونَ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٨﴾ يَنْقُورُ إِنَّمَا هَذِهِ
الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعُ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْفِكْرِ ﴿٢٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا
وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنفَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا
بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤١﴾ وَيَنْقُورُ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي
لِأَكْفُرُ بِاللَّهِ وَأُشْرِكُ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْفَعْلَرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا
تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَّرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ
أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفُوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ
﴿٤٤﴾ فَوْقَهُ اللَّهُ سَعِيَاتِ مَا مَكْرُوا وَحَاقَ بِقَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿غافر: ٣٨ - ٤٥﴾.

وقال تعالى في سورة الزخرف: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾

[الزخرف: ٤٧].

وقال تعالى في سورة الدخان: ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾
وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي ءَاتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عِدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٥﴾ وَإِنْ
لَّمْ نُؤْمِنُوا لِي فَأَعْلَزِينَا ﴿الدخان: ١٨ - ٢١﴾

وقال تعالى في سورة الذاريات: ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٨﴾
فَتَوَلَّى بِرُكْبِهِ وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿الذاريات: ٣٨ - ٣٩﴾.

وقال تعالى في سورة النازعات: ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٦٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٦١﴾ ثُمَّ
أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٦٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٦٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿النازعات: ٢٠ - ٢٤﴾.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الفصل الحادي والخمسون

تابع: موسى ﷺ

جمع فرعون مهرة السحرة من جميع مدائن مصر، وقد كان السحر يومها هو أهم أهداف التعليم في بلادهم، وقد كانوا بَلَّغُوا فيه مبلغاً لم يصله أحد من قبلهم، ولم يُعرف أنه وصل إليه أحد من بعدهم، وقد جرت السُّنَّةُ الإلهية في أن يبعث الله كل نبي بمعجزة تفوق أعلى درجات العلم الذي برع فيه قومه؛ ليكون أظهر للحق، ويعرفوا أنه من عند الله، وأنه لا يقدر على مثله البشر؛ ولذلك أرسل محمداً ﷺ بالقرآن، وجعله معجزته الكبرى؛ لأن قوم محمد ﷺ قد برعوا في الفصاحة والبيان والبلاغة حتى أقاموا للخطباء والشعراء منابر في أسواق عكاظ ومجنة وذبي المجاز.

وكما أرسل عيسى ﷺ بإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله؛ لأن قومه قد بلغوا في الطب شأواً لم يسبقوا إليه، وقد وصف الله تبارك وتعالى ما كان من موسى والسحرة ومن فرعون وملئه، وكيف سارع السحرة إلى الإيمان بموسى ﷺ عندما ألقوا حبالهم وعصيهم، وخُيِّلَ إلى موسى ﷺ أنها تسعى، وأنه أوجس وأحس في نفسه بالخوف. فطمأنه الله ﷻ وأمره أن يلقي عصاه، فانقلبت حية هائلة وابتلعت جميع ما صنعوا، فأيقن السحرة أن هذا لا يقدر عليه إلا الذي خلق القُوى والقُدْر، فخرروا لله ساجدين معلنين إيمانهم بالله ورسله، صابرين على كل بلاء يصيبهم في مرضاة الله ﷻ، وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى في سورة الأعراف:

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ وَرَعَوَتْ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُفْرَبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا يَكُومُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْفَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَا

إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاحِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاحِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمِنْتُ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَادَنَ لَكَ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِخُرُوجِهَا مِنهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ نَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأُسَبِّحَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا نُنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَأَمَّنَا بِتَأْيِيبِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَوَقْنَا مُسْلِمِينَ ﴿الأعراف: ١١٣ - ١٢٦﴾.

وقال تعالى في سورة يونس: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةَ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَتَقْرَأُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْفَوْا قَالِ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٨٠ - ٨٢].

ويقول تعالى في سورة طه: ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿٦١﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى ﴿٦٢﴾ فَتَنَزَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى ﴿٦٣﴾ قَالُوا إِنَّ هَٰذِهِ لَسِحْرَانِ بُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى ﴿٦٤﴾ فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتَوُا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى ﴿٦٥﴾ قَالُوا يَمْوَسَّىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْفَوْا فَإِذَا جَاهَلْتُمْ وَعَصِيْتُهُمْ بِخَيْلٍ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنهَا سَعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ ﴿٦٧﴾ فَلَمَّا لَا تَخَفُ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقَىٰ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفُ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَجْدًا قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَأَمِنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَادَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكِبْرِكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأُسَبِّحَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلِنَعْلَمَنَّ إِنَّمَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَلْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا لَنْ نُؤْتِيَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا ءَأَمْنَا رَبَّنَا لِغَفْرٍ لَنَا خَطِيئَتِنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿طه: ٦٠ - ٧٣﴾.

وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿فَجُمِعَ السَّحْرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَمَلْنَا نَبْعَ السَّحْرَةِ إِنْ كَانُوا هُمُ الْفَاعِلِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَيْنَ لَنَا لِأَجْرٍ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْفَاعِلِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقْرَبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَفَلَا تَأْتُونَ قَوْلِي إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوا قَوْلِي جَاهِلْتُمْ وَعَصَيْتُهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ

الْعَلْبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجِيدِينَ ﴿٤٦﴾
 قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَأَمْسُرُ لَمْ قَبَل أَنْ ءَأَذَنْ لَكُمْ إِيَّامًا
 لَكِبْرِكُمْ الَّتِي عَلَّمَكُمْ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ نَعْتَمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَنْجُلُكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَأَصْلَبَنَّاكُمْ
 أجمعين ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا صَبْرَ لَنَا إِلَّا إِنْ رَيْنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَنْطَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَاتِنَا أَنْ
 كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿الشعراء: ٣٨ - ٥١﴾.

وفي قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالُوا يَمْوَسَّىٰ ءِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَءِمَّا أَنْ
 تَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف: ١١٥]، وقوله تعالى في سورة طه: ﴿قَالُوا يَمْوَسَّىٰ ءِمَّا
 أَنْ تُلْقَىٰ وَءِمَّا أَنْ تَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ [طه: ٦٥]، إشعار بأن الله إذا أراد إظهار حجته
 هيأ أسباب هذا الإظهار، ووفق موسى ﷺ إلى أن يطلب منهم أن يكونوا هم
 البادئين بالإلقاء، حتى إذا جاؤوا بهذا السحر العظيم الذي خوّف الناس حتى
 موسى ﷺ، ثم ألقى موسى عصاه وهي واحدة فانقلبت حية هائلة تبتلع وتلقف
 جميع حبالهم وعصيهم التي انقلبت حياتٍ تجري هنا وهناك، ليكون ذلك أتم في
 باب إظهار هذه المعجزة القاضية على إفكهم وسحرهم وباطلهم.

وفي قوله تعالى: ﴿فَعُلبُوا هُنَالِكَ وَأَنْقَلَبُوا صَغِيرِينَ﴾ [الأعراف: ١١٩]. إشعار بما
 لحق فرعون وقومه من المهانة والذلة والصغار عند ظهور هذه المعجزة.

وفي قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجِيدِينَ﴾ [الشعراء: ٤٦] إشعار بأن هؤلاء
 السحرة قد سارعت إلى قلوبهم أنوار الحق فلم يترددوا في الانقياد لله والإذعان
 لدينه والإيمان برسله، وقد خالطت بشاشة الحق شغاف قلوبهم؛ لأنهم أعرف
 القوم بأن ما جاء به موسى ليس سحراً.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمْسُرُ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَأَذَنْ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ١٢٣]
 إشعار بأن فرعون أيقن أن ما جاء به موسى هو الحق من عند الله، غير أن شقوته
 جعلته يحاول الإبقاء على بعض سلطانه حتى في إيمان من يشرح الله صدره
 للإسلام.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنهَا أَهْلَهَا﴾
 [الأعراف: ١٢٣] وفي قوله: ﴿إِنَّهُ لَكَيْدِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [طه: ٧١] إشعار

بتخبط فرعون في إصااق التهم بهؤلاء المؤمنين لتضليل قومه ومحاولة صرفهم عن هذا الحق الأبلج، وما كيد فرعون إلا في ضلال.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الثاني والخمسون

تابع: موسى ﷺ

أشرت في ختام الفصل السابق إلى أن فرعون عندما رأى عصا موسى انقلبت حية وابتعلت ما قدمه السحرة من السحر العظيم، وآمن السحرة برب العالمين رب موسى وهارون ولم تؤثر فيهم تهديدات فرعون بقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وصلبهم في جذوع النخل، وثباتهم على الحق وسؤالهم الله ﷻ أن يفرغ عليهم صبراً ليتحملوا كل ألوان العذاب من فرعون في سبيل إيمانهم بالله، أيقن فرعون أن ما جاء به موسى ﷺ حق لا مرية فيه، واستيقن هو وملؤه أن موسى رسول الله ﷻ، وقد أثر ذلك في نفس فرعون خوفاً من أن يصيب موسى بأذى، واكتفى بتهديد موسى ووعيده، ويظهر ذلك جلياً في قوله: ﴿ذُرُوفٍ أَقْتُلُ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]. فهل كان مربوطاً بحبل لا يتمكن بسببه من قتل موسى، لكنه التهديد الأجوف الدال على أنه يحس أن موسى رسول الله، غير أنه وقومه أصروا على تشديد العذاب على بني إسرائيل، وازدادوا في تقتيل أبنائهم واستحياء نسائهم، وصان الله موسى ﷺ من أن تناله يد فرعون، كما صان محمداً ﷺ من أبي جهل ومن معه من أن تنال أيديهم رسول الله محمداً ﷺ، وقد أوحى الله ﷻ إلى موسى وهارون أن يتبوأ لقومهما بمصر بيوتاً، وأن يجعلوا بيوتهم قبلة، وأن يقيموا الصلاة، وأن يستمر موسى ﷺ في بشارة المؤمنين بنصر الله وتأييده، ولما أخذ فرعون يعلن عن تشديد العذاب المهين على بني إسرائيل وأنه لا بد من قهرهم، ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وقال قوم موسى له: أوذينا من قبل مجيئك بالرسالة ومن بعد مجيئك بها، قال لهم:

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عُدَّتُكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظَرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾
[الأعراف: ١٢٩].

ولقد بدأت بشائر نصر الله لموسى ومن معه من المؤمنين فسَلَطَ الله على آل فرعون الجذب والقحط ونقص الثمرات لعلمهم يُفَيِّقُونَ من غيهم وضلالهم، لكنهم بدل ذلك صاروا يزعمون أن هذا الذي أصابهم هو بسبب مجيء موسى لهم وأطَّيروا به وبمن معه، وأجابهم موسى ﷺ بأن سبب بلائهم هو كفرهم وتكذيبهم رسل الله، وزعموا مرة أخرى أن هذا الجذب والقحط من سحر موسى، وأنهم لن يؤمنوا به أبداً، فسَلَطَ الله عليهم الطوفان، فغرقت مزارعهم وهلكت ثمارهم، ولما انتهى الطوفان وبدأت الأرض توتِّي ثمارها سلَّطَ عليهم الجراد، فأباد زروعهم وثمارهم، ثم سلَّطَ عليهم القُمَّل وهو صغار الذر، والدَّبَّاب الذي لا أجنحة له، أو شيء صغير بجناح أحمر، وشيء يشبه الحلم خبيث الرائحة، فصار هذا القُمَّلُ يخالطهم في جميع أحوالهم لا يلمسون شيئاً إلا وجدوه فيه، ثم سلط الله عليهم الضفادع، فملأت بيوتهم وطعامهم وشرابهم، ثم سلط الله عليهم الدم، فصاروا لا يتناولون شيئاً إلا وجدوه مغطى بالدم، وقد امتزجت به مياههم ومطاعمهم.

وقد كان من آيات الله ﷻ أن صان بني إسرائيل من كل هذه العقوبات، ولما اشتد هذا البلاء بفرعون وملئه ﴿قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرَّجْزَ لَتُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الأعراف: ١٣٤]، لكنهم كانوا كلما كشف الله عنهم الضرَّ إذا هم ينكثون، ومع يقينهم بأن هذه آيات مفصلات من الله ﷻ جحدوا بها وضحكوا منها.

وقال فرعون لموسى: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١]، فقال له موسى: لقد علمت أن هذه الآيات التسع وهي العصا واليد وما جاء بعدهما من السنين ونقص الثمرات والطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم كلها من الله ﷻ لعلكم تهتدون ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢] أي هالكا بسبب كفرك وضلالك، ودعا موسى ﷺ على فرعون وقومه فقال: ﴿رَبِّانَا

إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ ﴿٨٨﴾ [يونس: ٨٨] فبدل أن يشكروك عليها استعملوها في الصد عن سبيلك ﴿رَبَّنَا أَطْمَسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾ أي أهلكها ﴿وَأَشَدَّدَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي اطبع عليها ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]، وقد بلغ موسى ﷺ هذا الحال في الوقت الذي رأى فرعون أنه لا بد من إعلان الحرب على موسى، وأرسل فرعون في المدائن حاشرين، يجمعون العُدَّة والسلاح والرجال للقضاء على موسى وهارون ومن معهما من بني إسرائيل من المؤمنين باذلاً كل ألوان الإغراء بهم.

وقد أوحى الله ﷻ إلى موسى أن يخرج من مصر ليلاً ببني إسرائيل مسرعين إلى سيناء، وأعلمه أن فرعون وجنوده سيتبعونهم، فسارع موسى ﷺ إلى امتثال أمر ربه، فسرى ببني إسرائيل، ولما اجتمع جند فرعون سارعوا إلى اللحاق بموسى ﷺ يقودهم فرعون عليه لعنة الله، فأتبعوهم مشرقين، أي وقت شروق الشمس، وقد كان موسى ﷺ ومن معه وصلوا إلى مكان عسير، فالبحر أمامهم والعدو خلفهم والجبال عن يمينهم وشمالهم، فلما تراءى الجمعان جمع موسى وجمع فرعون قال أصحاب موسى: إنا لمدركون، أي سيكون هلاكنا على يد فرعون وجنده هنا؛ لأنه لا مفر لنا. فأجابهم موسى ﷺ وقال لهم: كلا لن يدركونا، ولن يصلوا إلينا؛ لأن الله وعدني بذلك، وأراد موسى ﷺ بذلك وعد الله له حيث أجابه عندما قال موسى: ﴿رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرَطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْفِئَ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٥ - ٤٦]، ولذلك لما قال له أصحابه: ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١] أجابهم بقوله: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢].

فأوحى الله ﷻ إلى موسى ﷺ أن اضرب بعصاك البحر، فضرب موسى البحر بعصاه فانفلق، فكان كل فرق كالطود العظيم، أي كالجبل العظيم، فجعل الله لهم بذلك طريقاً في البحر يبساً لا يخاف دركاً ولا يخشى، وصار موسى ومن معه يمشون على أرض صلبة يابسة. على كل جانب من جوانب طريقهم جدار من الماء كأنه صخر منحوت، وعندما خرج موسى ومن معه من

البحر أمره الله ﷻ أن يترك البحر ساكناً حتى يدخل فيه فرعون وجنوده، فلما صار فرعون وجنوده في اليم غشيهم، من اليم ما غشيهم وأضل فرعون قومه وما هدى، ولما أدركه الغرق قال: آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين، فلم ينفعه هذا الإيمان، ولم يخلصه من عذاب الله، ورمى البحر بجثته ليراها من بقي من قومه؛ ليعرفوا قدرة الله عليه، وكان ذلك في يوم عاشوراء.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الثالث والخمسون

تابع: موسى ﷺ

ذكرت في ختام الفصل السابق أن غرق فرعون ونجاة موسى ﷺ كان في يوم عاشوراء، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قدِم المدينة، فوجد اليهود صياماً يوم عاشوراء، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما هذا اليوم الذي تصومونه؟» فقالوا: هذا يوم عظيم أنجى الله فيه موسى وقومه، وغرَّق فرعون وقومه، فصامه موسى شكراً، فنحن نصومه، فقال رسول الله ﷺ: «فنحن أحق وأولى بموسى منكم» فصامه رسول الله ﷺ وأمر بصيامه.

وقد ذكر الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم موقف فرعون وملائته من موسى ﷺ وقومه بعد إيمان السحرة في مواضع من كتابه الكريم، حيث يقول في سورة الأعراف:

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُؤُا مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرْكُمُوعَالِ الْهَيْكَلِ قَالَ سَتَقْبَلُونَ أَتْنَاهُمْ نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٧٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٧٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقِصَ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٨٠﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا تَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٨٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفْضَلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١٨٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَىٰ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٢٥﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجَزَ إِلَىٰ أَجَلٍ لَهُمْ بَلِّغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿١٢٥﴾ فَانقَمْنَا مِنْهُمُ فَأَعْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٢٦﴾ وَأَوْزَيْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرَفَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَدَرْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٢٧﴾ [الأعراف: ١٢٧ - ١٣٧].

وقال تعالى في سورة يونس: ﴿فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامِنُ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَخَيَّرْنَا بِرَحْمَتِكَ مِّنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَنِ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَنَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ وَجَوْرْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْفُقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتَ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَأَلْكَنَّ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِيَدِنَا لِنَكُونَ لِمَن خَلَقَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَن ءَايَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾ [يونس: ٨٣ - ٩٢].

وقال في سورة هود: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَسَّ الْوَرْدُ الْمُرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَسَّ الْوَرْدُ الْمُرُودُ ﴿٩٩﴾ [هود: ٩٦ - ٩٩].

وقال تعالى في سورة طه: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَن أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَصْلَ فِرْعَوْنُ قَوْمُهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٧﴾ [طه: ٧٧ - ٧٩].

وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَن أَسْرِ بِعِبَادِي لِنُكْرِمَهُمُ

مُتَّبِعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُورُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزَلْنَا تَمَّ الْأَخْرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَجْبَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْأَخْرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿الشعراء: ٥٢ - ٦٨﴾.

وقال تعالى في سورة القصص: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرٍ فَأَوْقِدْ لِي يَهْدِنُنِّي عَلَى الطَّيْنِ فَأَجْعَلَ لِي صَرْحًا لَمَكِّي أَطْلِعْ إِلَيَّ إِلَهَ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَأَسْتَكَبرَ هُوَ وَحُوذُوهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَحُوذُوهُ فَنَسَدْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَمَا نَظَرُ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَدَاهِ أَلَدُنَا لَعْنَةُ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: ٣٨ - ٤٢].

وكما قال ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسَلَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَابِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَنْفِرْعَوْتُ مَسْجُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَنْ يَنْسِفَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ [الإسراء: ١٠١ - ١٠٣].

وقال تعالى في سورة الزخرف: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَصْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا تُرِيدُهُمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهُ السَّاحِرُ الْاُدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَاهَدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَكْتُمُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِبِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ

فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَتْسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا أَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ
فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ ﴿٥٥﴾ [الزخرف: ٤٦ - ٥٦].

وكما قال تعالى في سورة القمر: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ ﴿٤١﴾ كَذِبُوا بِآيَاتِنَا
كُلَّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ [القمر: ٤١ - ٤٢] إلى غير هذا من الآيات.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الرابع والخمسون

تابع: موسى ﷺ

بعد أن نَجَّى اللهُ تبارك وتعالى موسى وهارون وقومهما من الكرب العظيم، وأغرق فرعون ومن معه من المكذبين، وجاوز الله ببني إسرائيل البحر انتهت متاعب موسى من فرعون وقومه، وبدأت متاعب موسى وهارون من بني إسرائيل، إذ إنهم بعد أن رأوا آية الله الكبرى في فلق البحر لهم وإغراق فرعون وجنوده وتمت كلمة الله الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا، لكنهم ما إن رأوا بعد أن جاوزوا البحر قوماً يعبدون أصناماً لهم قد عكفوا عليها حتى قال بعضهم لموسى ﷺ: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، فأجابهم موسى ﷺ بأن هذا الطلب جهالة منكم، كيف نسيتم نعمة الله في إنجائكم من عدوكم وإغراقه، وأنتم حُدثاء عهد بها، إنكم لو كنتم تعلمون لآزدتتم إيماناً بالله وحده وكفرتهم بجميع ما سواه من الأصنام والأوثان والأنداد ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُم فِيهِ وَظِلٌّ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٩] أي هالك فاسد ومضمحل زائل لا يعود على أهله إلا بالشر ولا يجلبون منه خيراً، فكل عبادة لغير الله باطلة، ولا تصح العبادة إلا لله وحده، والله أغنى الشركاء عن الشرك، فمن أشرك معه غيره رده وشركه وأحبط عمله، ﴿قَالَ أَعْبَدُوا اللَّهَ أَتَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأعراف: ١٤٠]، أي أطلب لكم شيئاً تعبدونه غير الله، وهذا الاستفهام للإنكار والتعجب والتوبيخ، ثم بين لهم موسى ﷺ أن الله فضلهم على عالمي زمانهم، إذ بعث إليهم رسوله وكليمه ﷺ فآمنوا به، فلا يليق ببعضهم أن يطلب معبوداً غير الله ﷻ ليشابهه المشركين عبدة الأصنام، ولم يكن كل بني إسرائيل قد طلب إليها آخر، وإنما هو طلب بعض جهلتهم، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مَوْسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ

قَوْمٌ يَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعٌ مَا هُمْ فِيهِ وَيَنْظِلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْنِيَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْغَالِبِينَ ﴿١٤٠﴾ [الأعراف: ١٣٨ - ١٤٠].

وقد ذكر كثير من المفسرين وعلماء السيرة النبوية خبراً من طريق معمر عن الزهري عن سنان بن أبي سنان الديلي، عن أبي واقد الليثي، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ قَبْلَ حنين فمررنا بسدرة فقلت: يا نبي الله! اجعل لنا ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط، وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفون عليها، فقال النبي ﷺ: «الله أكبر! هذا كما قال بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، وإنكم تركبون سنن من كان قبلكم»، قال ابن كثير في تفسيره: أورده ابن جرير ورواه ابن أبي حاتم من حديث كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني عن أبيه عن جده مرفوعاً. ١.٥هـ.

قلت: قال الحافظ ابن حجر في التقريب: كثير بن عبد الله بن عمرو المزني المدني ضعيف من السابعة، منهم من نسبه إلى الكذب. ١.٥هـ. فإن صح هذا الخبر حُمِلَ على أنه قول واحد من حدثاء العهد بالجاهلية كما جاء مصرحاً به في رواية عن أبي واقد الليثي، قالوا: وقد كان لكفار قريش ومن سواهم من العرب شجرة عظيمة خضراء يقال لها: ذات أنواط يأتونها كل سنة فيعلقون عليها أسلحتهم ويذبحون عندها ويعكفون عليها يوماً.

قال أبو بكر الطرطوشي المالكي: فانظروا - رحمكم الله - أينما وجدتم سدرة أو شجرة يقصدها الناس ويعظمونها ويرجون البرء والشفاء من قبلها ويضربون بها المسامير والخرق فاقطعوها.

هذا وقد كان موسى ﷺ عندما بعثه الله إلى فرعون إنما بعثه بأصول الدين من التوحيد وإقامة الصلاة لذكر الله ووجوب الإيمان بالبعث بعد الموت، ولم يكن قد أنزل عليه التوراة، فلما انتهت مهمة موسى ﷺ الخاصة بفرعون وملئه وأغرق الله فرعون وجنده، وخلص موسى إلى سيناء وصار مختصاً ببني إسرائيل وهم في حاجة ماسة إلى نظام يشمل حوائجهم في معاشهم ومعادهم، هياً الله ﷻ موسى ﷺ ليُلقي عليه التوراة المشتملة على الأحكام التي تسلك بأهلها صراط الله المستقيم، وحالة موسى ﷺ هذه تشبه حالة رسول الله ﷺ في حياته النبوية قبل

الهجرة وبعدها، فإن القرآن المكي كان ينزل لتقرير التوحيد والرسالة والإيمان بالبعث بعد الموت، أما القرآن المدني فإنه زيادة على ذلك جاء بتقرير نظام الدولة الإسلامية والمجتمع السعيد وما يحتاجه كل فرد لصالح معاشه ومعاذه.

ولذلك ساق القرآن العظيم ما أوصى الله به موسى ﷺ عندما بعثه بالتوحيد والصلاة والإيمان بالبعث بعد الموت، حيث يقول ﷻ: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْوَسِي ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاقْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْأَمْرِئِ طُوى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿١٣﴾ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسَعَى ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴿طه: ١١ - ١٦﴾، وقال ﷻ: ﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَانْحَثِي ﴿النازعات: ١٧ - ١٩﴾.

ولمَّا أغرق الله فرعون ونجَّى بني إسرائيل صار لموسى ﷺ دولة، فهو في حاجة إلى النظام الشامل والنور الذي يسلكه ليهتدي به هو والمؤمنون إلى الصراط المستقيم، وقد وعده الله تعالى أربعين ليلة يتهاياً فيها لتلقي الشريعة، وقد سأله بعض قومه من المتعنتين المتنطعين أن يُريهم الله جهرَةً، وأن يسأل ربه ذلك، وعندما جاء الميقات قال موسى لأخيه هارون: أنت خليفتي على بني إسرائيل فأصلح أمورهم، ولتكن سياستك لهم سياسةً رشيدة واحذر دُعاة الضلالة المفسدين في الأرض، وما إن انطلق موسى ﷺ لتلقي الشريعة عند الطور حتى أضل السامريُّ بني إسرائيل، فصنع لهم عجلاً من الذهب له خُوار؛ أي صوت يُسمع وصلصلة شبيهة بصوت الثور، وقال لهم: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى ﴿طه: ٨٨﴾ فعبده جلة من بني إسرائيل، وحاول هارون ﷺ صرفهم عن عبادة العجل، وكان اللين يغلب عليه ﷺ وَخَشِيَ إِذَا شَدَّدَ عَلَيْهِمْ أَن يَتَفَرَّقُوا، وقد بارزه عبَادُ العجلِ العداوة، وكادوا يقتلونه عندما كان يُحذرهم من عبادة العجل، ولم يكن مأذوناً له في قتالهم، فانتظر مجيء موسى ﷺ بالشريعة من عند الله.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الفصل الخامس والخمسون

تابع: موسى ﷺ

عندما جاء موسى لميقات ربه وقد اختار من قومه سبعين رجلاً لهذا الميقات، فلما انتهوا إلى الجبل ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] قال موسى: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِيكَ وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ [الأعراف: ١٤٣] فإن كان هذا الطور لا يَنْهَدُ إذا تجلَّى الله له فإنك تقدر على رؤيتي، وأراد الله ﷻ أن يضرب لموسى وغيره مثلاً على أن الله ﷻ قد احتجب بالنور عن خلقه؛ لأنهم لم يُهَيِّتُوا في هذه الحياة الدنيا لرؤية الله، وإنما يرونه إذا ماتوا على الإيمان في الدار الآخرة، فإن المؤمنين لن يروا ربهم حتى يموتوا، وحجابه النور أو النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

وقد زعم بعض أهل الأهواء أن قوله تعالى: ﴿قَالَ لَنْ نَرِيكَ﴾ دليل على استحالة الرؤية؛ بدعوة أن (لن) تفيده تأييد النفي، وجعلوا أن الله ﷻ قال في اليهود: ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٩٤]، ثم قال: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ﴾ [البقرة: ٩٥] مع أنهم يتمنون الموت وهم في جهنم، إذ ينادون مع نظرائهم من الكفار: ﴿يَمَلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧] ولما تجلَّى الله تعالى للجبل ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءً﴾ أي مذكوكاً مستويماً بالأرض ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ولما رأى موسى ﷺ أن السبعين الذين معه لا يزالون في صعقتهم دعا الله ﷻ أن يكشف عنهم، واعتذر إلى الله ﷻ بأنه أراد أن يقطع شبهة هؤلاء السفهاء الذين سألوه أن يريهم ربهم جهرة، وقد أجاب الله تعالى دعوة موسى ﷻ وأفاق السبعون من صعقتهم، وقال الحق لموسى ﷻ: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمَتِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]، وأعطاه الألواح وقد كتب له فيها كل شيء ﴿مَوْعِظَةً

وَنَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ ﴿ [الأعراف: ١٤٥] يحتاجه بنو إسرائيل في معاشهم ومعادهم، وقد كان موسى ﷺ عندما أقبل على مكان المناجاة سارع إلى جانب الطور الأيمن، فسبق السبعين الذي كانوا معه، فقال له العليم الخبير: ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى ﴾ (٨٢) قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴿ [طه: ٨٣ - ٨٤].

ومن ثمرات هذا السؤال والجواب تقرير أن المسارعة إلى الخيرات والمسابقة إلى مرضاة الله من الأمور المحبوبة شرعاً وليس في كل عجلة ندامة، وبعد أن أعطى الله تعالى موسى التوراة أخبره أن قومه عبدوا عجلًا صنعه لهم السامري، فرجع موسى بالتوراة إلى قومه غضبان حزينا على ما فعله قومه، وأخذ يؤنبهم ويوبخهم على عبادة العجل، وقال لهم: ﴿ تَسْمَا خَلَقْتُونِي مِنْ بَعْدِي ﴾ [الأعراف: ١٥٠] ﴿ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا ﴾ [طه: ٨٦] بإنزال التوراة نورا لكم، أفضالت غيبتى عليكم أن أحببتهم أن ينزل بكم غضب من ربكم فأخلفتهم وعدكم إياي بالثبات على الإيمان وإخلاص العبادة لله وحده وكأنكم استعجلتم عقوبة الله؟ فحاولوا الاعتذار بأنهم ما قَدَرُوا على ردِّ ضلال السامري، فإنه سؤل لهم ما سؤل وغلب على عقولهم وزعم لهم أنه إله موسى، وأن موسى نسي أنه ربُّه فذهب يطلب ربه عند الجبل. وكان هارون ﷺ قد حذر قومه من عبادة العجل وكان قد قال لهم: ﴿ يَقُولُونَ إِنَّمَا قُنْتُم بِهٖ وَإِنَّ رَبَّكُمْ الرَّحْمَنُ فَأَنبِئُونِي وَاطِّعُوا أَمْرِي ﴾ (٩٠) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِهينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿ (٩١) قَالَ يَهْدُونَ مَآ مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿ (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿ [طه: ٩٠ - ٩٣] بأن تقضي على سبيل المفسدين، وقد بلغ الغضب بموسى ﷺ مبلغاً فأخذ الألواح وأخذ برأس أخيه هارون ولحيته يجره إليه، فقال هارون: ﴿ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تَشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥٠]، وقال هارون ﷺ لموسى ﷺ: ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْفُقْ بِقَوْلِي ﴾ [طه: ٩٤].

وأراد ﷺ استعطاف موسى بقوله: يا ابن أم مع أنه أخوه لأبيه وأمه، وهذا شبيه بقول رسول الله ﷺ لعلي: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي

بعدي»، إذ الرابطة بينهما الإسلام، وفاطمة عليها السلام بنت رسول الله ﷺ، وقد حاول بعض أهل الأهواء أن يستدلوا بهذا الحديث على أن علياً ﷺ هو خليفة رسول الله ﷺ، وهذا الاستدلال باطل من وجوه: منها أن هارون مات قبل موسى، ولم يكن خليفة من بعده، بل الذي كان خليفة بعد موسى هو يوشع بن نون، ومنها أن هذا الحديث ليس نصاً في كون علي ﷺ هو الإمام بعد رسول الله ﷺ، وسبب الحديث يوضح مراد رسول الله ﷺ، فإن رسول الله ﷺ لما خَلَفَ علياً ﷺ في المدينة المنورة حينما أراد الذهاب إلى تبوك قال بعض المنافقين، في المدينة: إنما خَلَفَ علياً لأنه يستقله ولا يحبه، فلما علم علي ﷺ بذلك أخذ سيفه ولحق برسول الله ﷺ وهو نازل بالجُرف، وأخبره بقول المنافقين فقال له رسول الله ﷺ: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»، وكان النبي ﷺ يُبَيِّنُ لعلي ﷺ أن استخلافه على المدينة كاستخلاف موسى لهارون حينما ذهب موسى ﷺ لميقات ربه، ولم يكن استخلاف موسى لهارون عن البغض أو الاستئثار له كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ، كما أن الحنان الذي يحسُّ به موسى لهارون فيه معنى يوجدُ شبيهه بين رسول الله ﷺ وبين علي ﷺ، إذ إن فاطمة بنت رسول الله ﷺ كانت تحته، وحوُّ رسول الله ﷺ عليها وعلى زوجها وبنيتها لا يحتاج إلى دليل.

وبعد أن سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها أي في نصها وجملتها وتعاليمها هدى ورحمة للذين يخافون الله ﷻ ويهتدون بما أنزل من الكتاب، وفي مواعدة موسى لإعطائه التوراة واختيار سبعين رجلاً للذهاب معه، واستخلاف موسى لهارون على بني إسرائيل مدة غيبته هذه، ووصايا موسى لهارون ﷺ، وعبادة بعض بني إسرائيل للعجل الذي أضلهم به السامري، وسؤال موسى ﷺ ربه أن ينظر إليه، وجواب الله ﷻ له، وصعقة موسى والسبعين الذين معه واندكك الجبل لما تجلَّى الله للجبل، وإخبار الله ﷻ لموسى أن قومه عبدوا العجل من بعده ورجوعه ﷻ إلى قومه غضبان أسفاً، وأخذ موسى بلحية أخيه هارون ورأسه يجره إليه، وفي اعتذار هارون واستعطافه، وما

عاقب به موسى ﷺ السامريّ الذي صنع العجل، وما فعل موسى ﷺ بعجل السامري، من تحريقه ونسفه وتذريته في البحر، في هذا كله أنزل الله ﷻ على رسوله محمد ﷺ ذكر ذلك في كتابه الكريم في مواضع من الذكر الحكيم.

الى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل السادس والخمسون

تابع: موسى ﷺ

أشرت في ختام الفصل السابق إلى أن الله تبارك وتعالى ذكر في مواضع من كتابه الكريم قصة مواعده لموسى ﷺ لإعطائه التوراة واختيار سبعين رجلاً من بني إسرائيل ليذهبوا مع موسى ﷺ، وما حدث لموسى وللذين معه من الصعق، وما كان من عبادة قومه للعجل من بعد ذهابه لتلقي التوراة، ورجوعه إلى قومه غضبان أسفاً، وما كان بين موسى وهارون في ذلك، وعقوبة السامري، وتحريق العجل ونسفه في اليم، ففي سورة البقرة يقول الله ﷻ:

﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ إِنَّا ظَلَمْنَا أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَنَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نُنظَرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥١ - ٥٦].

ويقول في نفس السورة: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِسْمَايَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٢ - ٩٣].

ويقول تبارك وتعالى في سورة الأعراف: ﴿وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنَةٍ مِيقَتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِيكَ وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرِيكَ فَلَمَّا بَجَلَىٰ رَبُّهُ

لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ
 الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَمُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمَاتِي فَخُذْ مَا آتَيْنَاكَ وَكُنْ
 مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ
 فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُوْرِكُوا دَارَ الْفَنَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَاصِرُفٌ عَنْ عَائِشَةَ
 الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ عَائِشَةَ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا
 سَيْلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَيْلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا
 بِعَائِشَتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِعَائِشَتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ
 هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَأَخَذَ قَوْمٌ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا
 جَسَدًا لَهُمْ خُورٌ أَلَدٌ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾
 وَلَمَّا سَفِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا
 لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ
 بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَالْقَى الْأَلْوَابِ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمِّ إِبْرَاهِيمَ
 اسْتَضَعُّفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تُشْمِتْ بِالْأَعْدَاءِ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ
 رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا
 الْعِجْلَ سَيِّئَاتٍ غَضِبَ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْسِدِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ
 عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ
 عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابِ وَفِي نُحُوتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾
 وَأَخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ
 مِنْ قَبْلُ وَإِنِّي أَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ
 تَشَاءُ أَنْتَ وَرَبُّنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿الأعراف: ١٤٢ - ١٥٥﴾.

ويقول تعالى في سورة طه: ﴿يَسْبِقَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَجَنَّاكَ مِنْ دَعْوَتِهِ وَوَعَدْنَاكَ جَانِبَ
 الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَ وَالسَّلْوَى ﴿٨٠﴾ كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ
 فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ
 صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴿٨٢﴾ وَمَا أَعْجَلَكُ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَيَّ أَتْرَى وَعَجَلْتُ
 إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَى

إِلَى قَوْمِهِ غَضَبَنَ أَسْفًا قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ
أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يُجِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ
بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمُلْنَا آوَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَدَفْتَهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ
عَجَلًا جَسَدًا لَهُمْ خُورًا فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى وَإِلَهُ قَوْمِي قَوْلًا مِثْلَ قَوْلِهِمْ
إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلِ يَقَوْمِ إِنَّمَا
فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِفِينَ حَتَّى
يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى قَالَ يَهْرُوتُ مَا مَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ صَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَا تَتَّبِعُنَّ أَفْصَيْتَ أَمْرِي
﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْتَنُوهُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ
وَلَمْ تَرْفَعْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْمِعُ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ
فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ
فَأَذْهَبَ فَاثَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ يُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى
إِلْهَائِكَ الَّتِي ظَلَمْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ
اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿طه: ٨٠ - ٩٨﴾.

ويقول ﷺ في سورة القصص: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا
أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنْتَ
بِجَانِبِ الْعَرَبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا
فَتَطَاوَلُ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًّا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا
مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا
مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿القصص: ٤٣ - ٤٦﴾.

هذا وقد قص الله تبارك وتعالى كثيراً مما لقيه موسى ﷺ من بني إسرائيل
من الأذى، والتنطع والتشدد، كعدم رضاهم باليمن والسلوى وطلبهم بدلها بقولاً
وثوماً وقثاءً، وعدساً وبصلاً، وكقولهم لما رأوا موسى ﷺ حياً ستيراً لا يرى
من جلده شيء استحياءً، فأذاه من آذاه منهم بقولهم فيه: ما يستتر هذا التستر إلا
من عيب بجلده إما برص وإما أذرة وإما آفة، ﴿فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ
وَجِيهاً﴾ [الأحزاب: ٦٩].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الفصل السابع والخمسون

تابع: موسى ﷺ

أشرت في ختام الفصل السابق إلى بعض ما لقيه موسى ﷺ وأخوه هارون ﷺ من تنطع بني إسرائيل وأذاهم حتى قال موسى ﷺ كما حكى الله ﷻ ذلك: ﴿يَقُولُ لِمَ تُؤْذُونِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

وقد روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قسم رسول الله ﷺ قسماً فقال رجل: إن هذه لقِسْمَةٌ ما أريد بها وجهُ الله، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته فغضب، حتى رأيت الغضب في وجهه، ثم قال: «يرحم الله موسى قد أوذى بأكثر من هذا فصبر».

كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن موسى كان رجلاً حَيِّياً سِتِّيراً، لا يُرى من جلده شيء استحياء منه، فأذاه من آذاه من بني إسرائيل فقالوا: ما يستتر هذا التستتر إلا من عيب بجلده إما برص وإما أدرة وإما آفة، وإن الله أراد أن يُبرِّئه مما قالوا لموسى، فخلا يوماً وحده، فوضع ثيابه على الحجر، ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه، وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حَجْرٌ ثوبي حَجْرٌ حتى انتهى إلى مِلا من بني إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله وأبراه مما يقولون، وقام الحجر، فأخذ ثوبه فلبسه، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه، فوالله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً، فذلك قوله: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ [الأحزاب: ٦٩].»

ومن أمثلة شح نفوسهم أنهم لما استسقى موسى لهم أمره الله ﷻ أن

يضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا بعدد أسباطهم، ولو كانوا أهل إحسان وتراحم لكفتهم عين واحدة، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كُفُلًا وَأَشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠].

وكما قال ﷻ: ﴿وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٠]، ومن أمثلة تعنتهم أنهم قد امتنَّ الله عليهم باليمن والسلوى طعامين، شهيين بلا كلفة ولا مشقة فما رعوها حق رعايتها، والسلوى طير شهِّي الطعم سمين، واليمن شبيه بعسل النحل، يجدونها عند رؤوسهما في الصباح والمساء، ومع ذلك قالوا لموسى ﷺ: لن نصبر على طعام واحد نريد بقلًا وقثاء وثومًا وعدسًا وبصلًا، فأجابهم ﷻ: أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير، اهبطوا مصرًا فإن لكم ما سألتم، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَإِذِ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامِهِمْ وَإِنَّا لَنَاجِرِينَ لَنَا بِرَبِّكَ يُخْرِجُ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُؤُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مِمَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: ٦١].

وقد اغتنم موسى ﷺ فرصة حرصهم على البقول والقثاء والثوم والعدس والبصل فأمرهم أن يدخلوا بيت المقدس ليطهروه من الكافرين، فقالوا إن فيها قومًا جبارين، وإننا لن ندخلها ما داموا فيها، وقالوا لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، وهذا من أبرز أمثلة جبنهم وذلتهم، حتى ورث هذا العجب من بعدهم ذرياتهم، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿لَا يُفْقِلُونَكُم جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَىٰ مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بِيَدِهِمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤].

ولم يزل هذا الخلق الذميمة تمتلئ به جوانحهم إلى اليوم، وهم لم ينتصروا

على المسلمين ويحتلوا بيت المقدس في عصرنا بشجاعتهم، وإنما بذنوبنا وتفرق كلمتنا وحبل من الناس، فإنه إذا عصى الله من يعرفه سلط عليه من لا يعرفه، وفي امتناع بني إسرائيل عن دخول الأرض المقدسة وعصيانهم لموسى ﷺ يقول الله ﷻ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَاَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتِكُمْ وَسَزَيْدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٨ - ٥٩].

وقوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة: ٥٩] أي بدل أن يقول حطة قالوا حبة في شعرة وقالوا حنطة، ودخلوا يرحفون على أستاذهم بدل أن يدخلوا الباب ساجدين، وكما قال ﷻ: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَاَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتِكُمْ سَزَيْدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦١ - ١٦٢].

وكما قال ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ أذكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتُدُّوا عَلَىٰ آدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنْدَخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ رَبُّ جَاعِلُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتَ مُؤْمِنًا ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّا لَنَنْدَخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٠ - ٢٥].

وقد عاقبهم الله ﷻ على هذا العصيان بالتيه في الصحراء أربعين سنة حيث يقول ﷻ: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦].

ومن أمثلة تنطعهم أنهم لما قتل واحد منهم نفساً وتدافعوا وتخاصموا فيمن

قتلها حيث لم يُعرَف القاتل، فأمرهم موسى ﷺ بذبح بقرة بأمر من الله ﷻ، فكان أول ردٍّ منهم على موسى كليم الله أن يقولوا: أستهزئ بنا؟ فلما عرَّفهم أن الاستهزاء بالناس جهل لا يليق بعبد صالح قالوا: ما سئها؟ فأجابهم موسى ﷺ: ﴿لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَائٍ بَيْتَ ذَلِكَ﴾ [البقرة: ٦٨]، وحضَّهم على المسارعة إلى الامتثال، فتنطعوا وقالوا: ما لونها، فأجابهم بأنها ﴿صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسْرُ النَّظِيرِ﴾ [البقرة: ٦٩]، فتنطعوا وقالوا: بيِّن لنا ما هي أسائمة أم عاملة إن البقر تشابه علينا، فأجابهم موسى ﷺ بأنها ﴿بَقْرَةٌ لَا ذَلُولٌ﴾ [البقرة: ٧١] أي غير مدللة بالعمل فلا تنفع لحرث الأرض ولا لسقي الزرع، خالية من العيوب واختلاط الألوان. وهنا انقطعوا وكادوا يعجزون عن الحصول عليها، ولو أنهم عندما أمرهم أول مرة سارعوا فذبحوا أي بقرة لكفتهم.

وفي قصة بقرة بني إسرائيل يقول الله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَنْتَخِذْنَا هَذَا قَالِ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٦٧) قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَائٍ بَيْتَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨) قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسْرُ النَّظِيرِ (٦٩) قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْمَرْءَ مَسْلَمَةً لَا شِبَهَ فِيهَا قَالُوا أَكِنَّ جِئْتِ بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٦٧ - ٧٣].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الثامن والخمسون

تابع موسى عليه السلام

روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من طريق سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس إن نوحاً البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى بني إسرائيل إنما هو موسى آخر، فقال: كَذَبَ عَدُوُّ اللَّهِ، حدثنا أبي بن كعب عن النبي ﷺ أن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل، فسُئِلَ أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فقال: أنا، فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرِدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ، فقال له: بلى، لي عبد بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال: أي رب ومن لي به؟ قال: تأخذ حوتاً فتجعله في مكمل، حيثما فقدت الحوت فهو ثم، وأخذ حوتاً فجعله في مِكْمَلٍ ثم انطلق هو وفتاه يوشع بن نون حتى أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فَرَكَدَ موسى واضطرب الحوت فخرج فسقط في البحر ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ [الكهف: ٦١] فأمسك الله عن الحوت جَرِيَّةَ الْمَاءِ فَصَارَ مِثْلَ الطَّاقِ، فانطلقا يمشيان بقية ليلتهما ويومهما حتى إذا كان من الغد ﴿قَالَ لِفَتْنِهِ ءَايِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢]. ولم يجد موسى النصب حتى جاوز حيث أمره الله، قال له فتاه: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسِينِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الكهف: ٦٣]، فكان للحوت سرباً ولهما عجباً، قال له موسى: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَارْتَدَّا عَلَى ءَأْقَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: ٦٤]، رجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة فإذا رجل مُسَجَّيٌّ بثوب، فسلم موسى فرد عليه فقال: وأنى بأرضك السلام، قال: أنا موسى، قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، أتيتك لتعلمني ﴿مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦]، قال: يا موسى، إني على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه، وأنت على علم من علم الله عَلَّمَكُهُ اللَّهُ لَا أَعْلَمُهُ، قال: ﴿هَلْ أَتَيْتَكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦] قال: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ

تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ [الكهف: ٦٧ - ٦٨] إلى قوله: ﴿أَمْرًا﴾ فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت بهما سفينة، كَلَّمُوهُم أَن يَحْمِلُوهُم، فعرفوا الخَضِرَ فحملوه بغير نول، فلما ركبا في السفينة جاء عصفور فوقع على حرف السفينة فَتَقَرَّرَ فِي الْبَحْرِ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ، قال له الخضر: يا موسى! ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من البحر، إذ أخذ الفأس فنزع لوحاً قال: فلم يفجأ موسى إلا وقد قلع لوحاً بالقدوم، فقال له موسى: ما صنعت؟ قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهما فخرقتها ﴿لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٠﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذُنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧١﴾ [الكهف: ٧١ - ٧٣] فكانت الأولى من موسى نسياناً، فلما خرجا من البحر مرّوا بغلام يلعب مع الصبيان، فأخذ الخضر برأسه فقلعه بيده هكذا كأنه يقطف شيئاً، فقال له موسى: ﴿أَفَلَنْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَدِّقْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا آتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَ أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنْقُضَ ﴿[الكهف: ٧٤ - ٧٦] مائلاً، أو ما بيده هكذا كأنه يمسح شيئاً إلى فوق قال: قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا عمدت إلى حائطهم ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأُنْبِئُكَ بِمَا لَمْ تَسْتَطِيعَ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿[الكهف: ٧٧ - ٧٨] قال النبي ﷺ: «وَدِدْنَا أَن مُوسَى كَانَ صَبِيرًا، فَقَصَّ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْ خَبْرِهِمَا» وفي لفظ قال النبي ﷺ: «يرحم الله موسى لو كان صبر يقصُّ علينا من أمرهما».

ثم ساق البخاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: إنما سُمِّيَ الخضرُ أنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز من خلفه خضراء.

وقد ساق الله ﷻ قصة موسى مع الخضر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في محكم كتابه حيث يقول

في سورة الكهف:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُمْبًا

﴿٦٦﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦٧﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ

لِفَتْنِهِ ءَإِنَّا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْخُوتَ وَمَا أَنْسِينِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَارْتَدَّا عَلَى ءَاتَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنَ لَدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَبَعَكَ عَلَىٰ أَنْ تَعْلِمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رَسُولًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْتَأْذِنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي سَفَا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتَنِي عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي فَدَ بَلَّغْتَ مِنَ لَدُنِّي عَذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَنَّىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأْنَيْتُكَ يَنَاقِلُ مَا لَمْ تَسْتَطِيعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رَحْمًا ﴿٨١﴾ [الكهف: ٦٠ - ٨١].

هذا وقد فتن كثير من الصوفية فادعوا لأنفسهم علماء إلهياً غير ما جاء به رسول الله ﷺ ويسمونهم العلم اللدني، وهذا برهان قاطع على جهلهم بشريعة الله، واللغة العربية، فإن قولهم العلم اللدني لا معنى له في اللغة العربية، وهم لجهلهم بها وانحرافهم عن دين الإسلام يحسبون أن قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنَ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ يدل على علم غير شرعي، وينحتون له هذا الاسم، وهو فهم عاطل باطل فاسد كاسد، فإن قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنَ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ معناه أعطيناه علماً من عندنا، والعلم الذي أعطاه الله تعالى للخضر هو علم شرعي آتاه الله الخضر ﷺ واختصه به؛ ولذلك قال الخضر لموسى ﷺ: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾.

ولا تدل هذه القصة على أن الخضر أفضل من موسى، إذ لا شك عند أحد ينتمي للعلم أن موسى هو من أكابر أولي العزم من المرسلين، وإعطاء الخضر علماً خاصاً به وهو ليس من أتباع موسى ﷺ لا يدل على أنه أفضل من موسى؛ فالمزية لا تنافي الأفضلية، كما ذكرت في فصول سابقة.

وقد ذكر الله تبارك وتعالى موسى في مقامات كثيرة يُنوه فيها بفضله كقوله تعالى وهو يذكر جملة من الأنبياء والمرسلين: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ۗ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقُصِّصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٣ - ١٦٤].
وكقوله تعالى: ﴿تِلْكَ أَرْسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ ۗ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وكقوله تعالى: ﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمَاتِي فَخُذْ مَا آتَيْنَاكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

وكقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل التاسع والخمسون

تابع: موسى عليه السلام

استمر موسى عليه السلام في نشر النور والهدى الذي أنزله الله تعالى عليه في التوراة، يعاونه هارون عليه السلام، إلى أن قبض الله وَعَلَّمَ هَارُونَ مِثْلَهُ في حياة أخيه موسى وَوَجَّهَ اللَّهُ بِمُوسَىٰ وهما في التيه مع بني إسرائيل.

وقد حج موسى عليه الصلاة والسلام البيت العتيق في مكة المكرمة، فقد روى مسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ مرَّ بوادي الأزرق فقال: «أَيُّ وادٍ هَذَا؟» قالوا: وادي الأزرق، قال: «كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَهُوَ هَابِطٌ مِنَ الثَّنِيَّةِ، وَلَهُ جُؤَارٌ إِلَىٰ اللَّهِ وَعَلَّمَ هَارُونَ مِثْلَهُ بالتلبية». حتى أتى على ثنية هرشاء فقال: «أَيُّ ثُنِيَّةٍ هَذِهِ؟» قالوا: هذه ثنية هرشاء، قال: «كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَىٰ يُونُسَ بْنِ مَتَىٰ عَلَىٰ نَاقَةٍ حَمْرَاءَ، عَلَيْهِ جَبَّةٌ مِنْ صُوفٍ خَطَامٌ نَاقَتُهُ خُلْبَةٌ - يَعْنِي لَيْفًا - وَهُوَ يَلْبِي».

وقد ذكرت عند الحديث عن الخليل إبراهيم عليه السلام بعض صفات موسى عليه السلام، وأنه كان آدم أي أسمر، جعد الشعر جسيماً طويلاً كأنه من رجال أزد شنوءة، فقد روى البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «رَأَيْتَ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي مُوسَىٰ بْنَ عِمْرَانَ رَجُلًا طَوِيلًا جَعْدًا كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنْوَةَ».

كما روى البخاري في صحيحه من طريق مجاهد أنه سمع ابن عباس رضي الله عنهما وذكروا له الدجال، وأنه مكتوب بين عينية كافر أو (ك ف ر) فقال: لم أسمعها ولكنه قال ﷺ: «أَمَّا إِبْرَاهِيمُ فَانظُرُوا إِلَىٰ صَاحِبِكُمْ، وَأَمَّا مُوسَىٰ فَجَعْدٌ أَدَمٌ عَلَىٰ جَمَلٍ أَحْمَرٍ مَخْطُومٌ بِخُلْبَةٍ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ انْحَدِرْ فِي الْوَادِي».

وقد حضرت الوفاة موسى عليه السلام قبل أن يدخل الأرض المقدسة، غير أنه طلب من الله وَعَلَّمَ هَارُونَ مِثْلَهُ أن يدينه من الأرض المقدسة رمية بحجر، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: أَرْسَلَ مَلَكُ الْمَوْتِ إِلَىٰ

موسى ﷺ، فلما جاءه صَغَّه فرجع إلى ربه ﷻ فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت، قال: ارجع إليه فقل له يضع يده على متن ثور فله بما غطت يده بكل شعرة سنة، قال: أي رب ثم ماذا؟ قال: ثم الموت، قال فالآن، قال: فسأل الله ﷻ أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر، قال أبو هريرة: فقال رسول الله ﷺ: «فلو كنت نَمَّ لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر».

ثم قال البخاري رحمه الله: قال: وأخبرنا معمر عن همام حدثنا أبو هريرة عن النبي ﷺ نحوه.

وروى مسلم في صحيحه من طريق همام بن مَنبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله ﷺ فذكر أحاديث منها، وقال رسول الله ﷺ: «جاء مَلَك الموت إلى موسى ﷺ فقال له: أجب ربك، قال: فَلَطَمَ موسى ﷺ عين مَلَك الموت ففقاها، قال: فرجع الملك إلى الله تعالى، فقال: إنك أرسلتني إلى عبد لك لا يريد الموت وقد فقا عيني، قال: فرد الله إليه عينه، وقال: ارجع إلى عبدتي فقل: الحياة تريد؟ فإن كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور فما توارت يدك من شعره فإنك تعيش بها سنة، قال: ثم مَه؟ قال: ثم تموت، قال: فالآن من قريب، ربّ أمتني من الأرض المقدسة رميةً بحجر»، قال رسول الله ﷺ: «والله لو أني عنده لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر».

وقد استشكل بعض من ينتمي إلى العلم هذ الحديث وكأنه استغرب كيف يضرب موسى ﷺ مَلَك الموت وكيف يفقا عينه؟ ولا غرابة في ذلك؛ لأن موسى لم يعرف أنه مَلَك الموت كما لم يعرف خليل الرحمن أبوه إبراهيم ﷺ الملائكة الذين استضافوه، وقال لهم لَمَّا لم يأكلوا طعامه: إنكم قوم منكرون، ولا سيما أن ملك الموت جاء موسى ﷺ على طريق لم يُقبض على مثلها الأنبياء، فإن الله تبارك وتعالى لا يقبض روح نبي من أنبيائه إلا بعد تـخييره، كما أثر أنه ما من نبي قبض إلا خَيْرٌ، ولذلك لما خيّر رسول الله ﷺ اختار الرفيق الأعلى، أما استغراب فقاء عين الملك فهو مبني على تعريف الملائكة بأنهم لا تحكم عليهم الصورة،

أي لو تصور الملك في صورة رجل أو غيره ثم أريد قتله أو قطع عضو منه فإنه لا تتأثر صورته بذلك، ولا يتمكن منه بخلاف الجنّي، فإن الصورة تحكم عليه، فلو تصور الجنّي في صورة حيوان وقتل هذا الحيوان قُتِلَ الجنّي، وبالنظر إلى أن هذا التعريف لم يثبت به خبر صحيح عن رسول الله ﷺ فإنه لا يحل لمسلم أن يرُدَّ به الخبر الصحيح الثابت عن رسول الله ﷺ.

وقد رأيت كثيراً من أهل الأهواء المعادين لأصحاب رسول الله ﷺ وللبخاري ومسلم وغيرهما من أئمة أهل السنة والجماعة يدندنون حول هذا الحديث الصحيح للنيل من أصحاب رسول الله ﷺ وشيوخ أهل الحديث، وقد علمت أنه لا شبهة في صحة هذا الخبر عن رسول الله ﷺ الصادق الأمين.

هذا وقد حرّف اليهود التوراة بعد موسى ﷺ، ومن أبرز الأدلة على ذلك أن اليهود يدّعون أن التوراة كتبها موسى ﷺ بيده، وهي مكونة عندهم من أسفار خمسة، وهي: سفر التكوين، وسفر الخروج، وسفر اللاويين، أو الأحبار، وسفر العدد، وسفر التثنية، وقد جاء في الإصحاح الرابع والثلاثين من سفر التثنية في الفقرة الخامسة منه: فمات هناك موسى عبد الرب في أرض موآب حسب قول الرب؛ وفي الفقرة السادسة ودفنه في الجواء في أرض موآب مقابل بيت فغور. ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم، فتبين بما لا مجال للشك فيه أن هذا السفر مكتوب بعد موسى ﷺ، إذ كيف يكتب موسى بيده أنه مات ودفن في الجواء في أرض موآب مقابل بيت فغور ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم، ومما يؤكد تحريفهم أنه جاء في الإصحاح الحادي والثلاثين من سفر التثنية في الفقرة ٢٤ فعندما كمل موسى كتابة كلمات هذه التوراة في كتاب إلى تمامها - ٢٥ - أمر موسى اللاويين حاملتي تابوت عهد الرب قائلاً: ٢٦ - خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إلهكم ليكون هناك شاهداً عليكم - ٢٧ - لأنني عارف تمردكم ورقابكم الصُّلبة هو ذا وأنا بعد حيٌّ معكم اليوم قد صرتم تقاومون الرب فكم بالحرّي بعد موتي - ٢٨ - اجمعوا إليّ كل شيوخ أسباطكم وعرفائكم لأنطق في مسامعهم بهذه الكلمات وأشهد عليهم السماء والأرض - ٢٩ - لأنني عارف أنكم بعد موتي تُفسدون وتزيغون من الطريق الذي أوصيتكم.

هذا وليست اليهودية هي دين موسى ﷺ بل دينه الإسلام، واليهودية محدثة بعد موسى؛ ولذلك لم يرد في خبر صحيح أن موسى ﷺ سماهم يهوداً، وقد تكون اليهودية مأخوذة من الهُودِ، بمعنى التوبة على حد قوله موسى ﷺ ﴿إِنَّا هُنَّا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

ويمكن أن تكون مأخوذة من التهويد وهو الترجيع بالصوت في لين والتطريب، وقد كان أحبار اليهود إذا قرؤوا على العامة أتوا بنغمات مع غُنةٍ شديدة ومدِّ بالخياشيم. ويمكن أن تكون نسبة إلى يهوذا أحد رؤوس أسباط بني إسرائيل، ويكون إطلاقه على جميع بني إسرائيل على سبيل التغليب، وهو بالدال أو الذال كما جاء في القاموس المحيط، يقال: يهوذا ويهودا، كما يقال يهودي ويهودي.

ولم يرد اسم اليهود في كتاب الله تعالى أو في سنة رسوله ﷺ على سبيل المدح قط، وكل ما ورد عنهم في عهد موسى ﷺ كان باسم بني إسرائيل، كما أن ما ورد في كتاب الله عنهم كان باسم أهل الكتاب وقوم موسى وبني إسرائيل، ولم يذكر اليهودية إلا في مقام الذم، والعلم عند الله، والسلام على موسى وهارون.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الستون

داود وسليمان عليهما السلام

نتحدث عن النبيين الرسولين الملكين الكريمين داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام، وكان أول ذكرٍ ثابتٍ لداود عليه السلام هو ما قصه الله تبارك وتعالى عن قتل داود لجالوت في الحرب التي دارت بين طالوت وجالوت في فلسطين، والظاهر من سياق القرآن الكريم لقصة هذه الحرب يفيد أن بني إسرائيل قد حاربهم جماعة من الوثنيين، وأخرجوهم من ديارهم وأبنائهم، وكان على رأس هؤلاء الوثنيين جالوت لعنه الله، وقد كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما مات نبي بعث الله عليه السلام لهم نبياً آخر، يشرح لهم التوراة، ويحكم بها فيهم، ويبين لهم ما غيره وحرفوه وبدلوه من الكلم من مواضعه على حدّ قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ (أي انقادوا لأمر الله) ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ (أي صاروا يهوداً) ﴿وَالرَّيْبِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً﴾ [المائدة: ٤٤]، وقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي وإنه لا نبي بعدي»، فكان أنبياء بني إسرائيل كعلماء أمة محمد صلى الله عليه وسلم سوى أنه كان يوحى إليهم، فلما اشتدت الحرب على بني إسرائيل طلبوا من نبيهم أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون تحت رايته أعداء الله من الوثنيين، فأخبرهم نبيهم صلى الله عليه وسلم أنه يخشى عليهم أن ينكلوا عن القتال إذا فرّض عليهم ولا يفوا بما التزموا به، فقالوا: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ [البقرة: ٢٤٦] أي أخذت منّا البلادُ وسُبيت الأولاد، فأخبرهم نبيهم صلى الله عليه وسلم أن الله قد عين لهم ملكاً منهم هو طالوت، فاعترضوا على هذا التعيين وقالوا: كيف يُعين الله علينا طالوت ملكاً ولم يكن في آباءه من ملك، فنحن أحق بالملك منه مع أنه فقير

قليل المال، فأجابهم نبيهم ﷺ بأن الله ﷻ قد اختاره عليكم وفضله من بينكم، وقد أعطاه الله ﷻ بسطة في العلم والجسم، فهو أعلم منكم بشؤون الحروب وتدبير الأمور، وأشد منكم قوة وصبراً وجلداً لملاقاة الأعداء، فلا تعترضوا ولا تتعنتوا، وأنتم تعلمون أن الله هو الذي اختاره وعينه ملكاً عليكم، والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم، وقال لهم نبيهم: إن الله تبارك وتعالى جاعل لكم آية على صحة ملك طالوت عليكم وهي رجوع الصندوق الذي يشتمل على بعض آثار موسى وهارون، وقد عجزتم عن إرجاعه من يد مغتصبيه، ولن يُطلب منكم بذل مجهود في استرجاعه، بل سيجيء الصندوق تحمله الملائكة فيه طمأنينة لبني إسرائيل، ودلالة ظاهرة على أن الله لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض، فَصَدَّقُوا وَعَدَّ اللَّهُ وَسَارَعُوا إِلَى طَاعَةِ طَالُوتِ وَأَمَنُوا بِمَا أَخْبَرْتَكُمْ بِهِ عَنْ اللَّهِ ﷻ، ولما انقادوا لذلك وتهيئوا لقتال جالوت وجنوده تحت راية طالوت ﷺ، وكان من بينهم داود ﷺ أخبرهم طالوت ﷺ أن الله ﷻ سيختبرهم، حيث يمرون بنهر وهم عطاش وهو يمنعهم من الشرب منه لما يعلمه الله ﷻ أن الشرب منه يضرهم، والعجيب أنه لا يزال بعض قادة الجيوش إلى اليوم يحرمون على جنودهم أن يشربوا في أثناء زحفهم على عدوهم، لما يترتب على ذلك من الضرر بصحتهم، إلا أنهم يجيزون لهم أن يبلُّوا ريقهم بلاً خفيفاً، ولذلك أذن طالوت لجيشه بأنه لا مانع أن يغترف الواحد منهم عُرفَةً بيد تَبَلُّ ريقه، ولا تعتبر شرباً، وهذا من آثار بسطة علم طالوت ﷺ، وقد حذرهم طالوت وعرفهم أن من شرب من هذا النهر لا يصحبه في قتال أعداء الله من الوثنيين أتباع جالوت، ولا يجاوز النهر، غير أنه عندما وصل هذا الجيش إلى النهر عصوا طالوت وشربوا منه سوى عدد قليل منهم امتنع عن الشرب من النهر طاعة لطالوت ﷺ.

وقد جاء في بعض الآثار الصحيحة أن الذين جاوزوا النهر مع طالوت كانوا ثلاث مئة وبضعة عشر رجلاً بعدد أصحاب رسول الله ﷺ يوم بدر، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: حدثني أصحاب

محمد ﷺ ممن شهد بدماءً أنهم كانوا عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر بضعة عشر وثلاث مئة، قال البراء: لا والله ما جاوز معه النهر إلا مؤمن. وفي لفظ للبخاري عن البراء قال: كنا أصحاب محمد ﷺ نتحدث أن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر، ولم يجاوز معه إلا مؤمن: بضعة عشر وثلاث مئة. وفي لفظ للبخاري رَضَّ اللَّهُ مِنْ حَدِيثِ الْبَرَاءِ رَضَّ اللَّهُ قَالَ: كنا نتحدث أن أصحاب بدر ثلاث مئة وبضعة عشر بعدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر وما جاوز معه إلا مؤمن. ولما جاوز طالوت النهر هو والذين آمنوا معه وجدوا أن عدوهم جالوت قد حشد جنوداً وأعد عدة عظيمة، فقال بعض المؤمنين من أصحاب طالوت: لا طاقة ولا قدرة لنا اليوم على قتال هذا العدو الكثير، كأنهم استقلوا أنفسهم عن لقاء عدوهم، فشجعهم علماءهم العالمون بأن وعد الله حق وأن النصر من عند الله ليس بكثرة العدد وقوة العدد، وأنه ينبغي للمسلم أن يرغب في الاستشهاد ولقاء الله في سبيل الله قائلين لهم: ﴿كَمْ مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً يَأْذِنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴿البقرة: ٢٤٩ - ٢٥٠﴾ سألوا الله ﷻ أن ينزل عليهم الصبر، وأن يُثبت أقدامهم في لقاء الأعداء، وأن ينصرهم على القوم الكافرين، فاستجاب الله دعاءهم ونصرهم على أعدائهم، وقتل داود جالوت ملكهم، وسارع طالوت بالتنازل عن الملك لداود، وبعث الله ﷻ داود نبياً رسولاً، وجعله ملكاً كريماً على بني إسرائيل، وقد أثنى الله تبارك وتعالى على طالوت ووصفه بأوصاف كريمة، أما ما زعمه بعض المفسرين والإخباريين من أن طالوت حسد داود وأصيب بالجنون وهام في الصحراء فإنه زعم باطل لا دليل عليه من خبر ثابت، وقد أورد الله تبارك وتعالى قصة طالوت وحره لجالوت وتمليك داود حيث قال:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَدِّ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ آهَيْتَ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ

اللَّهُ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلِكُومَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آءَالُ مُوسَىٰ وَعَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ابْنَ اللَّهِ مَبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلْكُوا اللَّهَ كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ عَلَبْتُمْ فَتَةً كَثِيرَةً يَا ذُنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّٰكِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّآسَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمَلَآئِكِ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

[البقرة: ٢٤٦ - ٢٥٢].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الحادي والستون

تابع: داود وسليمان ﷺ

بعد أن مكَّن الله لداود في الأرض وآتاه الملك والنبوة وأنزل عليه الزبور وعلمه ما يحتاجه هو وبنو إسرائيل من المنهج القويم، وقد يسَّر الله ﷻ لداود قراءة الزبور وخففه عليه حتى إنه كان يقرؤه بمقدار ما تُسرج دوابُّه، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى محمد ﷺ، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «خُفِّفَ عَلَى داود ﷺ القرآن، فكان يأمر بدوابه فتسرج فيقرأ القرآن قبل أن تسرج دوابُّه، ولا يأكل إلا من عمل يده»، والمراد بالقرآن هنا الزبور الذي أنزله الله على داود ﷺ حيث يقول: ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زُبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣]، كما يطلق القرآن على القراءة، يعني قراءة الزبور، وقد كان داود ﷺ قد منحه الله ﷻ صوتاً جميلاً يتغنى به وهو يقرأ الزبور ويترنم، ولقد وصف رسول الله ﷺ ترنمه بالزبور بصوت المزامير، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له: «يا أبا موسى! لقد أوتيت مزامراً من مزامير آل داود». وروى أحمد في مسنده قال: حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمع رسول الله ﷺ صوت أبي موسى الأشعري وهو يقرأ فقال: «لقد أوتي أبو موسى من مزامير آل داود».

وقد التزم داود ﷺ بأنه لا يأكل إلا من عمل يده، كما اتخذ منهجاً في الصيام والصلاة هو أحب المناهج التي كان رسول الله ﷺ يحض عليها في التطوع، فقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود؛ كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يفر إذا لاقى»، وفي لفظ للبخاري

من حديث عبد الله بن عمرو قال: قال لي رسول الله ﷺ: «أحبُّ الصيام إلى الله صيام داود، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه»، كما روى البخاري في صحيحه من حديث المقداد بن معديكرب قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده».

ولقد تفضل الله تبارك وتعالى على داود فألأن له الحديد وعلمه صنعة لبوس لصيانة المقاتلين المؤمنين، فكان أول من صنع الدروع التي قد تسمى الزرد، وقد أرشده الله ﷻ إلى الطريقة المثلى في صناعتها فجعلها حلقة بعد أن كانت صفائح ليسهل استعمالها، وأمره ﷻ أن يعملها سابغات تغطي كل جسم لا بسها ويجرها على الأرض، وتصلح للأجسام المختلفة طولاً وعرضاً فيعم نفعها جميع المقاتلين، وأن يقدر في السرد، أي في نسج الدرع؛ وهو إدخال الحلقات بعضها في بعض ولا تجعل المسامير غلاظاً فتكسر الحلقة، ولا دقاً فتتقلقل فيها، ولا تزداد في متانتها فتثقل على المقاتل، وهذه نعمة جزيلة لفت الله المؤمنين إلى وجوب شكره عليها حيث يقول: ﴿فَهَلْ أُنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

كما سخر الله ﷻ لداود الجبال والطير إذا سبح؛ سبحت معه وآتاه الحكمة وفصل الخطاب، وفي ذلك كله يقول الله ﷻ في سورة الأنبياء: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (٧٩) ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِنُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٧٩ - ٨٠].

ويقول ﷻ في سورة سبأ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجَالُ أَوْبَى مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَبْعِينَ وَفَدَّرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [سبأ: ١٠ - ١١].

ويقول تعالى: في سورة «ص» أمراً شيخ المرسلين محمداً ﷺ بالاعتداء في الصبر بـداود عليه السلام: ﴿أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِسْرَافِقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَيَّنَّا لَهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾ [ص: ١٧ - ٢٠].

وقد افترى اليهود على داود ﷺ أكاذيب كثيرة، كما كذبوا على أنبياء الله من قبله ومن بعده، وقتلوا بعض الأنبياء، فقد ادعوا أن داود خرج يتمشى على سطح بيت الملك مساءً، فوجد امرأة جميلة تغتسل، فأرسل رجالاً فأخذوها وجاؤوا بها إلى داود، فدخلت عليه فاضطجع معها وحبلت منه، وأنه عمل على قتل زوجها، فقد جاء في الإصحاح الحادي عشر من سفر صموئيل الثاني الذي بأيديهم في الفقرة الثانية منه: وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك؛ فرأى من على السطح امرأة تستحم وكانت المرأة جميلة المنظر جداً. وفي الفقرة الثالثة فأرسل داود وسأل عن المرأة فقال واحد: أليست هذه بثشبع بنت أليعام امرأة أوريا الحثي؟ وفي الفقرة الرابعة: فأرسل داود رسلاً وأخذها فدخلت إليه فاضطجع معها وهي مطهرة من طمثها، ثم رجعت إلى بيتها، وفق الفقرة الخامسة: «وحبلت المرأة، فأرسلت وأخبرت داود وقالت إني حبلت»، وبعد أن يسوق سفر صموئيل الثاني محاولة داود التخلص من أوريا زوج المرأة وإرساله إلى الحرب ليقتل، بعد ذلك يقول السفر في الفقرة ٢٦: فلما سمعت امرأة أوريا أنه قد مات أوريا رَجُلُهَا نذبت بعلها، وفي الفقرة ٢٧ ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها إلى بيته، وصارت له امرأة وولدت له ابناً، وأما الأمر الذي فعله داود فقبح في عيني الرب. ثم يتابع السفر المذكور سرد معاتبة الرب لداود وإماتة الله للولد الذي جاءت به بثشبع، ثم توبة داود وصيامه، ثم دخوله على امرأة أوريا واضطجاعه معها فتحبل وتلد ولداً اسمه سليمان، والعجيب الغريب أن هذه الأكذوبة انطلت على بعض من ينتمي إلى علم التفسير ففسروا بها قوله الله ﷻ:

﴿وَهَلْ أُنْتَكَبَتْ نَبْوَةُ الْخَصَمِ إِذْ سَوَّرُوا الْحَرْبَ ۗ﴾ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَرَعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْمَةً وَلِي نَجْمَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجْمِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لِيَبْغِيَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَحَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَعَفَوْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّكَابٍ ﴿ص: ٢١ - ٢٥﴾.

وتفسير هذه الآيات بأن داود عشق امرأة أوريا وقهره على التنازل له عنها، وسعى في قتله حتى قتل، وكان لداود تسع وتسعون امرأة، ولأوريا هذه المرأة الواحدة، ومجيء ملكين في صورة متخاصمين لداود لتنبهه على قبح ما فعل: أقول: إن تفسير هذه الآيات الكريمات بهذا هو تفسير عاطل باطل فاسد كاسد، وإفك مفترى مبتدع يأباه لنفسه السوقة والرعاغ، ومكر يهودي مخترع تمجه الأسماع وتنفر منه الطباع؛ ولذلك أثر أن علياً عليه السلام قال: من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلده مئة وستين جلدة، وهي حد الفرية على الأنبياء، كما أثر أن رجلاً صالحاً من أهل العلم كان جالساً مع عمر بن عبد العزيز بالمسجد وبالقرب منهما رجل يقص على الناس هذه القصة المخترعة على داود، فقال الرجل الصالح: يا هذا! إن كان الأمر على خلاف ما تزعم فقد افتريت على نبي الله داود، وإن كان على ما تزعم وستر الله على نبيه داود وكفى وقال نعجة ولم يقل امرأة فما يحل لك أن تفضح نبي الله داود، فقال عمر بن عبد العزيز: هذا الكلام أحب إلي مما طلعت عليه الشمس.

والى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الثاني والستون

تابع: داود وسليمان عليهما السلام

ذكرت في ختام الفصل السابق أن تفسير من فسر قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أُنْتَكَبُ نَبُؤًا أَخْصَمَ إِذْ سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ [ص: ٢١] إلى قوله: ﴿وَحَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤] بأن داود عشق امرأة أوريا وقهره على التنازل له عنها، وسعى في قتله حتى قتل، وتفسير النعجة في الآية بأنها المرأة، قلت: إن هذا تفسير عاطل باطل فاسد كاسد وإفك مبتدع يأباه لنفسه السوقة والرعاع، ومكر يهودي تمجده الأسماع، وتنفر منه الطباع، وأذكر هنا أن سياق القرآن يأباه، فإن الله تبارك وتعالى ذكر في مقدمة هذه السورة إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦]. ما لقيه رسول الله ﷺ من أذى قومه وتمالثم عليه واستهزائهم به، فأمره الله ﷻ بالصبر على ما يقولون، وأمره بأن يذكر قصة العبد الصالح الأواب داود ﷺ، ثم قصة سليمان ثم قصة أيوب، وما أصابهم من الضيق فصبروا، فجاءهم الفرج من عند الله، والمعروف أن القرآن العظيم كالدر النظيم، كل آية مرتبطة تمام الارتباط بما قبلها وبما بعدها، فهل يأمر الله ﷻ رسوله محمداً ﷺ بالصبر اقتداءً بداود العبد الصالح الأواب، ثم يصف هذا الأواب بأنه العاشق الطامع في زوجة رجل مؤمن ليس له غيرها، ولداود تسع وتسعون امرأة، إن ذلك لمنكر من القول وزور، وإنما يأمر الله رسوله محمداً ﷺ في هذه الآيات بالصبر على أذى قومه له، ويذكره بما كان من أخيه العبد الصالح الأواب داود عندما تسور عليه المحراب - أي القصر - متخاصمون، ففرغ منهم وخاف أن يغتالوه، ولما طمأنوه بأنهم لم يجيئوا للإحاق أذى به وإنما جاؤوا متخاصمين. وتقدم المدعي وقال مشيراً إلى المدعى عليه: إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة أي شاة من الغنم، ولي نعجة واحدة، أي شاة من الغنم واحدة، وأنه رحمني في أول الأمر

عندما رأني أسرح بها وحدها، فطلب مني أن يجعلها مع نعاجه لترعى معها دون مشقة عليّ. فلما مضت مدة وجئت لأطلبها منه أنكر حقي فيها وقهرني، وجحد أن تكون لي عنده شاة وادعى أنها ملكه، فلما سمع داود ﷺ الدعوى ولم يسمع من المدعى عليه إنكاراً لما يقول المدعي حكم داود على المدعى عليه وقال للمدعي: لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن هذا دأب الخلطاء الذين لا يخافون الله بخلاف المؤمنين الصالحين وهم قليل، فلما انصرفوا من عنده راضين بحكمه عاتب نفسه على الفزع منهم، وظن أنه فُتِن بسبب فزعه منهم عندما رآهم يتسورون المحراب، فخرَّ لله راکعاً وأتاب فغفر الله ما وقع منه.

وكان الله تعالى يقول لشيخ المرسلين وإمام المتقين وسيد أولي العزم محمد ﷺ: إياك أن تفزع من تهديدات قريش لك، واذكر قصة أخيك العبد الصالح الأواب داود ﷺ عندما تسور عليه المحراب متخاصمون ففزع منهم؛ فاعتذر إلى الله من هذا الفزع وظن أنه لا يليق بالنبين والمرسلين، فأنت أولى أن لا تفزع من قريش مهما تمالؤوا عليك وهددوك، فإن العاقبة الحسنی في الدنيا والآخرة لك، والله يعصمك من الناس، وليس في قصة داود في سورة ص ذكر حب وغرام واعتداء على امرأة رجل مؤمن في عصمة زوجها؛ بل لا ذكر للمرأة أبداً في هذه القصة، وإنما فيها ذكر النعجة، والعرب - كما ذكرت في مقدمة هذا الكتاب قصص الأنبياء في الفصل الثاني - لا يسمون المرأة نعجة، وإنما يطلقون النعجة على أنثى الضأن أو بقر الوحش فقط، ولا ترضى المرأة أبداً أن تُشبه بأنثى الضأن، ولكنها ترضى أن تشبه بنعاج الفلأ، أي بقر الوحش، فإذا شُبِّهت المرأة بالنعجة فإنما يراد بها المَهَا، وهي بقر الوحش على حد قول الشاعر في امرأتين:

هما نعجتان من نعاج تبالة لدى جوذرين أو كبعض دُمى هَكر

وتبالة مكان بين بيشة والنماص كانت توجد فيه بقر الوحش بكثرة،

وجوذرين ثنية جوذر، وهو ولد البقرة الوحشية، ودُمى هَكر: الدُمى جمع دُمية وهي صورُ الرخام، وهَكر موضع فيه هذه الصورة، ويقال هو دَيرٌ رومي أو قصر؛

فالمراة تفرح إذا شبهت ببقر الوحش لجمال عيونها؛ وحسن عنقها ولذلك قال الشاعر:

عيون المها بين الرُّصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري
وقال الآخر:

إن العيون التي في طرفها حور قَتَلْنَا ثُمَّ لَمْ يَحْيِينَا قَتَلْنَا
يَصْرَعَنَّ ذَا اللَّبِّ حَتَّى لَا حَرَكَ بِهِ وهن أضعف خلق الله إنساناً

والمعروف أن بقر الوحش لا يسرح تحت كفالة راع، فإطلاق النعجة على المراة ليس بالوضع العربي، وإنما يأتي على سبيل التشبيه ببقرة الوحش لا بأثني الضأن.

قال أبو حيان في تفسيره المعروف بالبحر المحيط عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجَّةً وَلِي نَجَّةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [ص: ٢٣] قال: والظاهر إبقاء لفظ النعجة على حقيقتها من كونها أثني الضأن، ولا يكنى بها عن المراة ولا ضرورة تدعو إلى ذلك، ثم قال أبو حيان: والذي يذهب إليه ما دل عليه ظاهر الآية من أن المتسورين المحراب كانوا من الإنس دخلوا عليه من غير المدخل، وفي غير وقت جلوسه للحكم، وأنه فزع منهم ظاناً أنهم يقاتلونه إذ كان منفرداً في محرابه لعبادة ربه، فلما اتضح له أنهم جاؤوا في حكومة وبرز منهم اثنان للتحاكم كما قص الله تعالى، وأن داود عليه السلام ظن أن دخولهم عليه في ذلك الوقت ومن تلك الجهة إنفاذ من الله له أن يقاتلوه، فلم يقع ما كان ظنه، فاستغفر من ذلك الظن، ولذلك أشار بقوله: ﴿فَفَقَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ ولم يتقدم سوى قوله: ﴿وَوَظَنَ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ ويُعلم قطعاً أن الأنبياء عليهم السلام معصومون من الخطايا لا يمكن وقوعهم في شيء منها ضرورة أن لو جوزنا عليهم شيئاً من ذلك بطلت الشرائع ولم نثق بشيء مما يذكرون أنه أوحى الله به إليهم. ١. هـ.

أما قول البخاري رحمته الله في كتاب أحاديث الأنبياء من صحيحه: يقال للمراة نعجة، ويقال لها أيضاً شاة، فقد أشار الحافظ ابن حجر في فتح الباري إلى أنه استقى ذلك من أبي عبيدة معمر بن المثنى حيث قال: قال أبو عبيدة في قوله: ﴿وَلِي نَجَّةٌ وَاحِدَةٌ﴾ أي امرأة، قال الأعشى:

فرميت غفلة عينه عن شاته فأصبت حبة قلبها وطحالتها
والمعروف عن أبي عبيدة معمر بن المثنى أنه كان يتأول بعض ألفاظ القرآن
على أن ذلك من مجاز القرآن، وقد أنكر عليه كثير من الأئمة في هذا السبيل،
وهو ليس من الثقات في نقل الأخبار، وإطلاق الأعشى لفظ الشاة على المرأة
إنما أراد بالشاة البقرة الوحشية تشبيهاً لها بها، وقد قال الحافظ الذهبي في تذكرة
الحفاظ لما ذكر أبا عبيدة معمر بن المثنى: وليس هو بصاحب حديث، بل سبق
قلمي بكتابه ١.٥ هـ.

وقد قال ابن كثير في قصة داود من البداية والنهاية: وقد ذكر كثير من
المفسرين من السلف والخلف هاهنا قصصاً وأخباراً أكثرها إسرائيليّات ومنها ما
هو مكذوب لا محالة تركنا إيرادها في كتابنا قصداً، اكتفاءً واقتصاراً على مجرد
تلاوة القصة من القرآن العظيم، والله يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم.

وقال في تفسيره بعد سياق الآيات: قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها
مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، ولكن
روى ابن أبي حاتم هنا حديثاً لا يصح سنده؛ لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن
أنس رضي الله عنه، ويزيد وإن كان من الصالحين لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة،
فلأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة وأن يرد علمها إلى الله عز وجل.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الثالث والستون

تابع: داود وسليمان عليهما السلام

أجزل الله تعالى لداود النعمة فأتاه الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ووهب له العبد الصالح والملك الكريم والنبي العظيم الأواب سليمان بن داود، وقد نشأ سليمان عليه السلام في حجر داود، وترعرع في بيت النبوة والملك، وعندما بلغ الحُلُم مآله الله حليماً أي أناة وعقلاً، وكان يحرص على مجالس حكم أبيه داود عليه السلام، ليشهد قضاءه بين الناس، وقد كان يشير أحياناً على أبيه بأنه لو كان هو القاضي في هذه القضية لحكم بغير ما حكم أبوه، وقد ذكر القرآن العظيم صورة من صور هذه القضايا، فذكر الله تبارك وتعالى في سورة الأنبياء قضية الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم، أي انتشرت فيه ليلاً بلا راع فأفسدت الزرع، فيُذكر أن داود قضى بالقيمة لصاحب الزرع، فقال سليمان عليه السلام: لو كنت أنا القاضي لقضيت بغير ذلك، فقال أبوه داود عليه السلام: بم كنت تقضي يا بني، قال: أدفع الغنم إلى أصحاب الزرع فينتفعون بألبانها ومنافعها، ويقوم أصحاب الغنم بإصلاح الحرث حتى يعود كما كان، فيردُّ إلى أصحابه وتردُّ الغنم إلى أصحابها، ففضلَّ الله تبارك وتعالى حكم سليمان، وذكر أنه فهمه الحكم في هذه القضية، ولا يحط ذلك من قدر داود عليه السلام؛ لأن فرحه بتوفيق ابنه للحكم في القضية لا يقل عن فرحه لو كان فهمها هو كذلك، ولذلك مدح الله تعالى داود وسليمان معاً فقال: ﴿وَكُلًّا ءَايَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ وليس حكم داود هنا خطأ، ولكن حكم سليمان في هذه القضية أولى منه، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَايَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٨ - ٧٩].

قال ابن كثير رحمته الله في تفسير هذه الآية: أما الأنبياء عليهم السلام فكلهم معصومون

مؤيدون من الله ﷻ. وهذا مما لا خلاف فيه بين العلماء المحققين من السلف والخلف، وأما من سواهم فقد ثبت في صحيح البخاري عن عمرو بن العاص أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر». ١. هـ.

كما قص رسول الله ﷺ صورة من صور حكم داود، ثم أظهر سليمان ﷺ أنه لو كان القاضي في هذه القضية لقضى بغير ذلك، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ قال: «كانت امرأتان معهما ابناهما جاء الذئب فذهب بابن إحداهما، فقالت صاحبتهما: إنما ذهب بابنك، وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك، فتحاكما إلى داود فقضى به للكبرى؛ فخرجتا على سليمان بن داود فأخبرته فقال: ائتوني بالسكين أشقهُ بينهما، فقالت الصغرى: لا تفعل يرحمك الله هو ابنها، فقضى به للصغرى».

وقد استمر داود في حكمه وملكه ما شاء الله تعالى، فلما أدركه الموت أرسل الله ﷻ سليمان ﷺ وجعله ملكاً كريماً ورسولاً عظيماً، وعلمه منطق الطير، وجعله أحد الأئمة من الرسل الذين أمر رسوله محمداً ﷺ بالاعتداء بهم.

وقد بدأ بذكر داود وسليمان بعد ذكر نوح عليه السلام في سورة الأنعام حيث يقول ﷻ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنعام: ٨٣ - ٨٤].

وبعد أن ذكر مجموعة من المرسلين قال لحبيبه محمد ﷺ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هُنَّ لِآئِنَّا فَكُنَّا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْتَدَهُ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنعام: ٨٩ - ٩٠]، ولذلك سجد رسول الله ﷺ في سورة «ص» لما قرأ

سجدة داود، فقد روى البخاري في صحيحه من طريق مجاهد قال: سألت ابن عباس (يعني عن سجدة ص) من أين سجدت؟ قال: أو ما تقرأ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ

وَسَلِّمَنَّ ﴿١٥﴾ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْهُمْ أَقْتَدَ﴾ [الأنعام: ٩٠] فكان داود ممن أمر نبيكم ﷺ أن يقتدي به، فسجدها داود ﷺ فسجدها رسول الله ﷺ.

وفي قيام سليمان ﷺ بعد أبيه بالملك والنبوة يقول تعالى في سورة النمل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥-١٦]، إذ المراد بالميراث هنا هو ميراث الملك والنبوة لا ميراث المال، ففي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «إنا معشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا فهو صدقة».

وكما أن اليهود كذبوا على داود ﷺ واختلقوا عليه أشياء كثيرة، فقد أكثروا من الكذب على سليمان ﷺ واتبعوا في ذلك الشياطين، وزعموا أن سليمان ﷺ كان يحكم بواسطة خاتمه السحري وأنه كان ساحراً، وأنه كان إذا دخل بيت الخلاء دفع الخاتم لزوجته لما فيه من ذكر الله حتى يخرج من الخلاء، وأن الشيطان جاء إلى امرأة سليمان في صورة سليمان فدفعت إليه الخاتم، فذهب الشيطان وجلس على كرسي الملك يحكم في بني إسرائيل، وأن سليمان لما خرج من بيت الخلاء قال لامرأته: هات الخاتم، فقالت: قد خرج سليمان قبلك وأخذه، وأنكرت سليمان، فهام سليمان على وجهه حتى عمل عند صياد، فكان الصياد يعطيه أجرته عن كل يوم سمكتين، كان يبيع سمكة يشتري بثمانها خبزاً، ويطبخ السمكة الأخرى، وأنه استمر على ذلك أربعين يوماً، ثم إن بني إسرائيل قاموا على هذا الشيطان الجالس على كرسي سليمان فهرب منهم - ولا أدري كيف لم ينفعه الخاتم - وألقى بالخاتم في البحر فابتلعه سمكة، ثم وقعت في شباك الصياد، فلما دفع لسليمان أجرته سمكتين باع واحدة وطبخ الأخرى وهي التي كان في جوفها الخاتم، فلما فتحها وجد خاتمه، فلبسه ورجع إلى ملكه.

والعجيب أن هذا الإفك تسرب إلى بعض أكابر أهل العلم فصدقوه حتى تجد أكثر كتب التفسير في قوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾ [ص: ٣٤] يقولون شيطاناً، وانتشر على السنة العامة والخاصة ذكر خاتم سليمان، وخواصه، مع

أن الله تبارك وتعالى نبّه في سورة البقرة إلى كذب اليهود على سليمان اتباعاً للشياطين في هذا الباب حيث يقول ﷻ: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيْطَانَ كَفَرُوا يَعْلَمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢] الآية، مع أن رسول الله ﷺ فسّر فتنة سليمان وإلقاء الجسد على كرسیه بأنه: حلف ليطوفن على مئة من نسائه فتحمل كل واحدة منهن بفارس يحمل السلاح ويجاهد في سبيل الله، ونسي أن يقول: إن شاء الله، فطاف عليهن فلم تحمل إلا واحدة جاءت بشق ولد، فأخذ وألقى على كرسیه فاعتذر إلى الله ﷻ فقبل الله معذرتة، وأنه ما طلب الولد تكثراً وافتخاراً وإنما ليقاتلوا في سبيل الله فقبل الله منه وأبدله ﴿الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ (٣٦) وَالشَّيْطَانُ كُلُّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ ﴿٣٧﴾ وَعَآخِرِينَ مُفْرَقِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿ص: ٣٦ - ٣٨﴾.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الرابع والستون

تابع: داود وسليمان

ذكرت في ختام الفصل أن رسول الله ﷺ فسّر قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: ٣٤] بقصة حلفه على أن يطوف على مئة من نسائه لتحبل كل واحدة منهن وتأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، ونسي أن يقول: إن شاء الله، فطاف عليهن فلم تحبل إلا واحدة جاءت بشق ولد فأخذ وطرح على كرسيه، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال سليمان بن داود: لأطوفن الليلة بمئة امرأة تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله، ونسي أن يقول: إن شاء الله، فأطاف بهن فلم تلد منهن امرأة إلا واحدة نصف إنسان، فقال رسول الله ﷺ: «لو قال: إن شاء الله لم يحنث، وكان دركاً لحاجته». وفي لفظ للبخاري: «فلم تحمل شيئاً إلا واحداً ساقطاً أحد شقيه»، فقال النبي ﷺ: «لو قالها لجاهدوا في سبيل الله»، فأعجب كيف ترك بعض العلماء هذا التفسير الثابت عن رسول الله ﷺ لفتنة سليمان وأتوا بأكاذيب اليهود والشياطين.

قال ابن كثير في قصص الأنبياء من البداية والنهاية: وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: ٣٤] ذكر ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما من المفسرين هاهنا آثاراً كثيرة عن جماعة من السلف، وأكثرها أو كلها متلقاة من الإسرائيليات، وفي كثير منها نكارة شديدة، وقد نبهنا على ذلك في كتابنا التفسير، واقتصرنا هنا على مجرد التلاوة. ١.٥.

وقد تفضل الله تبارك وتعالى على سليمان فمنحه الكثير من أسباب القوة، وعوّضه ما يزيد في قوته عن مئة ولد مجاهد فسخر له ﴿الرَّيْحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُطَاءَ حَيْثُ

أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيْطَانَ كُلَّ بَنَاءٍ وَعَوَاصِرِ ﴿٣٧﴾ وَعَآخِرِينَ مُقَرَّبِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْتَنُّ

أَوْ أَمْسِكَ يَغْيِرِ حِسَابٍ ﴿٣٦﴾ [ص: ٣٦ - ٣٩]. وكما أن الله أعزَّ منزلة سليمان في الدنيا فإنه أعد له في الآخرة درجة عالية وحسن مآب، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَّا يَبْغِي لِأَحَدٍ مِنِّي بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بِنَاءٍ وَعَوَاصٍ ﴿٣٧﴾ وَعَآخِرِينَ مُقَرَّبِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ يَغْيِرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِن لَّمْ عِنْدَنَا لُزْفٌ وَمُحْسَنٌ مَّتَابٍ ﴿٤٠﴾ [ص: ٣٤ - ٤٠].

وقد وصف الله تبارك وتعالى الريح التي سخرها لسليمان بما يفيد أنها تخضع لإرادة سليمان ﷺ، فإن أحب أن تكون لينة هادئة صارت كذلك، وإن أحب أن تكون عاصفة شديدة سريعة تقطع في الغداة أي من أول النهار إلى الزوال ما يقطع بالسير المعتاد في شهر، وتقطع في الرواح أي في الزوال إلى الغروب ما يقطع بالسير المعتاد في شهر أي ما يقارب ثمانين وأربع مئة ميل في رحلة الصباح ومثلها في رحلة المساء، وإلى ذلك كله يشير قوله تعالى في سورة (ص): ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦]، وقوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨١]، وقوله تعالى في سورة سبأ: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غَدُوهاً شَهْرٌ وَرَوَّاحهاً شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢].

وكما ألان الحديد لداود فقد أسال عين القطر لسليمان ﷺ، أي أذاب له عين النحاس والحديد، فصار النحاس والحديد يخرج من معدنه كالعين الجارية من الماء دون أن يُشعل عليه ناراً؛ تيسيراً له ومداً في أسباب قوته، كما سخر له الشياطين وهم مرده الجن فمن دونهم، يعملون بين يديه بأمر ربه خاضعين لا يجروا واحد منهم على الهرب من خدمة سليمان، ولو أراد الهرب لعجل الله بعقوبته، يعملون لسليمان ما يشاء من محارِب - أي قصور عالية مُمرَّدة من قوارير - فالمحراب القصر، وإطلاقه على ما يعرف باسم القبلة، وهي في العادة تجاويف في جدار المسجد من جهة قبلته للتعريف بها إطلاق المحراب على ذلك من الإطلاقات المحدثه التي لا يعرفها العرب، ومن الأخطاء الفاحشة كتابة قوله

تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران: ٣٧] على هذه التجاويف فإنها غير مرادة من هذه الآية الكريمة، كما كانت الجن تعمل لسليمان ما يشاء من التماثيل أي زخارف الجدران من صور الأشجار والزهور ونحوها، كما كانوا يصنعون قصاعاً كباراً كأنها الحياض يقدم فيها الطعام، كما كانوا يعملون له قدوراً لطبخ الطعام ثابتة لا تحرك من مكانها لضخامتها، كما كانت الجن تقوم بأعمال الغوص لاستخراج الجواهر، وفي ذلك كله يقول الله ﷻ في سورة الأنبياء: ﴿وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَنْ يَغُوصُونَ لَكُمْ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٢].

ويقول في سورة سبأ: ﴿وَأَسَلْنَا لَكُمْ عَيْنَ الْقَطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ يُأْذِنُ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ (١٧) ﴿يَعْمَلُونَ لَكُمْ مَا يَشَاءُ مِنْ تَحْرِيْبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ [سبأ: ١٢ - ١٣].

ويقول في سورة (ص): ﴿وَالشَّيْطَانِ كُلِّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ﴾ (٣٧) ﴿وَأَخْرَجَ مُقْرِنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ (٣٨) ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٣٩) ﴿وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا لُزْفَىٰ وَحَسَنَ مَّكَابٍ﴾ [ص: ٣٧ - ٤٠].

وكما سحر الله لداود الطير محشورة تُؤوَّبُ وتسبح الله بتسبيحه فكذلك سحر الطير لسليمان يجمعها متى شاء ويعلم لغاتها ولغات الحشرات، وفي ذلك يقول الله ﷻ في سورة النمل: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَتَاءَتِيهَا النَّاسُ عُلمَنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ (١٦) ﴿وَحَشَرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٦ - ١٧] (أي يُجمعون عنده ويسيروا بسيره ولا يتقدم أحد على مرتبته ولا يشذون عن إرادته).

وقد قصَّ الله تبارك وتعالى قصة إحدى هذه المسيرات، فذكر أنه مر بجنوده هؤلاء على وادي النمل، فسارعت نملة إلى نصيح جماعتها بالدخول في مساكنهم والابتعاد عن مسيرة سليمان وجنوده حتى لا يحطموهم دون علم منهم، فعرف سليمان لغتها وسمع نصيحها لقومها فضحك، وسأل الله تعالى أن يُوزعه شكر

نعمه التي أنعم بها عليه وعلى والديه، وأن يعمل صالحاً يرضاه الله، وأن يدخله برحمته في عباده الصالحين، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَنَبَسَ صَاحِبًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي ﴿١٩﴾ (أي ألهمني) ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٨، ١٩].

وفي قصة النملة لفت انتباه الناس إلى آيات الله في الكون، وما في العالم من أمم، وما لهذه الأمم من المعارف والسلوك، وما يكون في هذه العجماوات من التناصح وحب الخير لبعضها، فإن هذه النملة قد أمرت وحذرت، واعتذرت عن سليمان وجنوده بأنهم لا يتعمدون الإضرار بأحد، ولا شك أن الدارس لأخلاق النمل والنحل وغيرها من العوامل يجد آياتٍ شاهدةٍ بأنه رب كل شيء وسيده ومليكه، وأنه لا ينبغي الاعتداء على شيء من خلق الله بلا حق، ولذلك روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قَرَّصَتْ نَبِيًّا مِّنَ الْأَنْبِيَاءِ نَمْلَةً، فَأَمَرَ بِقَرِيَةِ النَّمْلِ فَأُحْرِقَتْ، فَأُوحِيَ اللَّهُ إِلَيْهِ: أَفِي أَنْ قَرَّصْتَكَ نَمْلَةً أَهْلَكَتَ أُمَّةً مِّنَ الْأُمَّمِ تُسَبِّحُ؟ فَهَلَا نَمْلَةٌ وَاحِدَةٌ».

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الخامس والستون

تابع: داود وسليمان عليهما السلام

كان سليمان عليه السلام شديد العناية بجنوده من الجن والإنس والطيور، وكان يتفقدهم ولا يغفل التفطيش عليهم ليطمئن على انضباطهم، وفي أثناء التفطيش تفقد الطير ولم يجد الهدهد فقال: ما لي لا أرى الهدهد؟ شيء يستره عني أم هو غير حاضر؟ فلما تأكد أنه غير موجود قال: لأعذبه عذاباً شديداً دون قتله أو لأقتلنه إلا إذا جاء بعذر مقبول يدفع العقوبة عنه، ولم تَطُلْ غيبة الهدهد حتى حضر إلى سليمان عليه السلام وبادهه بقوله: علمتُ ما لم تعلم وجئتك من أرض اليمن من مملكة سبأ بخبر عظيم قاطع لا شك فيه ولا ريب، إني رأيت امرأة تتولى مملكتهم، وقد أعطيت جميع أسباب ما يرغب في اقتنائه الملوك المقتدرون من الرغد والسعة والأبهة، ولها عرش فاخر، وجدتها مع قومها سبأ أبناء يشجب بن يعرب يعبدون الشمس ويسجدون لها من دون الله، وقد زخرف الشيطان لهم طريق الشرك، فصددهم عن الحق وحال بينهم وبين إخلاص العبادة لله وحده الذي لا يجوز لأحد أن يعبد شيئاً سواه، فهم بالرغم من انفتاح الدنيا عليهم وتقلبهم في نعماء الله لا يهتدون إلى توحيد الله، يا حسرة عليهم لماذا لا يسجدون لله وحده الذي يعلم غيب السموات والأرض، ولا يخفى عليه شيء فيها، ولو كانت الخبيثة مثقال ذرة في السموات أو في الأرض يأتي بها الله الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم.

وفي تهجين الهدهد لما تفعله ملكة سبأ هي وقومها من عبادة غير الله لفت انتباه الناس إلى تقرير الحقيقة الكبرى التي من أجلها خلق الخلق وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وأن الهدهد في هذا السبيل أعقل من كثير من الناس وأهدى. ولم يسارع سليمان عليه السلام إلى تصديق الهدهد أو تكذيبه، بل توقف في قبول خبره حتى يقف على حقيقة هذا الأمر، وكتب كتاباً فيه: ﴿مِنْ سُلَيْمَانَ﴾

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ وأمر الهدهد أن يكون هو الحامل لهذه الرسالة إليهم، فذهب الهدهد وألقى الرسالة على الملكة، ووقف يراقب: ماذا يكون من جوابهم على هذه الرسالة؟ وماذا استحدث من أثر فيهم، وكان ذلك بإرشاد سليمان ﷺ، فلما قرأت الملكة الكتاب جمعت أمراءها ووزراءها وكبار مستشاريها و﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوٓأَيُّهَا أَلْفَىٰ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٢٩ - ٣٠].

وقالت ملكة سبأ أيضاً: يا أيها الملأ اشيروا عليّ بما ترونه في هذا الأمر، فإني لا أقطع برأي ولا أستبد في أمر دون مشورتكم وأخذ رأيكم، فأجابوها بأنهم جميعاً يدّ واحدة أقوياء أشداء في الحروب، ورأيك مطاع وأمرك نافذ، فانظري أيّ رأي ترغبين فيه فنحن نسارع إلى طاعتك، ولا نعصي لك أمراً، فأخبرتهم أنها تميل إلى مصانعة سليمان، والتلطف معه ومحاولة اكتساب رضاه؛ لأن الملوك الأقوياء إذا تمكنوا من بلد واستولوا عليها بالحرب حصل على أهلها ذلّة وصغار وتخريب ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ﴾ [النمل: ٣٥]، وانتظر الجواب منهم مع رسلي الذين أرسلتهم بالهدية، فلما وصل رسول ملكة سبأ بالهدية وعرضها على سليمان ﷺ وكانت أموالاً جزيلة، فردها سليمان ﷺ ولم يقبلها و﴿قَالَ أَتَيْدُونَنِي بِمَالٍ﴾ [النمل: ٣٦] فما أنعم الله عليّ به من النبوة والمُلْك خير من جميع ما بأيديكم من زخارف الحياة الدنيا، إنما يفرح بما يقدم إليه من مثل هديتكم من كان من أهل المفخرة والمكاثرة بزخارف الحياة الدنيا، وقد أعطاني الله ﷻ ما لم يعطه لأحد من ملوك الدنيا المعاصرين لي وغيرهم، ثم أمر رسول ملكة سبأ بالرجوع بهديتها، وأعلمه أنه سيغزو بلادهم بجنود لا طاقة لأهل سبأ بها، وليخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون إن لم ينقادوا لأمر الله ويأتوني مسلمين قبل توجيهي بجنودي نحو بلادهم، وأراد سليمان ﷺ أن يضرب لها مثلاً محسوساً على قدرته بإذن الله عليها، فقال: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوٓأَيُّهَا أَلْفَىٰ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٨]، فأجابه عفريت من الجن قائلاً: أنا أتيك به قبل أن ينفض مجلسك هذا وإني عليه لقادر فلا يعجزني حملة، وأمين فلن أضيع شيئاً مما فيه من الجواهر، والعفريت هو القوي النافذ في

الأمر المبالغ فيه مع دهاء. ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ والظاهر أنه جبريل ﷺ؛ لأنه رسول الله بالكتاب إلى الأنبياء وهو يقرؤه عليهم قال: ﴿أَنَا إِلَٰهِيكُمْ بِهِ﴾ في وقت أسرع، وهو أن أحضر لك عرش الملكة قبل طرفة عين، وفي الحال رأى سليمان ﷺ العرش مستقراً أمامه، فأقبل سليمان على شكر الله تعالى والثناء عليه و﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَشَكَرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠]، وأراد سليمان ﷺ أن يبنه العباد إلى أنه يجب عليهم شكر الله عند تجدد النعم، وأنه لا يجوز لأحد أمده الله بأسباب القوة أن يخطر على باله بأن يثبت لنفسه حولاً أو قوة، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله. وهو على حد قول الشاعر: إياك أعني واسمعي يا جاري. ولذلك أتبعه بقوله: ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ عَنِّي كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

ولما علم سليمان أن ملكة سبأ توجهت إليه أمر بإدخال بعض التعديلات الطفيفة على العرش ليختبر ذكاءها وفطنتها، فلما جاءت ورأت العرش قيل لها: ﴿أَهَكَذَا عَرْشِي﴾ [النمل: ٤٢] ولم يقل: أهذا عرشك؟ لأنه لو قيل: أهذا عرشك فقالت: نعم؛ لم يكن نصاً في نجاحها في الاختبار، فلما قيل لها: ﴿أَهَكَذَا عَرْشِي﴾ أي أهو شبيه بهذا العرش، فأجابت إجابة الفطن الواعي ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ [النمل: ٤٢] فلم تثبت ولم تنف، ولكنها أكدت شدة الشبه بعرشها.

وفرح سليمان والمؤمنون بذلك وشكروا الله على أنهم أسبق منها بالعلم والإسلام، وكان قد صدها عن معرفة الله تعالى ما كان عليه قومها من عبادة غير الله، إنها كانت من قوم كافرين، فأمرها سليمان ﷺ بدخول الصرح، وكان قصراً مملساً بالزجاج، وأرضه مملسةً به حتى يحسبه من لا يعرفه ماءً كثيراً يحتاج إلى رفع الثياب عن الساق حتى لا تبتل الثياب، ولذلك رفعت الملكة ثيابها وكشفت عن ساقها، فأخبرها أنه ليس ماء وأنه ﴿صَرَخَ مُمَرَّدٌ مِّنَ قَوَارِيرَ﴾، فأيقنت أن ملكها الذي أوتيت فيه من كل شيء ضئيل بالنسبة إلى ما أعطاه الله لسليمان، وأعلنت إسلامها وانقيادها إلى أمر الله وطاعة سليمان ﷺ، وأقرت بأنها ظلمت نفسها عندما سجدت للشمس وعبدت غير الله ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الفصل السادس والستون

تابع: داود وسليمان

ساق الله تبارك وتعالى قصة تفقد سليمان الطير وما كان من الهدهد، وقصة ملكة سبأ، ورسالة سليمان عليه السلام إليها بواسطة الهدهد، وما كان بينها وبين قومها من حوار في الجواب، وما كان في شأن عرشها، ومجيئها إلى سليمان، وقصة الصرح الممرد بالقوارير، ودخولها في الإسلام حيث يقول عليه السلام في سورة النمل:

﴿وَنَفَقَدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٥﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٦﴾ فَمَكَتْ عِبرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحِطُ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ بِنَاٍ يُقِينِ ﴿٢٧﴾ إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَهَذَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٩﴾ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٣٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٣٦﴾ قَالَ سَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٧﴾ أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْفَيْهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٣٨﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنِّي أُلْفِي إِلَيْكَ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٤٠﴾ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأُتُوْنِي مُسْلِمِينَ ﴿٤١﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴿٤٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوْا قُوَّةٍ وَأُولُوْا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٤٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا آذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمِ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٤٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَهُ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَانِيَهُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ فَخْرُونَ ﴿٤٦﴾ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِيْلَ لَهُمْ بِهَا وَنَخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا آذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٤٧﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَتِيَنِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٤٨﴾ قَالَ عَفِيْتُ مِنَ الْجَعَنِ أَنَا ءَانِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٤٩﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ

مَنْ الْكَتِيبِ أَنَا وَإِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكَرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرُ أَتَهْدِينِ أَمْ تَتَّكِبِينَ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ [النمل: ٢٠ - ٤٤].

كما ذكر الله تبارك وتعالى صورة أخرى من صورة اهتمام سليمان بآلات الحرب، فذكر حرصه على تفقد الخيل لما لها من أثر كبير في قتال أعداء الله، فأشار تبارك وتعالى إلى أنه قد عُرضَ على سليمان في وقت العشي وهو ما بعد الزوال إلى الغروب الخيلُ الصافنات، وهي التي إذا كانت واقفة قامت على ثلاث قوائم منها، ثم جعلت الرابعة من قوائمها - أي يديها ورجليها - على طرف الحافر استعداداً للجري، وكانت هذه الخيل كلها مختارة من الجياد السريع السوابق، فأخذ ساستها في عرضها على سليمان، وبدأت مسيرة أولها من أمامه حتى غاب آخرها عنه إما بسبب انتهاء البصر أو بسبب حاجز آخر من جبل أو غيره، فقال لساستها والمسؤولين عن رعايتها وملاحظتها: ردوها عليّ، فردوها عليه، وكانت قد أصابها الغبار وظهر في سوقها وأعناقها؛ لأنها يكثر فيها العرق فيلصق به الغبار، فأخذ سليمان ﷺ من شدة عنايته بها وحرصه عليها ولتنبهه الناس إلى فضلها؛ «لأنها معقود في نواصيها الخير»، أخذ يمسح بيديه سوقها وأعناقها ليبعد الغبار عنها، وكان قد قال لمن حوله عند عرض الخيل عليه: إني أحببت الخير حباً شديداً عن ذكر ربي، أي أحببت الخيل حباً عظيماً بسبب أن الله تعالى أثنى لي عليها ومدحها لي ونبهني إلى فضلها، والخيل يطلق عليها اسم الخير، لكثرة خيرها، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة» كما رواه البخاري من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، ولا ينبغي أن يخطر على بال مسلم أن قوله: «أَحَبُّتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنِ ذِكْرِ رَبِّي» [ص: ٣٢] أنه

أحب الخيل، على صلاة العصر وكان قد ضيَّع صلاة العصر بسبب عرضه للخيل، فهذا كذب مفترى على سليمان عليه السلام، وأنت قد تقول: أنا أحببت أبا بكر عن محمد رسول الله ﷺ وتعني أنك أحببت أبا بكر ﷺ بسبب حب رسول الله ﷺ له، وعن طريق ذكره وثناؤه عليه ﷺ فلا يخطر ببال مسلم أنك تريد أنك تحب أبا بكر أكثر من رسول الله ﷺ إذ هذا المعنى لا يخطر ببال مسلم.

وقد ذكر الله تبارك وتعالى قصة عرض الخيل على سليمان في سورة (ص) حيث يقول: ﴿إِذْ عُرِّضَ عَلَيْهِ بِالْعَنِيِّ الصَّفِينَتِ الْأِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾ [ص: ٣١ - ٣٣] أما إرجاع الضمير في قوله تعالى: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ إلى الشمس أو أنه طلب من الملائكة إرجاع الشمس حتى يصلي العصر مع أنه لا ذكر للشمس ألبتة في هذا السياق الكريم، فهو من دسائس اليهود، وقولُ على الله بلا علم.

هذا وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أن التسلط على الجن قد اختص الله تعالى به نبيه سليمان عليه السلام إجابة لدعوته حيث قال تعالى عن سليمان عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾﴾ [ص: ٣٥ - ٣٧] فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عن النبي ﷺ قال: «إن عفريتاً من الجن تفلت عليّ البارحة ليقطع عليّ صلاتي فأمكنني الله منه فأخذته، فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم فذكرت دعوة أخي سليمان ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ فرددته خاسئاً».

وقد استمر سليمان بن داود عليه السلام في تسخير الجن يعملون بين يديه بإذن ربه، وأراد الله ﷻ أن يبطل دعوى بعض الناس أن الجن يعلمون الغيب، وأنهم قادرون على التسلط على الناس، حتى كان بعض أهل الجاهلية إذا نزلوا وادياً استعاذوا بشيوخ الجن من سفهائهم، يقولون نعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه، كما قال الله تعالى في ذلك: ﴿وَأَنَّهُمْ كَانُوا رِجَالًا مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦] أراد الله ﷻ أن يضرب مثلاً على أن الجن لا يعلمون

الغيب، فقبض سليمان بن داود عليه السلام وهو قائم يراقب أعمال الجن بين يديه، وقد اتكأ على منسأته أي عصاه، وقد مات وهو قائم ممسك بعصاه، والجن في أشغاله الشاقة بين يديه لا يعلمون أنه مات، حتى أراد الله إظهار موته فسلط دابة الأرض وهي الأرضة فأكلت العصا من أسفلها، فلما سقط على الأرض أيقن الإنس والجن أنه مات، وعلمت الجن أنهم لا يعلمون الغيب، إذ لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في هذا العمل الشاق، وفي ذلك يقول الله تعالى ﴿فَلَمَّا فَصَّيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤] سلام على سليمان في المرسلين. والحمد لله رب العالمين.

والى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل السابع والستون

زكريا ويحيى

نتحدث إليكم عن رسولين كريمين من رسل الله المسارعين في الخيرات الداعين إلى الله رغباً ورهباً، الخاشعين لله وهما زكريا ويحيى عليهما السلام، وقد أورد الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم ذكر زكريا ويحيى بعد سنين قليلة من بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث صدر بهما سورة مريم، وقد نزلت قبل هجرة جعفر بن أبي طالب ومن معه إلى الحبشة، كما أورد الله تبارك وتعالى ذكر زكريا ويحيى في سورة الأنبياء. وهي مكية أيضاً، كما ذكرهما في سورة الأنعام في جملة المرسلين، وسورة الأنعام من السور المكية كذلك، كما ذكرهما الله تعالى في سورة آل عمران وهي مدنية، وقد دار ذكرهما في سورة مريم والأنبياء وآل عمران لإظهار قدرة الله تعالى على كل شيء، وأنه لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض، وأن نواميس الكون تجري بإرادته لا بطبائعها، إذ هو ربُّ كل شيء وسيده ومليكه والمهيمن على شؤون عباده، يؤيد أوليائه، ويستجيب دعاءهم وينصرهم على أعدائهم ويجعل العاقبة الحسنى لهم؛ ليثبت بذلك فؤاد رسول الله ومن معه من المؤمنين، إذ إنه خلق آدم من غير أب ولا أم، وخلق حواء من غير أم، وخلق عيسى من غير أب، وأعطى إبراهيم ولدًا وهو شيخ كبير من زوجته العجوز التي تجاوزت سنَّ اليأس ولا تحمل امرأة مثلها في العادة، كما أنه منح عبده الصالح زكريا ولده يحيى وكان زكريا قد بلغ من الكبر عتياً، أي قطع في الشيخوخة شوطاً كبيراً، وقد وهن العظم منه واشتعل رأسه شيباً، وهو مظهر من مظاهر تحول الإنسان من القوة إلى الضعف على حد قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٥٤] وعلى حد قول ابن دريد في مقصورته:

أما ترى رأسي حاكي لونه طرّة صبح تحت أذيال الدُّجَا

واشتعل المبيض في مسوده مثل اشتعال النار في جمر الغضا

ومع أن زكريا قد صار إلى هذا الحال من الكبر فإن زوجته كانت عاقراً في شبابها، فلم تحمل أيام شبابها وقد صارت عجوزاً تجمع بين السبيين المنافيين للحمل عادة، والظاهر من سياق القرآن العظيم يشعر أن زكريا عليه السلام كان مشغول القلب بذكر صلاح بني إسرائيل، وأنه كان يرى تعنتهم كشأنهم مع الأنبياء والمرسلين، وأنه كان يخشى أن يشتد انحرافهم عن الصراط المستقيم بعد وفاته، وقد وهن عظمه، وبلغ من الكبر عتياً، ولم ير في قومه من هو أهل لحمل الرسالة بعده، ونظراً إلى أن زوجته كانت عاقراً فمن غير المعتاد أن تلد مثلها، فاهتم بذلك اهتماماً شديداً، وقد كانت زوجته أخت مريم ابنة عمران والدة عيسى ابن مريم أو كانت خالتها، وقد مات والد مريم، وتخاصم بنو إسرائيل فيمن يكفلها بعد أبيها، واقترعوا على ذلك فوقع لزكريا عليه السلام. فكفلها زكريا، ووضعها في قصره، وقد لاحظ عليه السلام أنه كلما دخل على مريم في مكانها من قصره ﴿وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمُرُّمُ أَنَّ لِي هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧]، وسرعان ما تداعت معاني هذه الحقيقة في نفسه مع ما يتمناه من أن يُمَنَّ الله عليه بولد صالح يسوس بني إسرائيل، وإن كانت أسباب ولادة ولده من زوجته الصالحة هذه مفقودة، فهو شيخ كبير وامرأته عاقرة، غير أن الرزق الذي منحه الله لمريم حرّك في نفسه الأمل أن يرزقه الله ولداً مع انقطاع الأسباب، فدعا ربه بصوت خافت، وقام يصلي في قصره وقال في دعائه: رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء، وقال: رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً، وقد عودتني أن تجيب دعائي ولم أكن بدعائك رب شقياً. وإني خفت وأشفتت على بني إسرائيل أن يفسدهم من يتولى أمرهم من بعدي، وكانت امرأتي في شبابها عاقراً وأنت على كل شيء قدير، فهب لي من عندك وامنحني ولداً يرث النبوة والحكم من بعدي، كما يرث ذلك من آل يعقوب، واجعله رب رضيعاً، فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بغلام اسمه يحيى لم يجعل الله له من قبل سمياً، يكون مصدقاً بكلمة من الله

وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين، قال: كيف يجيئني الولد وأنا وزجتي بهذا الحال، قال كذلك الله يخلق ما يشاء، وقد خلقك الله من قبل ولم تك شيئاً، قد جئت إلى بطن أمك نطفة لا أثر فيها لصورة الإنسان.

فسأل الله ﷻ آية يعرف بها أن الولد قريب الحصول، قال: آيتك أن تعجز عن النطق لمدة ثلاثة أيام وأنت صحيح سوي، فخرج على قومه من المحراب؛ فأشار إليهم أن سبحوا الله بكرة وعشياً، ومنحه الله يحيى، وسرعان ما شب يحيى ﷺ وأعطاه الله الحكم صبياً، وتفضل الله عليه بمنح كثيرة، ومنحه السلام عند ولادته وعند موته وعند بعثه، وفي ذلك يقول الله ﷻ في سورة مريم:

﴿كَهَيْصَ ١﴾ ذَكَرْ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا ٢ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ٤ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ٥ يَرَبُّنِي وَيَرْبُّ مِنْ أَلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ٦ يَزَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ٧ قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ٨ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَئِنِّ وَقَدْ خَلَقْتَنكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ٩ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ١٠ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ١١ يَبْيَحِي خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَايْتِنَهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ١٢ وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَرِزْقًا ١٣ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ١٤ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُعْثَرُ حَيًّا ﴿مريم: ١ - ١٥﴾.

وقال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ٨٩﴾ فَأَسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْحَزِينِ وَيَدْعُونَنَا رِعْبًا وَرَهْبًا وَكَانُوا لَنَا خِشَعِينَ ﴿الأنبياء: ٨٩ - ٩٠﴾.

وقال في سورة الأنعام: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾

﴿الأنعام: ٨٥﴾.

وقال في سورة آل عمران: ﴿فَنَقَبَلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولِ حَسَنِ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَلَهَا زَكْرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرُومُ أَنَّى لَئِبٌ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكْرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَادَّعَاهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٣٧ - ٤٠].

وقد ذكر رسول الله ﷺ أن زكريا كان يحترف النجارة، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: كان زكريا نجاراً. وقد وصف رسول الله ﷺ يحيى وعيسى بأنهما ابنا خالة، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة أن نبي الله ﷺ حدثهم عن ليلة أُسْرِي به قال: ثم صَعِدَ حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الثَّانِيَةَ فَاسْتَفْتَحَ قَيْلٌ، مِنْ هَذَا؟ قَالَ جَبْرَيْلُ، قَيْلٌ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قَيْلٌ: أَوْ قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَيْلٌ: مَرْحَبًا بِهِ وَلِنَعْمِ الْمَجِيءِ جَاءَ، قَالَ: فَفَتَحَ لَنَا، فَلَمَّا خَلَصْتَ فَإِذَا يَحْيَى وَعَيْسَى وَهُمَا ابْنَا الْخَالَةِ، قَالَ: هَذَانِ يَحْيَى وَعَيْسَى فَسَلِمَ عَلَيْهِمَا، فَسَلِمْتَ، فَرَدًّا السَّلَامَ، ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ.

هذا، وما ذكر عن يحيى عليه السلام بأنه كان لا قدرة له على المباشرة أخذاً من قوله تعالى: ﴿وَحَصُورًا﴾ [آل عمران: ٣٩] فهو قول لا دليل عليه، ولم يثبت عن رسول الله ﷺ من طريق صحيح، وهو نقص في الرجولة ينزه الله أنبياءه عنه، مع أن الحصور يطلق على معانٍ كثيرة، إذ يستعمل في الذي لا يقوى على قربان النساء وعلى الضيق الصدر، وعلى الذي يصون نفسه من الخطايا والدنس، وهذا الأخير هو اللائق بيحيى عليه السلام.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الثامن والستون

المسيح ابن مريم ﷺ

تحدث إليكم عن عبد الله ونبيه ورسوله، وأحد أولي العزم من المرسلين، المسيح عيسى ابن مريم كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه، العبد المنعم عليه، المجمعول مثلاً لبني إسرائيل، المخلوق من غير أب، الآية ابن الآية عليه الصلاة والسلام، ولما كانت اليهود والنصارى قد ضلوا في المسيح ضلالاً كبيراً، فادعت اليهود أنه ولد زنا وأن أمه زانية، وقالوا على مريم بهتاناً عظيماً، كما أن النصارى أفرطوا فيه فجعلوه ابناً لله، واتخذوه وأمه إلهين من دون الله، وجاؤوا بقول تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً، أن دعوا للرحمن ولداً، وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً، إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً؛ لذلك بسط الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم قصة ولادة أمه مريم العذراء البتول، الطيبة الطاهرة، سيدة نساء العالمين، فذكر ما كان من أمها عندما حملت بها، وأنها نذرت لله ما في بطنها محرراً، أي خالصاً مفرغاً للعبادة وخدمة بيت المقدس، وقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: ٣٥]، فلما ولدت، ورأت أن مولودها أنثى توجعت لفوات مقصودها، حيث إن الأنثى لم تجر العادة عندهم أن تتفرغ لخدمة بيت المقدس، فأظهرت ضراعتها لله، وقالت: رب إنني وضعتها أنثى والأنثى ليست كالذكر في خدمة بيت المقدس مع يقينها أن الله تعالى لا تخفى عليه خافية، وأنه يعلم ما وضعت، وقد سميتها مريم، وطلبت من الله أن يعصمها ويحرسها ويحفظها ويصونها هي وذريتها من الشيطان الرجيم، وقد تقبل الله تبارك وتعالى من أم مريم بقبول حسن كريم وأنبت مريم نباتاً حسناً كريماً.

وقد كان عمران والد مريم الذي سميت سورة من القرآن العظيم باسم آله،

وهي سورة آل عمران، وليس له من آل سوى مريم وابنها المسيح ﷺ قد كان عمران هذا موصوفاً بالتقوى في بني إسرائيل، ومحبوباً لدى كُبرائهم، كما كانت زوجته أم مريم كذلك، وقد أشاد الله تعالى بذكرهم في الصالحين حيث قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّتَهُ بَعْضَهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿آل عمران: ٣٣ - ٣٤﴾ ونظراً لموت عمران هذا وحاجة مريم إلى من يقوم بكفالتها بعد أبيها، وقد ألقى الله محبتها في قلب كل من رآها، فرغب كل واحد من كبراء بني إسرائيل في القيام بكفالتها، وتنازعوا في ذلك حتى اقتنعوا أيهم يكفل مريم، وكفلها الله تبارك وتعالى نبي بني إسرائيل وقتئذ وهو زكريا ﷺ، وكان زوجاً لأختها أو خالتها؛ فخرج السهم في الاقتراع له، فأمسكها في قصره. وجعلها تحت عنايته ورعايته، وقد لاحظ زكريا ﷺ أنه كلما دخل عليها القصر وجد عندها ألواناً من الرزق، لم يجلبها له، ولا علم له بمصدرها، فاستغرب ذلك وخاطبها قائلاً: يا مريم أتى لك هذا؟ أي من أين جاءك هذا الرزق؟ قالت: هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب، ولما اكتملت أنوثة مريم في طهارة وعفاف، وعبادة واستقامة، خاطبتها الملائكة لتثيبتها على أعلى درجات السلوك، وقالت لها: ﴿يَمْرِيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَأَصْلَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِيْنَ ﴿٤٢﴾ يَمْرِيْمُ أَقْنِي رِبِكِ ﴿آل عمران: ٤٢ - ٤٣﴾ أي أديمي الخشوع له، وأثبتي على طاعته، واسجدي واركعي له لتتدرجي في سلك عباده الصالحين القانتين الراكعين الساجدين، وقد ذكرت في الفصل الرابع والأربعين من هذا الكتاب أنه لا يلزم من مجيء الملك لعبد من عباد الله الصالحين أن يكون نبياً أو رسولاً، عند الكلام على معنى الوحي في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرًا مِّن مَّا أَنزَلْنَا وَإِذْ أَخْبَرْنَا مَرْيَمَ بِحَدِيثِ ابْنِهَا وَكَانَ صِدْقًا وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [القصاص: ١٧]. وضربت لذلك مثلاً بما ورد في الحديث المتفق عليه عند الشيخين البخاري ومسلم في قصة الأعمى والأقرع والأبرص ومجيء الملك إلى كل واحد منهم، كما سُقت الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة ؓ في قصة الرجل الذي زار أخاً له في الله فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكاً... إلخ الحديث.

وبيّنت أن من هذا النوع مخاطبة الملائكة لمريم أم المسيح ﷺ، وفي قصة ميلاد مريم ونشأتها يقول الله تبارك وتعالى:

﴿إِذْ قَالَتْ أُمَّرَأْتُ عَمْرَنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُ أَنَّىٰ لَكَ هَذَا قَالَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُرِزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: ٣٥ - ٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَمْرَيْمُ اقْنُصِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٢ - ٤٤].

وقد أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مولود يولد إلا مسّه الشيطان حين يولد فيستهل صارخاً من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها». ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦] وفي لفظ لمسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان فيستهل صارخاً من نخسة الشيطان إلا ابن مريم وأمه» ثم قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾. وفي لفظ لمسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كل بني آدم يمسه الشيطان يوم ولدته أمه إلا مريم وابنها».

وقد وصف الله تبارك وتعالى مريم بنت عمران بأنها صديقة حيث يقول ﷻ: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥]، وفي قوله تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ إشارة إلى بشريتهما وأنها ليسا إلهين؛ فالذي يأكل الطعام من شأنه أن يبول

ويتغوط، ومن كانت هذه حاله لا يليق بعاقل أن يجعله إلهاً، وقد جمع الله تبارك وتعالى في هذه الجملة الكريمة أشرف ما لعيسى وأمه من نعوت الكمال البشري. إذ أثبت لعيسى الرسالة ولأمه الصديقية، ثم ذكر الوصف المشترك بينهما وبين جميع أفراد البشر من أنهما يأكلان الطعام.

والى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل التاسع والستون

تابع: المسيح ابن مريم ﷺ

أكد الله تبارك وتعالى اصطفاء مريم حيث قال: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢] ومعنى قوله: ﴿اصْطَفَاكِ﴾ أي اختارك واجتباك وفضلك. وهذا يحتمل أن تكون أفضل نساء زمانها، كقوله تعالى في بني إسرائيل: ﴿يَبْنَؤُا إِسْرَائِيلَ﴾ [البقرة: ٤٧]، وكما قال ﷺ في بني إسرائيل: ﴿وَلَقَدْ أَحْزَنَلَهُمْ عَلَى عِلْمِي عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢]، ويحتمل أن تكون أفضل نساء العالمين قاطبة، وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد»، كما روى البخاري ومسلم في صحيحيهما واللفظ للبخاري من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام، كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون».

كما روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نساء قريش خير نساء ركب الإبل، أحناه على طفل، وأرعاه على زوج في ذات يده»، يقول أبو هريرة على إثر ذلك: ولم تترك مريم بنت عمران بعيداً قط. وهذا يشعر أنه لا معارضة بين هذه الأحاديث الصحيحة الثابتة وبين ما يقتضي تفضيل مريم على عموم نساء العالمين، فحديث أبي هريرة يفيد تفضيل نساء قريش على من ركب الإبل من النساء، ومريم لم تترك الإبل قط، فلا تكون نساء قريش أفضل منها، وحديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه يشعر بتفضيل مريم على خديجة رضي الله عنها بقريئة تقديم مريم عليها في

الذكر، وإن كانت الواو العاطفة لا تقتضي ترتيباً ولا تعقيباً كما هو مقرر في أصول الفقه، وحديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه يحصر كاملات النساء في مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون، ويشعر بتقديم مريم على آسية رضي الله عنها، والعلم عند الله عز وجل.

وكما بسط الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم قصة ولادة مريم وتنشئتها كما ذكرت في الفصل السابق فقد بسط الله تبارك وتعالى قصة حمل مريم بالمسيح عليه السلام في غير موضع من كتابه الكريم، فذكر بشارة الملائكة لمريم بالمسيح عليه السلام، وأنه كلمة من الله، أي تحبل به من غير أب، بل بكلمة من الله، أي يقول له: كن فيكون؛ ليكون آية على أن الله لا يعجزه شيء، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، وقد يقترن أمر الله الكوني بسبب من الأسباب كحمل جميع النساء المعتاد. وقد لا يقترن بالسبب كخلق آدم من تراب بلا أب ولا أم، وكخلق حواء من ضلع آدم بلا أم؛ ولذلك قال في عيسى عليه السلام: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وذكرت الملائكة لمريم في بشارتها بالولد أن اسمه المسيح عيسى ابن مريم، فينسب إلى أمه؛ لأنه لا أب له، وأنه روح من الله، أي من الأرواح التي ابتداءً الله تعالى خلقها كما يشاء، وأنه يكون وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين، ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين، أي يكون المسيح عليه السلام له مكانة ووجاهة عند الله، وعند الناس في الدنيا والآخرة، ويكون من الذين أخلصهم الله تعالى لعبادته وحده لا شريك له، وقربه وأعلى منزلته، ويتكلم وهو في المهد، أي في فراش ولادته، فيقر بطهارة أمه وعفافها وأنه عبد الله، وأن الله قدر إيتاءه الإنجيل، وقدر نبوته وجعله مباركاً أينما كان، وأوصاه بالصلاة والزكاة ما دام في دار التكليف، وأنه يكون باراً بوالدته ولن يكون جباراً شقيماً، وأن السلام عليه يوم ولادته ويوم موته ويوم يبعث حياً، كما أنه يدعو بني إسرائيل إلى وجوب إخلاص العبادة لله وحده في وقت كهولته، وريعان شبابه، واكتمال قوته.

وكما وصف الله تبارك وتعالى مجيء جبريل إلى مريم بالبشارة بهذا الولد

وأنها كانت وقتها قد انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً، أي انفردت وحدها شرقيّ المسجد الأقصى أو شرقي منزل أهلها لقضاء حاجة من حوائجها الخاصة بها التي لا تحب أن يراها عليها أحد من خلق الله، فجاءها الروح الأمين جبريل ﷺ في صورة رجل صبيح جميل مكتمل، فلما رأته مقبلاً عليها وهي على هذه الحالة قالت له: إني أعود بالله وأستجير به وألتجئ إليه من أن ينالني منك أذى، إذا كان عندك خوف من الله فاطر السموات والأرض المنعم المتفضل على عباده فلا تقترب مني، ولا يحفظني ويعصمني منك إلا أرحم الراحمين، فأخبرها جبريل أنه رسول ربك وسيدك ومالكك مصلح ما في السموات وما في الأرض فلا تخافي مني، ولست بشراً، وإنما أنا ملك بعثني الله إليك لأنفخ فيك لتلدي غلاماً زكياً، قالت: كيف يكون لي غلام أو يوجد لي ولد وأنا لست متزوجة ولا منحرفة، فأجابها جبريل ﷺ عن تعجبها من وجود ولد منها وهي على هذه الحالة فقال لها: كذلك قال ربك. أي قدر أنه سيكون منك غلام ولست بذات بعل ولا منحرفة، وأن هذا هين على الله وسهل عليه ويسير لديه، فهو على كل شيء قدير، وليكون ولدك آية للناس ودليلاً جليلاً وبرهاناً قاطعاً على كمال قدرة الله على كل شيء، وأنه آية من آيات الله على إقامة الخلائق وبعثهم يوم القيامة، وهو علم للساعة، كما أنه رحمة من الله يرحم بها العباد بأن يدعوهم إلى الله في صغره وكبره وطفوليته وكهوليته، ويدلهم على مراسيم سعادتهم في الدنيا والآخرة والعاجلة والآجلة، حتى ينزهوه عن اتخاذ الصاحبة والولد والشريك والند والخذ والنظير. وكان أمر الله مقضياً، وحتماً كائناً لا محالة.

فنفخ جبريل نفخة دخلت في فرجها، فحملت بالمسيح ﷺ، غير أنها لما حملت بدأت تضيق ذرعاً لعلمها أن الناس سيتهمونها بالانحراف، ويقعون في عرضها، ولا يصدقونها فيما تخبرهم به من واقع الحال، ولما جاء وقت ولادتها أوجعها المخاض إلى جذع النخلة، أي ألجأها واضطرها الطلق ووجع الولادة إلى أن تعجى إلى جذع النخلة؛ لتستتر به ولتحتضنه لتقوى على الوضع، وقالت وهي في كُرْبها: يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً، وليس هذا جزءاً من

قضاء الله، ولكنها كربة النفاس مع كربة ما تعرفه من سفاهة المكذبين بآيات الله، وماذا سيقولون عنها، والوقوع في الأعراض الكريمة أشد عليها من الموت، وقد قرئ: نَسِيًّا مَنْسِيًّا، وقرئ نَسِيًّا مَنْسِيًّا، وهما بمعنى واحد كالوتر والوتر، والنسي المنسي هو ما يُرْمَى به من خرق الحيض وقطع الحبل ونحوهما مما يُتْرَك ولا يلتفت إليه لحقارته، وعندما وضعت مريم المسيح ﷺ ناداها من تحتها أن لا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل السبعون

تابع: المسيح ابن مريم ﷺ

ذكرت في ختام الفصل السابق أن مريم عندما وضعت المسيح ﷺ ناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً، وقد قرئ في السبعة بفتح الميم من (مَنْ) وكسرهما أي قرئ فناداها مِنْ ﴿تَحِنَّا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ وقرئ: فناداها مَنْ ﴿تَحِنَّا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ ﴿٢٤﴾ وَهَزَيْتِ إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ سُقُوطَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَأَشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرِينِ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ [مريم: ٢٤ - ٢٦]، والذي نادى مريم هو جبريل ﷺ وكان في مكان أسفل منها، وقيل هو عيسى ﷺ والأول أظهر، والسري هو النهر، قال في المصباح: السري: الجدول وهو النهر الصغير، وقال في الصحاح في السري: نهر صغير كالجدول، وقال في القاموس المحيط: وكعُنْيِي، نهر صغير يجري إلى النخل، قيل: وسمي النهر سرياً لأن الماء يسري فيه. وقيل: المراد بالسري هنا هو السيد الشريف، والمراد به عيسى ﷺ، قال ابن كثير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: والصحيح الأول لقوله: وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنياً. فذكر الطعام والشراب؛ ولهذا قال: ﴿فَكُلِي وَأَشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾. ١. هـ.

وفي قوله تعالى: ﴿وَهَزَيْتِ إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ سُقُوطَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: ٢٥] دليل على أنه ينبغي للإنسان الصالح أن يأخذ بالأسباب مع توكله على الله ولا يتواكل، وقد أمرت مريم بهز جذع النخلة مع ما هي فيه من حالة النفاس والولادة؛ لما يجلبه لها ذلك من نسيان أحزانها وآلامها التي تتوقعها من ملاقة قومها؛ علماً بأن الله كان يسوق لها الرزق في أول حياتها من غير سبب، كما أن قدرتها على هز الجذع محدودة، فعليها أن تهز الجذع وعلى الله إسقاط الرطب.

ومعنى قوله: ﴿وَقَرَى عَيْنًا﴾ [مريم: ٢٦] أي طيبي نفساً، فلا تجعلني للحزن إلى نفسك سبيلاً، وأمرها كذلك أنها إذا رأت بشراً تمتنع عن الكلام وتفهمه بالإشارة أو نحوها أنها نذرت للرحمن صوماً أي إمساكاً عن الكلام فلن تكلم اليوم إنسياً، فاطمأن خاطرها، وأكلت من الرطب الجني، وشربت من السري، وقرت عينها بمولودها، فجاءت به إلى قومها وهي تحمله، فلما رآها تحمله وعليها آثار وضعه قالوا: يا مريم لقد ارتكبت أمراً منكراً فظيماً، وفعلت فاحشة بشعة، كيف ترتكبين جريمة الزنا يا أخت هارون وأنت ابنة عمران الصالح وأمك كانت من الصالحات؟ وقولهم لها: يا أخت هارون: يحتمل أنه كان رجلاً صالحاً في زمانها من أهلها، وكانت تُشَبِّهُ به في الصلاح والعبادة قبل مجيئها بعيسى، أو أنه كان رجلاً فاسداً معروفاً لديهم بالانحراف فشبهوها به، والظاهر الأول؛ لما رواه مسلم في صحيحه من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران فقالوا: أرايت ما تقرؤون؟ يا أخت هارون. وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟ قال: فَرُحْتُ فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم؟» وهذه الشبهة الداخضة التي أثارها بعض نصارى نجران ونسب إلى محمد بن كعب القرظي الإسرائيلي أنه زعم أن مريم أم المسيح هي أخت موسى وهارون عليهما السلام، وهذا من أفحش الخطأ الذي نسب إلى محمد بن كعب القرظي، ولا يزال يشبه بها بعض أعداء الإسلام على بعض الأغرار في بعض البلدان المحاربة للإسلام إلى اليوم، ولما أشارت مريم إلى طفلها المسيح ﷺ ازدادوا استغراباً واستنكاراً وقالوا لمريم: «كيف نكلم من كان في المهد صبياً، فنطق عيسى ﷺ وتكلم بما يقطع السنة أعداء الله وأعداء المرسلين، وقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ﴾ [مريم: ٣٠] أي قضى وحكم بأن ينزل عليّ الإنجيل ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ (٣٠) ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ (٣١) ﴿وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ (٣٢) ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٠ - ٣٣].

فأقر بالعبودية لله وحده ونزّه جناب الله عن قول الظالمين في زعمهم أنه ابن الله. بل هو عبده ورسوله وابن أمته البتول الطيبة الطاهرة، وبراً أمه مما نسبها إليه الحاقدون والجاهلون وقذفوها به، إذ كان نُظْمُهُ وجوابه تبرئة لها من كل بهتان.

وفي قصة حمل مريم بالمسيح ﷺ وولادته يقول الله ﷻ في سورة آل عمران: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٥ - ٤٩].

وقال تعالى في سورة مريم: ﴿وَأذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انبَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْفِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْئٍ وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَوَدَّعَهَا مِنْ نَحْوِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهَرَىٰ إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقُ عَلَيْكِ رَبُّبًا حَنِئًا ﴿٢٥﴾ فَكَلَىٰ وَأَشْرَىٰ وَفَرَىٰ عَيْنًا فِيمَا تَرَىٰ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَمْرُؤُا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَتَّخِذَ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا سَفِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أُمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾

ويقول تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١].

ويقول تعالى في سورة التحريم: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا الظُّمُّونُ﴾ [التحريم: ١٢].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الحادي والسبعون

تابع: المسيح ابن مريم ﷺ

أشار الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم إلى أن الملائكة عندما بشرت مريم بولد ذكرت لها أن اسمه المسيح عيسى ابن مريم، وبهذا الاسم يتميز مسيح الهدى عن مسيح الضلالة الدجال، ولفظ المسيح قيل هو عبراني ومعناه المبارك، وقيل: إنما سُمي مسيحاً لأنه يمسح ذا العاهة فيبرأ بإذن الله، وقيل: لأنه كان مسيح القدمين أي لا أحمص لهما، وقيل: لأن الله مسحه أي خلقه خلقاً مباركاً حسناً، وقيل: هو مأخوذ من السياحة وهي الذهاب في الأرض والتنقل فيها للدعوة، قال في القاموس المحيط في مادة ساح: والسياحة بالكسر والسُّيُوح والسَّيْحان والسَّيْحُ الذهاب في الأرض للعبادة، ومنه المسيح ابن مريم، وقد ذكرت في اشتقاقه خمسين قولاً في شرحي لصحيح البخاري وغيره. ١.٥هـ.

وقال في مادة مَسَحَ: والمسيح عيسى ﷺ لبركته، وذكرت في اشتقاقه خمسين قولاً في شرحي لمشارك الأنوار وغيره. ١.٥هـ. وقال ابن منظور في لسان العرب: قال ابن سيده: والمسيح عيسى ابن مريم صلى الله على نبينا وعليهما، قيل: سُمِّيَ بذلك لصدقه وقيل: سُمي به؛ لأنه كان سائحاً في الأرض لا يستقر. ١.٥هـ. وقيل: سمي المسيح مسيحاً؛ لأنه خرج من بطن أمه ممسوحاً بالدهن، كما سمي الدجال مسيحاً؛ لأنه كان ممسوح العين.

وسيقتل مسيح الهدى عيسى ابن مريم مسيح الضلالة الدجال كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ عندما ينزل في آخر الزمان، أما عيسى ﷺ فقيل: هو اسم غير مشتق، وهو اسم عبراني أو سرياني، وقد حرّفه المحرفون وقلّبوه وقالوا: يسوع، وقيل: هو مشتق من العيس وهو بياض تعلوه حمرة، وتسمى الإبل البيض التي يخالط بياضها شقرة عيساً.

وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أنه هياً لعيسى ﷺ وأمه ربوة ذات قرار ومعين فنزلاها وسكنا فيها، والربوة المكان المرتفع، ومعنى كونها ذات قرار أي مستوية يستقر عليها ساكنوها، والمعين الماء الجاري الظاهر الذي تراه العيون، ولم يرد في خبر صحيح تحديد مكان هذه الربوة، وبعض الناس يقول: إنها بيت المقدس، وبعضهم يقول: إنها غوطة دمشق وما حولها، وبعضهم يقول: إنها فلسطين، وبعضهم يقول: إنها أرض الفيوم في مصر، والعلم في ذلك عند الله ﷻ، والمقصود أن الله تبارك وتعالى يسر لهما الإقامة الآمنة والمنزل الصالح، وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠].

وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن عيسى ﷺ تعلم الكتابة ومنحه الله ﷻ الحكمة والفقه في التوراة، وعندما بلغ أشده بعثه الله ﷻ إلى بني إسرائيل وأنزل عليه الإنجيل، فيه هدى ونور وموعظة للمتقين، وبشارة بسيد المرسلين، وقد أمره الله ﷻ أن يطلب من بني إسرائيل أن يحكموا بالإنجيل، وقد أيد الله تبارك وتعالى عيسى بالمعجزات الحسية الباهرة، والآيات الظاهرة القاهرة، الشاهدة بأنه رسول من رب العالمين، فجاء عيسى ﷺ إلى بني إسرائيل وأخبرهم أنه رسول الله وأنه عبده، وقد آتاه الإنجيل، وأنه لا إله إلا الله، ولا معبود بحق سواه، وأعلمهم أنه قد جاءهم بآيات من ربهم تتمثل في خمس آيات حسية وهي:

أنه يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، أي يصور من الطين شكل طير، ثم ينفخ فيه فيطير بإذن الله وهم ينظرون إليه ويشاهدونه بأعينهم، وقد أذن ﷻ لعيسى ﷺ في تصوير صورة الطير من الطين والنفخ فيه ليطير بإذن الله لتكون هذه المعجزة آية ظاهرة على أنه رسول من رب العالمين.

أما الآية الثانية: فهي أنه يُبرئ الأكمه بإذن الله؛ والأكمه هو من ولد ممسوح العينين لا حدقة لعينه، وإبرأؤه ليبصر لا طاقة لأحد من الأطباء قديماً وحديثاً عليه، فهي من أظهر المعجزات الحسية التي لا قدرة للبشر عليها،

والآية الثالثة: هي إبراء وشفاء الأبرص بإذن الله، والبرص داء معروف، وهو بياض يعترى جلد الإنسان يعجز نُطسُ الأطباء عن علاجه قديماً وحديثاً.

والآية الرابعة: هي إحياء الموتى بإذن الله، وهذه الآيات الأربع لا قدرة لأحد من البشر عليها في قديم الزمان وحديثه، وقد أشرت في الفصل الواحد والخمسين من هذا الكتاب عند الحديث عن معجزات موسى ﷺ بأنه قد جرت السُّنةُ الإلهية في أن يبعث الله كل نبي بمعجزة تفوق أعلى درجات العلم الذي برع فيه قومه؛ ليكون أظهر للحق، وليعرفوا أنه من عند الله، وأنه لا يقدر على مثله البشر، ولذلك أرسل محمداً ﷺ بالقرآن وجعله معجزته الكبرى؛ لأن قوم محمد ﷺ قد برعوا في الفصاحة والبيان والبلاغة حتى أقاموا للخطباء والشعراء منابر في أسواق عكاظ ومجنة وذو المجاز.

وكما أرسل عيسى ﷺ بإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله لأن قومه قد بلغوا في الطب شأواً لم يسبقوا إليه. وقال ابن كثير رَضِيَ اللهُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَعْلَمُ الْكِنَبَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ (٤٨) وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتِينَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمَصَدَقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَحَدٍ لَّكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ [آل عمران: ٤٨ - ٥١]، قال رَضِيَ اللهُ: قال كثير من العلماء: بعث الله كل نبي من الأنبياء بما يناسب أهل زمانه، فكان الغالب على زمان موسى ﷺ السحرُّ وتعظيمُ السحرة، فبعثه الله بمعجزات بهرت الأبصار وحيرت كل سحار، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام وصاروا من عباد الله الأبرار.

وأما عيسى ﷺ فُبعث في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة، فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه إلا أن يكون مؤيداً من الذي شرع الشريعة، فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد أو على مداواة الأكمه والأبرص وبعث من هو في قبره رهين إلى يوم التناد... إلخ.

أما الآية الخامسة من الآيات الحسيّة التي أيد الله تعالى بها عبده ورسوله عيسى ﷺ فهي أنه يخبرهم بما يأكلون وبما يدخرون في بيوتهم، أي يقول لأحدهم: أنت أكلت اليوم كذا، وتدخر في بيتك لغدك كذا، مما يقطعون بأنه لا علم لغيرهم به، وقد أخبرهم عيسى ﷺ بأن هذه آية من الله ينتفع بها من يشرح الله صدره للإيمان، وأن عيسى ﷺ يؤمن بما سبقه من الكتب السماوية، ويصدق ما في التوراة، وأن شرعه يحل لبني إسرائيل بعض ما حرم عليهم في شريعة موسى ﷺ، وأنه يشرح لهم الوجه الصحيح فيما يختلفون فيه من المسائل ويبين لهم الحق، والصواب فيما اختلفوا فيه، وأنه مؤيد من الله، ثم جرّد لهم ما يدعوهم إليه وهو إخلاص العبادة لله وحده وامتنال ما يشرعه الله لهم على لسانه ﷺ، وطالبهم بتقوى الله فقال لهم: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (٥٠) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿ [آل عمران: ٥٠ - ٥١].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الثاني والسبعون

تابع: المسيح ابن مريم ﷺ

أشرت في الفصل السابق إلى أن الله تبارك وتعالى بعث عيسى ﷺ إلى بني إسرائيل وآتاه الإنجيل وأيده بخمس معجزات حسية ظاهرة قاهرة، وأن عيسى ﷺ طلب من بني إسرائيل أن يعبدوا الله وحده لا شريك له ويتقوه ويطيعوا عيسى ﷺ، وأخبرهم أنه مصدق بما بين يديه من التوراة، وأنه يحل لبني إسرائيل بعض ما حرم عليهم، وأنه يبين وجه الصواب فيما يختلفون فيه، وقد أرشدهم إلى أن هذا هو الصراط المستقيم، فمن سلكه فاز في الدنيا والآخرة، ومن كذب به خسر الدنيا والآخرة، وفي ذلك يقول الله ﷻ في سورة آل عمران عن عيسى ﷺ، بعدما ذكر أنه يعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل قال:

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُنحَى الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنثِيكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَجْلِ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٥١﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: ٤٩ - ٥١].

ويقول ﷻ في سورة المائدة: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ادْكُرْ بِعَمِّي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالدِّيكِ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ نَخَلْنَا مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ نُخِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠].

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَخَلْنَا مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾ صريح في أن الله

تعالى أذن لعيسى ﷺ في تصوير صورة الطيور من الطين، كما أن نفخه فيها لتحلها الحياة وتطير إنما كان بإذن الله كذلك، تأييداً لعيسى وتصديقاً له ﷺ، والله يفعل ما يشاء، لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، وفي ذلك كله إشارة إلى أن عيسى عبد من عبيد الله، يأتمر بأمر الله وينتهي بنهيه، وأنه لا حول له ولا قوة إلا بالله ﷻ، وقد أُنذر عيسى ﷺ قومه من الشرك بالله وخوفهم من عقوبته، وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

ويقول تعالى في سورة الزخرف: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ فَأَتَمُّوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الزخرف: ٦٣ - ٦٤].

كما أشار الله تبارك وتعالى إلى أن عيسى ﷺ هو خاتم أنبياء بني إسرائيل في غير موضع من كتابه الكريم، حيث ذكر أنه قفى بعيسى ﷺ على آثار الأنبياء أي أتبعهم بعيسى ﷺ، وجعله تابِعاً لهم أي متأخراً عنهم في الزمان، حيث يقول ﷻ في سورة الحديد: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ يَمُرُّهُ وَرُسُلُهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَانَةٌ اتَّبَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَابِهَا فَتَأْتِنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٥ - ٢٧].

وقال تعالى في سورة المائدة: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّورَةِ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّورَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٦ - ٤٧].

وقد ذكر رسول الله ﷺ أنه أولى الناس بعيسى ابن مريم؛ لأنه ليس بينه وبين محمد رسول الله ﷺ نبي، فقد روى البخاري ومسلم من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن أن أبا هريرة رضي الله عنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «أنا أولى الناس بابن مريم، والأنبياء أولاد علاتٍ ليس بيني وبينه نبي»، كما روى البخاري في صحيحه من طريق عبد الرحمن بن أبي عمرة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلاتٍ، أمهاتهم شتى ودينهم واحد»، كما روى مسلم في صحيحه من طريق همام بن منبه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الأولى والآخرة» قالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: «الأنبياء إخوة من علاتٍ وأمهاتهم شتى ودينهم واحد فليس بيننا نبي». وفي لفظ لمسلم من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أولى الناس بعيسى، الأنبياء أبناء علاتٍ، وليس بيني وبين عيسى نبي»، ومعنى قوله في الحديث: «أولاد علاتٍ» أو «إخوة من علاتٍ»، هم الإخوة لأب من أمهات شتى، أما الإخوة الأشقاء أي من الأبوين، فيقال لهم أولاد الأعيان أو الإخوة الأعيان، ومعنى أن الأنبياء أولاد علاتٍ أو إخوة من علاتٍ وأمهاتهم شتى أن دين جميع الأنبياء أصوله واحدة في التوحيد والرسالة والبعث بعد الموت وسائر الوصايا العشر الواردة في قوله تعالى:

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِنَّهُمْ وَإِنَّكُمْ وَمَا بَطَنٌ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَيْلِ وَالزَّيْرَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكْفُرْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكَُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١ - ١٥٣].

وقد أشار رسول الله ﷺ بقوله في الحديث: «وأمهاتهم شتى» إلى أن الله تبارك وتعالى شرع لكل أمة من أمم الأنبياء منهاجاً في الفروع يلائم زمانها

ومكانها على حد قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

ولذلك كان النبي يُبعث إلى قومه خاصة إلا سيد المرسلين وإمام المتقين محمداً ﷺ فقد بعثه الله إلى الناس كافة، بل عم برسالته الإنس والجن، وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى في سورة الأعراف: ﴿قُلْ يَتَّيْبُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال في سورة سبأ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال في أول سورة الفرقان: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

كما روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعْطِيتْ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي، وَذَكَرَ فِيهِمْ: وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَةً».

والى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الثالث والسبعون

تابع: المسيح ابن مريم ﷺ

بعث الله ﷻ عبده ونبيه ورسوله ﷺ بالإنجيل، وقد وصف الله تبارك وتعالى الإنجيل بأنه هدى ونور، وأنه مصدق لما بين يديه من التوراة، وأنه هدى وموعظة للمتقين، والإنجيل كلمة يونانية معناها البشارة، وقد أطلقه الله تبارك وتعالى على كتابه المنزل على عيسى ﷺ، بيِّدَ أَنَّ هذا الإنجيل المنزل على عيسى ﷺ لا وجود له عند النصارى، ولم يذكر أحد من علماء النصارى أو غيرهم أنه رأى نسخة كاملة منه، ويبدو أن عيسى ﷺ لم يكتبه وإنما كان يبشر به في بني إسرائيل، وقد ورد ذكره في الكتب التي أُلِّفَتْ بعد رفع المسيح ﷺ والتي سمَّاها أصحابها الأناجيل، فقد ذكره متى في إنجيله في الإصحاح الرابع منه، إذ يقول: «وكان يسوع يطوف كل الجليل يُعلم في مجامعهم، ويكرز ببشارة الملكوت، ويشفي كل مرض وكل ضعيف في الشعب»، فكلمة بشارة الملكوت التي وردت في هذه الفقرة هي الإنجيل، إذ إن معنى الإنجيل هو البشارة، كما ذكره مرقس في إنجيله في الإصحاح الأول منه إذ يقول: وبعدهما أسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرزُ ببشارة ملكوت الله ويقول: قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله، فتوبوا وآمنوا بالإنجيل.

وقد زعم بعض الناس أن الإنجيل كان مقتصرًا على البشارة خاليًا من الأحكام؛ مدعيًا أن عيسى ﷺ كان يقتصر على ما في التوراة من الأحكام، وهذا قول فاسد كاسد عاطل باطل، فقد نص الله تبارك وتعالى في محكم كتابه الكريم بما يقضي أن الإنجيل كتاب أحكام، وإن كان يشتمل على البشارة، حيث يقول ﷻ: ﴿وَلِيَحْكُرْ أَهْلَ الْأَنْبِيَاءِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧]، بيد أنه لقربه من زمان رسول الله محمد ﷺ تجلت

البشارة فيه برسول الله ﷺ وإن كان كل نبي من أنبياء الله تعالى بشر أمته بمحمد صلوات الله وسلامه عليه للميثاق الذي أخذه الله تعالى على الأنبياء بتأييد محمد ﷺ حيث يقول الله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِالْحَقِّ لَمَّا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

وقد وصف الله تبارك وتعالى مقاماً من مقامات عيسى ﷺ بما يفيد أنه قام خطيباً في بني إسرائيل يخبرهم أنه رسول من الله يبشرهم بمحمد رسول الله ﷺ الذي يأتي بعده، حيث يقول الله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

ورسول الله ﷺ له أسماء، منها: محمد وأحمد، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحهما واللفظ لمسلم من حديث محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «إن لي أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعده أحد، وقد سمّاه الله رؤوفاً رحيماً». وفي لفظ لمسلم من طريق محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه أن النبي ﷺ قال: «أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على عقبي، وأنا العاقب؛ والعاقب الذي ليس بعده نبي...». ولفظ محمد أو أحمد هو معنى المنحمن أو الفارقليط الوارد في الكتب التي بيد النصارى في بشارة عيسى ﷺ التي يُخبر فيها بأنه سيقم حتى يأتي المنحمن وفي بعض التراجم: حتى يأتي الفارقليط، والمنحمن أو الفارقليط هو المحمود الحمد الكثير، وهو معنى أحمد أو محمد وهو إشارة إلى أن شريعة عيسى ﷺ تستمر حتى تنسخها شريعة محمد ﷺ.

ولا شك أن علماء أهل الكتاب عموماً كانوا يعرفون صفات النبي محمد ﷺ كما يعرفون أبناءهم بسبب بشارات الأنبياء بمحمد ﷺ، ووصفهم له لأممهم حتى يؤمنوا به إذا جاء، ومن صفاته عندهم أنه يبعث بالحيفية دين إبراهيم ﷺ، وأنه

يخرج بأرض العرب، وأنه يهاجر إلى أرض سبخة ذات نخيل بين لابتين، وأنه يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، وأن في كتفه خاتم النبوة كزر الحجلة.

وفي التوراة: سأقيم لبني إسرائيل من إخوتهم مثلك يا موسى أنزل عليه توراة وأجعل كلامي على فيه.

ولم يأت أحد من الرسل يذكر أن معجزته كلام الله غير محمد ﷺ الذي جعل الله معجزته الكبرى وآيته العظمى القرآن العظيم والذكر الحكيم، الباقي محفوظاً بحفظ الله حتى يرث الله الأرض ومن عليها، والتوراة معناها الشريعة كما جاء أيضاً في وصف رسول الله ﷺ في التوراة: تجلى الله أو جاء الله من طور سيناء، وأشرق من ساعير، واستعلى أو استعلن من جبال فاران. وهو إشارة إلى دين موسى الذي أوحى الله إليه به في طور سيناء وبشارة بعيسى ﷺ الذي أنزل الله عليه الوحي في جبال ساعير من أرض الجليل بقرية تدعى الناصرة، ويقال لها أيضاً: نصرانة التي سُمي من ينتمي إلى المسيح ﷺ بها، فيقال لهم: النصارى. وقوله: واستعلى أو استعلن من جبال فاران أو من بركة فاران بشارة واضحة جلية بمحمد ﷺ الذي أنزل تعالى عليه الوحي ببرية أو جبال فاران وهي أرض مكة بلا خلاف بين المسلمين وأهل الكتاب.

وهذه البشارة الواردة في التوراة تطابق ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ وَالزَّيْتُونَ ﴿١﴾ وَطُورِ سَيْنِينَ ﴿٢﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ [التين: ١ - ٣] فالتين والزيتون جبلان بالأرض المقدسة من الشام، بعث الله تعالى عندهما عيسى ﷺ، وطور سينين هو الجبل الذي كلم الله موسى عنده وآتاه فيه التوراة، والبلد الأمين هو مكة المكرمة قدسها الله. وقد روى البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو ؓ قال: وجدت في التوراة في صفة النبي محمد ﷺ يقول الله سبحانه: «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، ويفتح عيوناً عمياً واذاناً صمّاً وقلوباً غلفاً بأن يقولوا: لا إله إلا الله».

والمراد بالتوراة في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه في هذا المقام هو بعض كتب العهد القديم، إذ يطلق بعض المسلمين اسم التوراة على مجموع كتب العهد القديم التي تشمل التوراة بأسفارها الخمسة، وتشمل كذلك نوات بعض الأنبياء، كما أن النصارى يطلقون اسم التوراة على مجموع كتب العهد القديم وعلى الأناجيل أيضاً، وإن كان الأصل في كلمة التوراة أنها خاصة بكتاب الله تعالى المنزل على موسى عليه السلام الذي ألقاه الله إليه مكتوباً في الألواح.

وفي تواتر صفات محمد صلى الله عليه وسلم عند علماء أهل الكتاب يقول الله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

ويقول تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الرابع والسبعون

تابع: المسيح ابن مريم ﷺ

عَرَضَ المسيح عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام دعوته المشرقة على بني إسرائيل وأظهر لهم من الآيات والمعجزات ما مثله آمن عليه البشر، كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من الأنبياء نبيٍّ إلا أُعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أُوتيت وحياً أوحاه الله إليّ؛ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة». وقد لقي المسيح ﷺ من بني إسرائيل عنتاً وأذى بالرغم من علمهم بأن في وصايا أنبياء بني إسرائيل السابقين أن سيحيي لبني إسرائيل مسيح، غير أنهم كفروا بهذا المسيح الحق، وزعموا أنه ليس مسيحهم المنتظر، فكفروا بعيسى ﷺ، ولا شك أن المسيح الذي سيسارع اليهود إلى اتباعه هو مسيح الضلالة الدجال، ولذلك قضى الله ﻋﻠﻴﻚ أن مسيح الهدى عيسى ابن مريم ينزل آخر الزمان عند ظهور مسيح الضلالة الدجال؛ فيقتله ويقتل أتباعه من اليهود عليهم لعائن الله.

وقد آمن بعيسى ﷺ طائفة من بني إسرائيل وصار منهم حواريون للمسيح ﷺ، كما قال رسول الله ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إن لكل نبي حوارياً، وإن حوارياً الزبير بن العوام»، والحواري في الأصل هو الوزير أو من يصلح للخلافة أو الناصر أو الخالص أو هو ناصر الأنبياء أو القصار؛ لأنه يحور الثياب أي يبيضاها.

وذكر البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: وسمى الحواريون لبياض ثيابهم؛ وقيل حوارى الرجل خاصته، والمتبادر من القرآن العظيم يشعر أن الحواريين هم السابقون الأولون من أمة عيسى ﷺ وكبار أصحابه رضي الله عنهم وخواصهم، وقد ذكر الله تبارك وتعالى الحواريين في محكم كتابه الكريم في

مواضع، فذكر ما ألقى الله ﷺ في نفوسهم من المسارعة إلى الإيمان ببعسى ﷺ ونصرته وتصديقه فيما جاء به عن ربه ﷺ حيث يقول: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنَّ ءَامِنُوا بِي وَرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١]، ومعنى ﴿أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِجِ﴾ [المائدة: ١١١] في هذه الآية المباركة هو ما ألهمهم به وقذف في قلوبهم من تصديق عيسى ﷺ ونصرته، ولا شك أن الحواريين ليسوا بأنبياء، وليسوا بمعصومين من الخطأ، ولذلك ذكر الله ﷺ عنهم أنهم قالوا لعيسى ﷺ: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [المائدة: ١١٢]، فخوَّفهم عيسى ﷺ من مغبة هذا السؤال، وأمرهم بتقوى الله، وأنه لا ينبغي لمسلم أن يقترح على الله الإتيان بالآيات؛ لأن سنته جرت أن من اقترح على الله آية ولم يؤمن بها إذا جاءت أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، ونبه عيسى ﷺ الحواريين إلى أن مقتضى إيمانهم ألا يتقدموا على الله باقتراح مثل هذه الآية، وأن يعلموا أن الله لا يُعجزه شيء في السموات ولا في الأرض، غير أن الحواريين ذكروا لعيسى ﷺ أنهم إنما طلبوا إنزال مائدة من السماء لأنهم يريدون أن يأكلوا منها وأن تطمئن قلوبهم بزيادة الإيمان واليقين إذا رأوا هذه الآية الحسية، ويزدادوا علماً بأن عيسى ﷺ قد صدقهم، ويكونوا عليها من الشاهدين، ولا شك أن سؤال الحواريين هذا أخف من سؤال أصحاب موسى ﷺ إذ قال بعضهم لموسى عندما رأوا قوماً يعكفون على أصنام لهم ﴿قَالُوا يَمْوَسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، وأخف من قول أصحاب موسى لموسى: ﴿أَرَأَىٰ اللَّهُ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٣].

وقد رأى عيسى ﷺ أن المصلحة تقتضي بأن يتضرع إلى الله أن ينزل عليهم مائدة من السماء تكون عيداً وفرحاً ومسرةً للمؤمنين في عاجلتهم، وينتفع بالإيمان بها مَنْ بعدهم من المؤمنين، وتكون آية من الآيات الشاهدات على أن الله رب كل شيء وسيده ومليكه، وأن أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون. فأخبر الله عيسى ﷺ بأنه منزل عليهم هذه المائدة المطلوبة، وأنه من يكفر بالله بعد رؤيته لهذه الآية الباهرة والمعجزة القاهرة فإن الله سيعذبه عذاباً لم يعذب مثله في شدته

أحدًا من العالمين، والمائدة هي الخُوانُ عليه طعام، فإذا لم يكن على الخُوان طعام فإنه لا يسمى مائدة، والأصل في الخُوان أن يتخذ من الخشب وينصب على قوائم. فإذا كان الطعام على جلد أو فراش أو شيء بلا قوائم فإنه يقال له سفرة، وقد أثر أن رسول الله ﷺ لم يأكل على خوان قط. وهي الشيء المرتفع عن الأرض بقوائمه، وإنما كان يأكل على السفرة ﷺ؛ لأنها عادة العرب، كما أن الخوان من عادة العجم، وقد تسمى السفرة مائدة.

وفي قصة المائدة يقول الله ﷻ: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ أَتَقُولُوا اللَّهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نَزِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَتَكُونُ عَلَيْنَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَآرْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [المائدة: ١١٢ - ١١٥]، وقد سميت السورة كلها باسم المائدة، وقد زعم بعض الناس أن المائدة لم تنزل؛ لأن الحواريين لما سمعوا الوعيد الشديد على من كفر بها بعد نزولها خافوا وأبوا أن تنزل عليهم، وصریح القرآن شاهد على نزولها لقوله تعالى: ﴿إِنِّي مُنزِلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ وهذا إخبار بنزولها، وتأكيد بأنه برهان قاطع على نزولها. والعيد يوم السرور الذي يتكرر وكل يوم فيه جمع، قال ابن منظور في لسان العرب: قال ابن الأعرابي سُمي العيد عيداً لأنه يعود كل سنة بفرح مجددٍ. ١. هـ.

هذا وما نقل عن كثير من المفسرين في صفة المائدة المنزلة على عيسى ﷺ والحواريين وفيما احتوته هذه المائدة من ألوان الطعام وأسمائه لم يثبت شيء منه بخبر صحيح عن رسول الله ﷺ.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الخامس والسبعون

تابع: المسيح ابن مريم ﷺ

ذكرت في الفصل السابق أن طائفة من بني إسرائيل آمنت بعيسى ﷺ، وعلى رأس هؤلاء الحواريون ﷺ كما تقدم، وقد كَفَرَت طائفة من بني إسرائيل بعيسى ﷺ ووصفوه بأنه ساحر وتعاونوا مع الرومان الوثنيين الذين كانوا يحكمون فلسطين وقتلوا ضد عيسى ﷺ. فلقي من عنتهم وأذاهم ومكرهم هو والذين آمنوا معه ما لا يعلمه إلا الله، مثل ما لقي إخوانه من أولي العزم من المرسلين، وقد عدَّه الله تبارك وتعالى في شيوخ المرسلين الخمسة الكبار، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، حيث يقول ﷺ في كتابه الكريم: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

وكما قال ﷺ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧]، وقد اندهش بعض الناس من الآيات التي جاء بها عيسى ﷺ، من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى وجعل الطين كهيئة الطير، ثم ينفخ فيه فيطير، فحسبوا أن ذلك يُشعر أن عيسى فوق البشر وليس منهم، مع أنه كان ينبه عند هذه الآيات أنها بإذن الله، وأنها معجزات من الله تعالى لتأييده، وقد أشار إلى ذلك برنابا في إنجيله الذي ألفه للرد على من حرَّف دين المسيح ﷺ بعد رفع المسيح ابن مريم، إذ يقول برنابا في الإصحاح الثالث والتسعين من إنجيله: أجاب الكاهن: إن اليهودية قد اضطربت لآياتك وتعليمك، حتى إنهم يجاهرون بأنك أنت الله، فاضطرت بسبب الشعب إلى أن آتي إلى هنا مع الوالي الروماني والملك هيروودس فرجوك من كل

قلبنا أن ترضى بإزالة الفتنة التي ثارت بسببك؛ لأن فريقاً يقول: إنك الله، وآخر يقول: إنك ابن الله، ويقول فريق: إنك نبي. أجاب يسوع: وأنت يا رئيس الكهنة لماذا لم تُخمد الفتنة وهل جُننت أنت أيضاً؟ وهل أمست النبوات وشريعة الله نسياً منسياً، أيتها اليهودية الشقية التي ضللها الشيطان. ولما قال يسوع هذا عاد فقال: إني أشهد أمام السماء وأشهد كل ساكن على الأرض أنني بريء من كل ما قال الناس عني من أنني أعظم من بشر؛ لأنني بشر مولودٌ من امرأة، وعُرِضة لحكم الله أعيش كسائر البشر. وبرنابا مؤلف هذا الإنجيل وصف في الإصحاح الرابع عشر منه بأنه أحد الحواريين الاثني عشر، كما وصف في رسالة منسوبة إلى لوقا أحد مؤلفي الأناجيل المسماة بأعمال الرسل بأنه من الرسل، أي من المبعوثين الذين كان يبعثهم عيسى ﷺ للدعوة في نواحي الجليل وغيرها، فلوقا يقول في هذه الرسالة: ويوسف الذي دُعي من الرسل برنابا الذي يترجم بابن الوعظ، وهو لاوي قبرصي الجنس، إذ كان له حقل باعه وأتى بالدراهم ووضعها عند أرجل الرسل.

وقد كان عيسى ﷺ صبوراً على الأذى، حريصاً على هداية قومه، بشوشاً، شديد التعظيم لأمر الله ﷻ، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «رأى عيسى ابن مريم رجلاً يسرق فقال له: أسرقت؟ قال: كلا، والذي لا إله إلا هو. فقال عيسى: أمنت بالله وكذبت عيني»، وقد ضاق به اليهود والرومان الوثنيون دَرعاً، وتمالؤوا عليه، فلما أحس عيسى منهم الكفر واستشعر منهم التصميم على العناد والاستمرار على الضلال ﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَأَمْنَا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّكَ مُسَلِّمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا ءَأَمِنَّا بِمَا أَرْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٢ - ٥٣]، وكما قال رضي الله عنه: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَأَمَنُوا كُوفَرًا أَنْصَارُ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَرَتْ طَائِفَةٌ ءَأَيْدِنَا الَّذِينَ ءَأَمَنُوا عَلَىٰ عُدُوِّهِمْ فَاصْبِرُوا لظُهُورِ﴾ [الصف: ١٤].

وقد همَّ اليهود والرومان بالفتك بالمسيح ابن مريم ﷺ وعزموا على قتله،

فلما أحاطوا بمنزله وظنوا أنهم قد ظفروا به نجّاه الله تبارك وتعالى من شرهم وكيدهم، فألقى شبهه على شخص من مبغضيه فحسبوه عيسى عليه السلام فأخذوه وقتلوه وصلبوه، أما عيسى عليه السلام فقد رفعه الله إليه وخيّب مكر الماكرين، وردّ كيد الكافرين وفي ذلك يقول الله تعالى:

﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعِيسَى ابْنِي مَتْوَفِيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلِ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذِبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤ - ٥٧].

وهكذا قضى الله تعالى أن ينصر رسله والمؤمنين، وأن يُخزي أعداءه الكافرين، وقد نصّ الله تعالى على أن عيسى عليه السلام لم يُقتل ولم يُصلب، وإنما شبه لليهود، وفي ذلك يقول: ﴿وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلُهُمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلُهُمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِمَّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦ - ١٥٨].

وإن تعجب فعجب أن يصدق النصارى اليهود في أنهم قتلوا المسيح وصلبوه، وبخاصة من انحرف عن الحق وزعم أن عيسى إله أو ابن إله، كيف يخطر على بال من به أدنى مسكة من عقل أن يعتقد أن الإله يصلب أو يقتل. وقد جاء في إنجيل متى وإنجيل مرقس النص على أن الذين أرادوا قتل المسيح وصلبه لم يكونوا يعرفونه، ففي الإصحاح السادس والعشرين من سفر متى في الفقرة السابعة والأربعين من هذا الإصحاح: وفيما هو يتكلم إذا يهوذا واحد من الاثني عشر قد جاء ومعه جمع كثير بسيف وعصي من عند رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب. وفي الفقرة الثامنة والأربعين: والذي أسلمه أعطاهم علامة قائلاً الذي أقبله هو هو. وفي إنجيل مرقس في الإصحاح الرابع عشر في الفقرة الثالثة والأربعين منه: وللوقت فيما يتكلم أقبل يهوذا واحد من الاثني عشر ومعه جمع

كثير بسيوف وعصي من عند رؤساء الكهنة والكتبة والشيوخ. وفي الفقرة الرابعة والأربعين: وكان مُسَلِّمُهُ قد أعطاهم علامة قائلاً الذي أقبله هو هو أمسكوه وامضوا به بحرص.

والى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل السادس والسبعون

تابع: المسيح ابن مريم ﷺ

ذكرت في ختام الفصل السابق أن الذين أرادوا قتل المسيح وصلبته ما كانوا يعرفونه، وسقت من إنجيل متى وإنجيل مرقس النص على ذلك. وقد جاء كذلك في الأناجيل المعتمدة عند النصارى أن الله أوقع الشك حتى في قلوب أصحاب عيسى ﷺ في ذات المسيح، فصاروا يترددون هل هذا هو يسوع الذي أخذ ليقتل ويصلب أو غيره، وقد كان بين المسيح ﷺ وبين يهوذا الإسخريوطي الذي دخل على المسيح ليسلمه لليهود والرومان شبه كبير؛ فصاروا لا يدرون عن الذي أخذ أم المسيح أم يهوذا الإسخريوطي، وقد نقلت الأناجيل الأربعة قول المسيح ﷺ لأصحابه ليلة عزم أعدائه على تبييته «كلكم تشكون فيّ في هذه الليلة» كما جاء في الإصحاح السادس والعشرين من إنجيل متى في الفقرة الواحدة والثلاثين، وكما جاء في الإصحاح الرابع عشر من إنجيل مرقس في الفقرة السابعة والعشرين، وقد جاء في إنجيل برنابا التصريح بأن الجنود أخذوا يهوذا الإسخريوطي نفسه ظناً أنه المسيح؛ لأنه ألقى عليه شبهه، وقد ذكر (جورج سايل) الإنجليزي في ترجمته للقرآن في سورة آل عمران في الصفحة الثامنة والثلاثين أن يهوذا الإسخريوطي كان يشبه المسيح في خلقه، وذكر عن فرقة من أقدم فرق النصارى وهم (السيرثيون والكوبوكراتيون) أنهم أنكروا صلب المسيح، وصرحوا بأن الذي صُلب هو يهوذا الإسخريوطي الذي كان يشبهه شبهاً تاماً. ١. هـ.

والنصارى مطبقون على أن يهوذا الإسخريوطي فُقد بعد حادثة الصلب ولم يظهر في الوجود، وإن كان النصارى اختلفوا في قصة نهايته؛ ففي إنجيل متى في الإصحاح السابع والعشرين في الفقرة الرابعة منه عن يهوذا الإسخريوطي أنه مضى وخنق نفسه، وقد تناقضت رسالة أعمال الرسل مع إنجيل متى في نهاية يهوذا

الإسخریوطی، فقد جاء فی الإصحاح الأول فی الفقرة الثامنة عشرة من رسالة أعمال الرسل التي ألفها لوقا صاحب الإنجيل عن يهوذا: فإن هذا اقتنى حقلاً من أجرة الظلم، وإذ سقط على وجهه انشق من الوسط انسبكت أحشاؤه كلها.

وهذا التناقض بين إنجيل متى ورسالة أعمال الرسل (والنصارى يقدسون هذين الكتابين) أقول: هذا التناقض دليل عدم معرفة مآل يهوذا الإسخریوطی، وهو برهان ساطع على أن المصلوب بيد اليهود والرومان لم تكن شخصيته معلومة علم اليقين عند هؤلاء، وقد أكد الله تبارك وتعالى هذا المعنى بقوله ﷻ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِمَّنْ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْنَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿النساء: ١٥٧ - ١٥٨﴾.

وقد التبس الأمر على اليهود والنصارى والرومان، ووقعوا في الشك والحيرة والتردد: أكان المصلوب عيسى أم غيره، فبعضهم كان يقول: هو هو يسوع، وبعضهم يقول: إنه غيره؛ وذلك بسبب شبه يهوذا الإسخریوطی بعيسى ﷺ، أضف إلى ذلك أنه كان معه شخص آخر هو باراباس، وقد جاء في إنجيل متى في الفقرة السابعة عشرة من الإصحاح السابع والعشرين: فبيما هم مجتمعون قال لهم بيلاطس: من تريدون أن أطلق لكم باراباس أم يسوع الذي يدعى المسيح. ١. هـ.

وقد رفع الله تبارك وتعالى المسيح ابن مريم إليه وخلّصه من بني إسرائيل الكافرين الحاقدين الحاسدين، وفي ذلك يقول ﷻ في سورة آل عمران: ﴿يَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَرَافِعَكَ إِلَىٰ﴾ [آل عمران: ٥٥] ويقول في سورة النساء: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٨].

وجمهور أهل السنة والجماعة على أن الله تعالى رفع المسيح إليه بجسده وروحه، ويفسرون التَّوْفِيَّ في قوله تعالى: ﴿يَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَرَافِعَكَ إِلَىٰ﴾ بأنه إلقاء النوم عليه إلى أن رفعه الله إلى السماء على حدّ قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، وكقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠] أي ينيمكم بالليل ويعلم ما اكتسبتم من أعمال النهار.

وخص النوم بالليل والاكْتِسَابُ بالنهار؛ لأن ذلك هو الأصل الملائم لطبيعة الإنسان، وقد لا ينام الإنسان بالليل ولا يكتسب بالنهار، إلا أن ذلك مضر بفطرته وقوام نفسه، وقد ذهب عامة أهل السنة والجماعة إلى أن عيسى عليه السلام حي في السماء، وأنه ينزل في آخر الزمان عند ظهور المسيح الدجال فيقتله باللُد من أرض فلسطين، ويقتل من معه من اليهود، ويريق الخمر ويكسر الصليب، ويضع الجزية، ويقتل الخنزير، ولا يقبل إلا الإسلام، وفي زمن نزوله يخرج يأجوج ومأجوج، وهم من كل حذب ينسلون، وأن عيسى عليه السلام يضرع إلى الله ويدعوه أن يُهْلِكَ يأجوج ومأجوج فيستجيب الله له، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن نزول عيسى عليه السلام آخر الزمان من أمارات الساعة حيث يقول: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمَّزُكُ بِهَا﴾ [الزخرف: ٦١] على قول لأهل العلم من أهل التفسير والتأويل. أي إن نزول المسيح عليه السلام علامة من علامات قرب الساعة، أو إن إيجاد عيسى عليه السلام من غير أب دليل على أن الله قادر على كل شيء، وأنه برهان على قدرة الله على إحياء الموتى وبعث الناس يوم القيامة، كما ذهب بعض أهل العلم إلى أن معنى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ [النساء: ١٥٩] يعني أن جميع الكفار من اليهود والنصارى عندما يأتيهم الموت وينقطعون عن الدنيا يعلمون أن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأنه لم يقتل ولم يصلب، ويصدقون أن الله رفعه إليه وصانه من مكر اليهود وكيدهم، وأنه ليس إلهاً ولا ابن إله كما يزعم النصارى عليهم وعلى اليهود لعائن الله والملائكة والناس أجمعين.

وهذا الإيمان عند معاينة الموت لا ينفعهم، وأكثر المفسرين أرجع الضمير في «موته» إلى عيسى عليه السلام، وأنه عند نزوله يؤمن به البر والفاجر ويسارعون إلى تصديقه، وهذا هو الظاهر؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ [النساء: ١٥٩] قد سيق في تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسى عليه السلام وصلبه، وتسليم من سلم لهم من النصارى الجاهلين أن عيسى قُتل وُصِّلب. فأخبر الله تعالى أن الأمر ليس كذلك وإنما شُبِّه لهم فقتلوا الشبه وهم لا يتبينون ذلك بل رفعه الله إليه وهو حي وأنه سينزل قبل القيامة.

ونزول المسيح ﷺ آخر الزمان من عقائد أهل السنة والجماعة التي لا يزيغ عنها إلا ضال هالك، فقد روى البخاري ومسلم من عدة طرق عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عادلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، وحتى تكون السجدة خيراً له من الدنيا وما فيها» ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَإِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِدًا﴾ [النساء: ١٥٩]، كما روى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده ليهلن ابن مريم بفتح الروحاء حاجاً أو معتمراً أو ليشينهما»، أي أو ليقترن بينهما، كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كيف بكم إذا نزل فيكم المسيح ابن مريم وإمامكم منكم» كما روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ، فإذا تصافوا قالت الروم: خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم، فيقول المسلمون: لا والله لا نخلي بينكم وبين إخواننا، فيقاتلونهم فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبداً، ويُقتل ثلثهم أفضل الشهداء عند الله، ويفتتح الثلث لا يُفتنون أبداً، فيفتتحون قسطنطينية، فيبينا هم يقتسمون الغنائم قد علقوا سيوفهم بالزيتون إذ صاح فيهم الشيطان: إن المسيح قد خلفكم في أهليكم، فيخرجون وذلك باطل، فإذا جاؤوا الشام خرج، فبينما هم يُعدُّون للقتال يُسوِّون الصفوف إذ أُقيمت الصلاة، فينزل عيسى ابن مريم رضي الله عنه فأمهم، فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح في الماء، فلو تركه لانداب حتى يهلك، ولكن يقتله الله بيده، فيريهم دمه في حربته».

وقوله: «إن المسيح قد خلفكم» يعني به الدجال، وقوله: «فأمهم» يعني قصد المسلمين للاقتداء بإمامهم في الصلاة، أو قصد الدجال وعصابته لقتلهم وإهلاكهم، والأول أظهر لقوله في رواية البخاري ومسلم المتقدمة: «وإمامكم منكم»، كما روى مسلم من حديث جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال

طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة»، قال: «فينزل عيسى ابن مريم فيقول أميرهم تعال صل بنا، فيقول: لا. إن بعضكم على بعض أمراء، تكرمه الله هذه الأمة». ا.هـ.

وهذا دليل على أن الله يحفظ لهذه الأمة دينها من التبديل والتغيير إلى آخر الزمان، حتى ينزل المسيح ابن مريم فيحكم بشريعة محمد ﷺ.

والى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل السابع والسبعون

تابع: المسيح ابن مريم ﷺ

إليكم جملة أخرى من الأحاديث الصحيحة الثابتة عن رسول الله ﷺ في نزول المسيح ابن مريم عند ظهور المسيح الدجال، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث النواس بن سمعان الكلابي رضي الله عنه قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداةٍ فخفض فيه ورفع حتى ظننناه في طائفة النخل، فلما رُحنا إليه عرف ذلك فينا فقال: «ما شأنكم؟» قلنا: يا رسول الله! ذكرت الدجال غداةً فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل، فقال: «غير الدجال أخوفني عليكم، إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجهُ دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤٌ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم، إنه شابٌ قَطَطٌ، عينه طافية، كأني أشبههُ بعد العزى بن قطن، فمن أدركه منكم فيقرأ عليه فواتح سورة الكهف، إنه خارجٌ خَلَّةً بين الشام والعراق، فعاث يميناً وعاث شمالاً، يا عباد الله! فاثبتوا»، قلنا: يا رسول الله! وما لَبِئْتُهُ في الأرض؟ قال: «أربعون يوماً، يومٌ كسنة، ويومٌ كشهر، ويومٌ كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم»، قلنا: يا رسول الله! فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: «لا. اقدروا له قدره»، قلنا: يا رسول الله! وما إسرعه في الأرض؟ قال: «كالغيث استدبرته الريح، فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كان ذراً، وأسبغهُ ضروعاً، وأمدهُ خواصر، ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله، فينصرف عنهم، فيصبحون مُمحلين، ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمرُّ بالخرابة فيقول لها أخرجي كنوزك، فتبعه كنوزها كيغاسيب النحل، ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض، ثم يدعوهُ فيقبل ويتهلل وجههُ يضحك، فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم، فينزل عند المنارة

البيضاء شرقي دمشق بين مَهْرودتين، واضعاً كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ، إِذَا طَاطَأَ رَأْسَهُ قَطْرًا، وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ، فَلَا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفْسِهِ إِلَّا مَاتَ، وَنَفْسُهُ حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ، فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يَدْرِكَهُ بَابُ لُدٍّ فَيَقْتُلُهُ، ثُمَّ يَأْتِي عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْمٌ قَدْ عَصَمَهُمُ اللَّهُ مِنْهُ، فَيَمْسُحُ عَنْ وَجُوهِهِمْ وَيُحَدِّثُهُمْ بِدِرْجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى عِيسَى: إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي، لَا يَدَانِ لِأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ، فَحَرَّزَ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ، وَيَبْعَثُ اللَّهُ بِأَجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، فَيَمُرُّ أَوَائِلَهُمْ عَلَى بَحِيرَةٍ طَبْرِيَّةٍ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا، وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ: لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ، ثُمَّ يَسِيرُونَ حَتَّى يَنْتَهَوْا إِلَى جَبَلِ الْخَمْرِ، وَهُوَ جَبَلُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَيَقُولُونَ: لَقَدْ قَتَلْنَا مِنْ فِي الْأَرْضِ، هَلُمَّ فَلْنَقْتُلْ مِنْ فِي السَّمَاءِ، فَيَرْمُونَ بِنُشَابِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ، فَيَرُدُّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ نُشَابَهُمْ مَخْضُوبَةً دَمًا، وَيُحْضِرُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابَهُ حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لِأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لِأَحَدِكُمْ الْيَوْمَ، فَيَرْعَبُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابَهُ إِلَى اللَّهِ. فَيُرْسِلُ اللَّهُ عَلَيْهِمُ النَّعْفَ فِي رِقَابِهِمْ، فَيَصْبِحُونَ فَرَسَى كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابَهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَلَا يَجِدُونَ فِي الْأَرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إِلَّا مَلَأَهُ زَهْمُهُمْ وَنَتْنُهُمْ، فَيَرْعَبُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابَهُ إِلَى اللَّهِ، فَيُرْسِلُ اللَّهُ طَيْرًا كَأَعْنَاقِ الْبُحْتِ، فَتَحْمَلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ مَطْرًا لَا يَكُنُّ مِنْهُ بَيْتٌ مَدْرٍ وَلَا وَبَرٍ، فَيَغْسِلُ الْأَرْضَ حَتَّى يَتْرَكَهَا كَالرَّافَةِ، ثُمَّ يَقَالُ لِلْأَرْضِ: أُنْبِتِي ثَمَرَاتِكَ، وَرُدِّي بَرَكَاتِكَ، فَيَوْمئِذٍ تَأْكُلُ الْعِصَابَةُ مِنَ الرَّمَانَةِ، وَيَسْتَظِلُّونَ بِقَحْفِهَا، وَيُبَارِكُ فِي الرَّسْلِ، حَتَّى أَنْ اللَّقْحَةَ مِنَ الْإِبِلِ لِتَكْفِي الْفِئَامَ مِنَ النَّاسِ، وَاللَّقْحَةَ مِنَ الْبَقَرِ لِتَكْفِي الْقَبِيلَةَ مِنَ النَّاسِ، وَاللَّقْحَةَ مِنَ الْغَنَمِ لِتَكْفِي الْفَخْدَانَ مِنَ النَّاسِ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ رِيحًا طَيِّبَةً فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاتِهِمْ فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ، وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الْحَمْرِ فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ».

وقوله في الحديث: «فَخَفَّضَ فِيهِ وَرَفَعَ» أَي حَقَّرَ فِيهِ وَفَخَمَ، أَوْ خَفَّضَ مِنْ صَوْتِهِ بَعْدَ طَوْلِ الْكَلَامِ لِيَسْتَرِيحَ، ثُمَّ عَادَ فَرَفَعَ صَوْتَهُ لِيُبْلِغَ كُلَّ الْمَسْتَمْعِينَ لَهُ. وقوله: «حَتَّى ظَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ» أَي فِي غَايَةِ الْقَرْبِ مَنًّا، وَأَنَّهُ قَرِيبُ الظُّهُورِ.

وقوله: فلما رُحْنَا إليه، أي رجعنا إلى مجلس رسول الله ﷺ في العَشِيِّ إذ كان حديثه ﷺ عن الدجال في الصباح، وقوله: «إِنَّه شاب قَطَطٌ» أي شديد جُعودَة الشعر، وقوله: «إِنَّه خارج خَلَّةً بين الشام والعراق» أي في طريق بينهما، وقوله: «فَتَرُوحُ عليهم سارحتهم» أي فترجع عليهم ماشيتهم التي تسرح أي تذهب أول النهار إلى المرعى، وقوله: «أطول ما كانت ذراً»، الذرى جمع ذروة، وهي الأعالي والأسنمة، والمراد أنه يزيد ارتفاعها بسبب سرعة نموها، وقوله: «وَأَسْبَغُهُ ضُرُوعاً» أي أطوله ضروعاً لكثرة اللبن، وقوله: «وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ» يعني لكثرة امتلائها من الشبع، وقوله: «كيعاسيب النحل» اليعاسيب جمع يعسوب وهو ذكر النحل وأميرها، وأراد باليعاسيب هنا جماعة النحل في اتباعها ليعسوبها؛ لأنه متى طار تَبَعْتُهُ، ومراده أن الدجال تتبعه كنوز الأرض كما تتبع جماعة النحل يعسوبها لا تتخلف عنه بحال، وقوله: «فيقطعه جزلتين رمية الغرض» أي فيقطعه قطعتين ويجعل بين القطعتين مقدار رمية السهم نحو الهدف. وقوله: «بين مَهْرُودَتَيْنِ» أي حُلَّتَيْنِ مصبوغتين بالهَرْدِ، وهو عُرُوقٌ يُصَبَّغُ بها، وقد قيل: إن الثوب المهرود هو المصبوغ بالورس ثم بالزعفران. وقوله: «لا يدان لأحد بقتالهم» يعني لا قدرة لأحد على حربهم. وقوله: «فيرسل الله عليهم النَّعْفَ في رقابهم» أي فيسلط الله عليهم النعف، وهو دود يصيب أنوف الإبل والغنم وقوله: «فيصبحون فَرَسَى» أي هَلَكَى. وقوله: «حتى يتركها كالزَّلْفَةِ» أي كالمرأة والأرض المكنوسة. وقوله: «ويستظلون بقحفها». أي بقشرها، والفتام: الجماعة. وقوله: «يتهارجون فيها تهارج الحمر» أي يذهب الحياء من الناس، ويقارف الرجال النساء، ويتسافدون في الطرقات بلا خجل ولا اكتراث.

هذا وقد وصفت أحاديث نزول عيسى ﷺ عند ظهور المسيح الدجال بأنها متواترة، فقد قال ابن كثير في تفسير قول تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: 159]: «ذكر الأحاديث الواردة في نزول عيسى ابن مريم إلى الأرض من السماء في آخر الزمان قبل يوم القيامة، وأنه يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له».

وبعد أن ساق عدداً كثيراً من هذه الأحاديث الواردة في البخاري ومسلم

ومسند الإمام أحمد وسنن الترمذي وأبي داود وسائر أهل السنن، ثم قال: فهذه أحاديث متواترة عن رسول الله ﷺ من رواية أبي هريرة وابن مسعود وعثمان بن أبي العاص وأبي أمامة والنواس بن سمعان وعبد الله بن عمرو بن العاص ومُجَمِّع بن جارية وأبي سريحة حذيفة بن أسيد رضي الله عنه، وفيها دلالة على صفة نزوله ومكانه من أنه بالشام بل بدمشق عند المنارة الشرقية، وأن ذلك يكون عند إقامة صلاة الصبح ١٠ هـ.

هذا وقد وصف رسول الله ﷺ عيسى ابن مريم بأنه ربعة أحمر من يراه يحسبه خرج من ديماس أي حمام بعد أن اغتسل، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ نعت عيسى عليه السلام بعد أن رآه ليلة الإسراء والمعراج فقال: «ربعة أحمر، كأنما خرج من ديماس» يعني الحمام. وفي رواية للبخاري من حديث ابن عمر رضي الله عنهما في وصف عيسى عليه السلام أن رسول الله ﷺ قال: «فأما عيسى فأحمر جَعْدٌ عريض الصدر»، وفي رواية لمسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «وأراني الله عند الكعبة في المنام وإذا رجل آدم كأحسن ما ترى من آدم الرجال تضرب لِمَتُّهُ بين مَنكَبَيْهِ رَجُلٌ الشعر يقطر رأسه ماء واضعاً يديه على مَنكَبَيْهِ رجلين وهو يطوف بالبيت، فقلت: من هذا قالوا: هو المسيح ابن مريم» وفي لفظ للبخاري من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «بينما أنا نائم أطوف بالكعبة فإذا رجل آدم سبط الشعر يتهادى بين رجلين، ينظف رأسه ماء - أو يهراق رأسه ماء - فقلت: من هذا؟ فقالوا: ابن مريم» ومعنى قوله: «ربعة» أي مربع بين الطول والقصر، ومعنى قوله: «جعد» أي ليس شعره سَبْطاً أي ناعماً، ويقال: رجل جعد أي كريم. ومعنى قوله: «آدم» أسمر، وقد يوصف الأحمر به أيضاً إذا لم يكن أمهق شديد البياض. وقوله: «تضرب لِمَتُّهُ بين مَنكَبَيْهِ» اللَّمَّةُ هي الشعر المجاوزُ شحمة الأذن. ومعنى قوله: «رَجُلٌ الشعر» يقال: رَجُلٌ الشعر ورجل الشعر ورجل الشعر إذا كان شعره بين السبوط والجعودة، وهذا يقيد ما ورد في وصف شعر عيسى عليه السلام من مطلق قوله: سبط الشعر أو جعد، ومعنى قوله: «ينظف رأسه ماء» أي يقطر ويسيل.

الفصل الثامن والسبعون

تابع: المسيح ابن مريم ﷺ

ذكر الله تبارك وتعالى في تعداد جرائم اليهود أنهم قالوا لموسى: أرنا الله جهرة، وأنهم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات، وأنهم عدوا في السبت. وأنهم نقضوا الميثاق، وأنهم كفروا بآيات الله، وأنهم قتلوا الأنبياء بغير حق، وأنهم قالوا: قلوبنا غلف، ثم قال تعالى: ﴿وَكُفِّرْهُمْ وَقُولِهِمْ عَلَىٰ مَرِيَمَ ۖ بَهْتَنَّا عَظِيمًا﴾ [١٥٦] وقوله تعالى هنا: ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾ بنصب رسول يحتمل أن يكون من تمام مقالة اليهود وقالوا ذلك تهكماً على حد قول مشركي مكة في حق محمد ﷺ فيما حكى الله ذلك عنهم: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦] وقول فرعون في موسى ﷺ: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧]، ويجوز أن يكون قوله: ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾ ليس من مقالة اليهود، وإنما ذكره ﷺ ونصبه على الاختصاص والمدح؛ للإشارة إلى فظاعة عملهم، ودرجة جهلهم وشناعة زعمهم وسوء حقدهم وبُغضهم للأنبياء والمرسلين. ولا شك أن الحواريين قاموا بعد رفع المسيح ﷺ بنشر دعوة توحيد الله ﷻ، وأنه لا إله إلا الله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته، ألقاها إلى مريم وروح منه، وقد تعرَّضوا لصنوف من التعذيب على أيدي اليهود والرومان، ولم يدع واحد منهم أن عيسى إله أو ابن إله، أو أن الله ثالث ثلاثة، وقد استمرت دعوة التوحيد التي جاء بها عيسى ﷺ صافية وقتاً من الزمان ليس بطويل، فقد وقع على أتباعه اضطهاد عظيم، فشرَّدوا وغدَّبوا وقُتِلُوا وصُلِّبُوا حتى كادت تختفي معالم المسيحية من الأرض بسبب تلك الاضطهادات التي كان يتولاها أباطرة الرومان وعمالهم وكذلك اليهود.

وأشد ما نزل بهم من الأذى كان في عهد الإمبراطور نيرون (٦٤م)، ثم في

عهد الإمبراطور تراجان (١٠٦م)، ثم الإمبراطور ديسيوس (٢٥١م)، ثم في عهد الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤م)؛ فأما نيرون فقد اتهمهم بأنهم هم الذين أحرقوا مدينة روما، وتفنن في تعذيبهم، إذ كان يأمر أتباعه بوضع أتباع عيسى في جلود الحيوانات ثم يطرحونهم للكلاب فتنهشهم، كما كانوا يلبسون بعض هؤلاء المسيحيين ثياباً مطليّةً بالفار. ثم يجعلونهم مشاعل يستضيئون بنارها. كما كتب بطربرك الإسكندرية يصف بعض ما عاين من ديسيوس إذ يقول: عم الخوف الجميع، وفر بعضهم بدينهم، وقد أبعده كل مسيحي من خدمة الدولة مهما يكن ذكاًؤه، وكل مسيحي يُرشد عنه يؤتى به على عجل ويقدم إلى هيكل الأوثان، ويطلب منه تقديم ذبيحة للصنم، وعقاب من يرفض تقديم الذبيحة أن يكون هو الذبيحة، بعد أن يجتهدوا في حمله بالترهيب، ثم يقول البطريرك: ومن ضعاف الإيمان من أنكر مسيحيته واقتدى به البعض، ومنهم من تمسك بأذيال الفرار أو مَنْ زَجَّ به في غياهب السجون. ١.٥.

أما دقلديانوس فقد جاء إلى مصر وأنزل بها البلاء، وأمر بهدم الكنائس وإحراق الكتب، وأصدر أمراً بالقبض على الأساقفة وزجهم في غياهب السجون، وقهر المسيحيين على إنكار دينهم، وقتل منهم حوالي ثلاث مئة ألف.

وقد أُطلقَ على أتباع المسيح ﷺ اسم النصارى، نسبة إلى نصرانة قرية المسيح ﷺ من أرض الجليل بفلسطين، وهذه القرية تسمى أيضاً الناصرة والنصورية، ولا أعرف على التحديد متى صارت النصرانية علماً على دين أهل الإنجيل، وقد وجدت هذه اللفظة بهذا المعنى في أوائل القرن الثاني الميلادي، إذ كتب (بلين) وكان والياً في آسيا إلى الإمبراطور تراجان الموجود عام (١٠٦م) كتاباً يشرح فيه طريقة تعذيبه للمسيحيين، فقال: «جربت مع من اتهموا بأنهم نصارى على الطريقة الآتية: وهي أنني أسألهم إذا كانوا مسيحيين، فإذا أقروا أُعيد عليهم السؤال ثانية وثالثة، مهدداً بالقتل، فإذا أصرروا أنفذ عقوبة الإعدام فيهم، ثم يقول «بلين»: وقد وجهت التهمة إلى كثيرين بكتب لم تُذيل بأسماء أصحابها فأنكروا أنهم نصارى». ١.٥.

وقد يُفهم من القرآن الكريم أنهم أحدثوا هذا الاسم، إذ يقول الله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّونَ﴾ [المائدة: ٨٢]، ولا يقتضي لفظ النصرانية في الأصل مدحاً ولا ذمّاً؛ لأنها نسبة إلى وطن، والنسبة إلى الأوطان لا تقتضي مدحاً ولا ذمّاً، فإن الوطن الواحد يشتمل على صالحين وطالحين، أما المسيحية فإنها إنما يصح إطلاقها على المتبعين بحق دين المسيح ﷺ، وبعد بعثة رسول الله ﷺ، وقد نسخ الله بشريعته كل شريعة سوى شريعته، فإنه لا ينبغي إطلاق المسيحية على النصارى؛ لأن هؤلاء في الواقع لا يتبعون المسيح ﷺ، إذ لو اتبعوه لسارعوا إلى الإيمان بمحمد ﷺ، ولذلك لا نجد في كتاب الله ولا في سنة رسول الله ﷺ تسميتهم مسيحيين، وقد أطلق عليهم القرآن والسنة أنهم نصارى وأهل الكتاب، كما سماهم القرآن أهل الإنجيل، هذا وقد كان اليهود أشد الناس عداوة لدين المسيح عيسى ابن مريم ﷺ، وبذلوا كل سبيل للقضاء عليه وعلى أتباعه، وقد رأوا بتفكيرهم الشيطاني أن يتظاهر بعضهم بالدخول في هذا الدين ليحرفه ويبعد الناس عن دين المسيح ﷺ، وقد قام بهذه الحيلة شاؤول اليهودي، وقد كان من المغرمين المولعين بتعذيب النصارى وفتنتهم عن دينهم، ويجمع علماء النصرانية على أنه كان راضياً بقتل المسيحيين، وكان يسطو على الكنيسة ويدخل البيوت ويجر الرجال والنساء ويسلمهم إلى السجن، وقد وصف في رسالة (أعمال الرسل) بأنه الممتلئ كل غش وكل خبث، وأنه ابن إبليس، وأنه عدو كل بر، وأنه يفسد سبيل الله المستقيمة كما جاء في الإصحاح الثالث عشر من هذه الرسالة في الفقرة العاشرة من هذا الإصحاح.

وقد زعم شاؤول أنه تقدم إلى رئيس الكهنة اليهودي وطلب منه رسائل إلى دمشق إلى الجماعات، حتى إذا وجد أناساً من الطريق رجالاً أو نساءً يسوقهم موثقين إلى أورشليم، وقد كان ذلك في السنة الثامنة والثلاثين من الميلاد، أي بعد وقت قصير من رفع المسيح ﷺ، ويقول شاؤول عن نفسه: سمعتم بسيرتي قبلاً في الديانة اليهودية أنني كنت أضطهد كنيسة الله بإفراط وأتلفها، وكنت أتقدم في الديانة اليهودية على كثيرين من أترابي في جنسي؛ إذ كنت أوفر غيرة في

تقليدات آبائي. . ثم يزعم شاؤول أنه وهو في طريقه إلى دمشق رأى يسوع، وأنه آمن به، وأنه تسمى بولس، ويذكر لوقا صاحب الإنجيل المسمى باسمه في رسالته التي سماها أعمال الرسل قصة شاؤول هذه على ما زعمه شاؤول، فيقول في الإصحاح التاسع من هذه الرسالة عن شاؤول: فتقدم إلى رئيس الكهنة وطلب منه رسائل إلى دمشق إلى الجماعات، حتى إذا وجد أناساً من الطريق رجالاً أو نساءً يسوقهم موثقين إلى أورشليم. وفي ذهابه حدث أنه اقترب إلى دمشق فبغته أبرق حوله نور من السماء، فسقط على الأرض وسمع صوتاً قائلاً له: شاؤول شاؤول لماذا تضطهذي؟ فقال: من أنت يا سيد؟ فقال الرب: أنا يسوع الذي أنت تضطهده، ثم يقول: فقال وهو مرتعد ومتحير: يا رب ماذا تريد أن أفعل؟ ثم يقول: وللوقت جعل يركز في المجامع بالمسيح أن هذا هو ابن الله. ولم تكن فكرة ألوهية عيسى أو بنوته لله معروفة من قبل للمسيحيين فهم لا يعلمون إلا أنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، ولما جاء شاؤول الذي تسمى بولس بهذه الدعوى أنكرها الحواريون وتشككوا في هذه القصة التي اخترعها شاؤول، ولم ينسوا أنه أكبر أعدائهم في اليهود غير أن برنابا نصح الحواريين أن لا يعجلوا على شاؤول وأحسن تقديمه إلى هؤلاء، بيد أن برنابا كذلك لم يستقم على موالاته شاؤول فلم يمض قليل وقت حتى انفصلت عرى المودة بينهما، بل نفر من شاؤول عامة التلاميذ ولم يبق على صحبته له سوى لوقا الذي اعتبر نفسه أخص تلاميذ بولس، وكان طبيياً ولم يكن من الحواريين، وكان شاؤول (بولس) يلقيه بعد ذلك بالطبيب الحبيب.

وصار بولس يبشر بمسيحية لم يعرفها الحواريون، إذ لم يتلق أي نوع من التعليم من عيسى ﷺ أو من الحواريين، ثم صار يزعم أن يسوع يعلمه من السماء مباشرة وبلا واسطة، ويقول: لا يجوز لأحد أن يقبل تعليماً آخر من غيري، وحرّم على تلاميذه أن يستمعوا أو يأخذوا شيئاً عن الحواريين.

والى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الفصل التاسع والسبعون

تابع: المسيح ﷺ

ذكرت في ختام الفصل السابق أن شاؤول الذي سمي نفسه بولس أراد القضاء على جميع التعاليم التي تلقاها الحواريون عن المسيح ﷺ، وكان يقول: لا يجوز لأحد أن يقبل تعليماً آخر من غيري، وحرّم على تلاميذه أن يستمعوا أو يأخذوا شيئاً عن الحواريين، وفي ذلك يقول في كتاب بعث به إلى تلميذه تيموثاوس: طلبت إليك أن تمكث في إفسس إذ كنت أنا ذاهباً إلى مكدونية لكي توصي قوماً ألا يعلموا تعليماً آخر، ولا يصغوا إلى خرافات وأنسب لا حدّ لها تُسبّب مباحثات دون بنیان الله الذي في الإيمان، وأما غاية الوصية فهي المحبة من قلب طاهر وضمير صالح وإيمان بلا رياء، الأمور التي إذا زاغ قوم عنها انحرفوا إلى كلام باطل يريدون أن يكونوا معلمي الناموس وهم لا يفهمون ما يقولون ولا ما يقررون، ويقول: إن كان أحد يُعلّم تعليماً آخر فقد تصلف وهو لا يفهم شيئاً.

وهكذا بدأ شاؤول اليهودي هذا الذي زعم أنه تنصر وتسمى بولس، بدأ يُجَهّل كل الحواريين ويصفهم بعدم الفهم، وراح يدعي أنه معلم المسيحية الوحيد، وصار ينشر تعاليم يستمدّها من مذاهب الهندوس والبوذيين وفلاسفة الإغريق وبعض تعاليم اليهود، فقد جاء لأول مرة بفكرة التثليث، وبفكرة أن المسيح ابن الله، وأنه نزل ليضحّي بنفسه تكفيراً عن خطيئة البشر، وأنه صعد ليجلس عن يمين أبيه ليحكم ويدين البشر، تعالى الله عما يقول علواً كبيراً.

ولا شك أن اليهود من آباءه قالوا: العزيز ابن الله، فهو لم يبعد في دعوته أن عيسى ابن الله عن دعوى آباءه الضالين المنحرفين، وقد ضم إلى ذلك ما أخذه عما دُوّن عند الهندوس عن كرشنة، وما دُوّن عند بعض البوذيين عن بوذا،

فكرشنا يلقب عند معتقديه من الهندوس بالمخلص والفادي والمعزي والراعي الصالح والوسيط وابن الله والأفنوم الثاني من الثالث المقدس؛ وهو الأب والابن والروح القدس، كما لقب بوذا عند بعض أتباعه بنفس هذه الألقاب وهي بعينها التي أطلقها بولس على المسيح ﷺ، كما قال أصحاب كرشنا: إنه ولد من العذراء (ديفاكي) التي اختارها الله والدة لابنه بسبب طهارتها وعفتها، وقال بعض أصحاب بوذا عن بوذا إنه ولد من العذراء (مايا) التي اختارها الله والدة لابنه بسبب طهارتها وعفتها. وهذه العبارة بعينها أطلقها شاؤول (بولس) على والدة المسيح وولدها ﷺ، ويقول أصحاب كرشنا عن كرشنا، إن الناس عرفوا ولادته من نجمة الذي ظهر في السماء، وكذلك قال بعض أصحاب بوذا عن بوذا، وكذلك قالت تعاليم شاؤول (بولس): لما ولد المسيح ظهر نجمة في المشرق، وبواسطة ظهور نجمة عرف الناس محل ولادته، كما زعم أصحاب كرشنا أن أمه (ديفاكي) كانت مخطوبة لناندا، وأنها لما ولدت كرشنا سمع ناندا نداء من السماء يقول له: قم خذ الصبي وأمه وفر بهما إلى كاكول واقطع نهر جمنة؛ لأن الملك طالب إهلاكه، وفي تعاليم شاؤول التي نشرها: أنه لما ولد يسوع كان يوسف النجار خطيب أمه غائباً؛ وأنذر يوسف النجار خطيب مريم والدة يسوع بحلم كي يأخذ الصبي وأمه ويفرّ بهما إلى مصر؛ لأن الملك طلب إهلاكه، كما أن اسم المدينة التي ولد فيها كرشنا وعمل فيها الآيات العجيبة هي مطر، وكذلك نشر شاؤول أن اسم المدينة التي هاجر إليها يسوع المسيح وأمه وخطيبها يوسف النجار هي المطرية من أرض مصر، وقد عمل فيها الآيات العجيبة لما ترك أرض اليهودية.

علماء بأن كرشنا كان موجوداً حوالي سنة ٩٥٠ ق.م، وبوذا كان موجوداً حوالي منتصف القرن السادس قبل الميلاد. وقد انتشرت تعاليم وأفكار بولس في الغرب بين الوثنيين واليونان في الوقت الذي حوربت فيه بالمشرق، وفي ذلك يقول بولس في رسالة إلى تلميذه تيموثاوس: أنت تعلم أن جميع الذين في آسيا ارتدوا عني. ومع ذلك فقد أخذ بولس في التطواف في الأقاليم ينشئ الكنائس

ويلقي الخطب ويبعث بالرسائل التي صارت عماد المسيحية المحرفة، حتى قتل في اضطهادات نيرون سنة ٦٦ أو ٦٧م، غير أن بعض الحواريين ومنهم برنابا الذي كان يحسن الظن في (بولس) قاوموا هذه التعاليم التي جاء بها بولس، وألّف برنابا إنجيلاً أشار في مقدمته إلى السبب الذي دعاه إلى تأليفه. وأنه إنما ألّفه ليرد على أولئك الذين يدعون ألوهية المسيح؛ أو أنه ابن الله، وفي ذلك يقول برنابا في مطلع إنجيله: أيها الأعداء، إن الله العجيب العظيم قد افتقدنا في هذه الأيام بنبيه يسوع المسيح برحمة عظيمة للتعليم، والآيات التي اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى، مبشرين بتعليم شديد الكفر، داعين المسيح ابن الله، ورافضين الختان الذي أمر الله به دائماً، مجوزين كل لحم نجس الذي ضل في عدادهم أيضاً بولس (شاؤول اليهودي) الذي لا أتكلم عنه إلا مع الأسى، وهو السبب الذي لأجله أسطر هذا الحق الذي رأيت. ١.٥.

وقد أجمع مؤرخو النصرانية على أنه كانت في العصور الغابرة أناجيل شتى قد أخذت بها فرق مسيحية قديمة، وأن كل فرقة من هذه الفرق لم تكن تتمسك إلا بإنجيلها، وأن الكنيسة قامت في أوائل القرن الثالث الميلادي بالإبقاء على أربعة أناجيل فقط؛ وهي إنجيل متى وإنجيل مرقس وإنجيل لوقا وإنجيل يوحنا، وحرّمت الكنيسة ما عداها من الأناجيل، على أنه قد ذكر بعض المؤرخين أن هذه الأناجيل الأربعة لا ذكر لها قبل آخر القرن الثاني الميلادي، وأول من ذكر هذه الأناجيل الأربعة هو أرينيوس سنة ٢٠٩م، ثم جاء من بعده كليمنس اسكندريانوس في سنة ٢١٦م، وأظهر أن هذه الأناجيل الأربعة واجبة التسليم، علماً بأن جميع هذه الأناجيل أشبه بكتب السيرة النبوية التي تسوق عن رسول الله ﷺ سيرته، وتشتمل على الصحيح والحسن والضعيف والموضوع من الأخبار. ولم يدع أحد من النصارى أنها تشتمل على الإنجيل المنزل على عيسى ﷺ، وإن كانت تسوق أحياناً بعض فقرات لا شك أنها توافق ما عُرف عن المسيح ﷺ من توحيد الله تعالى، وأن عيسى رسول الله ونبي من الأنبياء؛ ففي إنجيل متى في الإصحاح العاشر في الفقرة الأربعين في خطاب عيسى مع الحواريين يقول: من يقبلكم،

يقبلني، ومن يقبلني يقبل الذي أرسلني. وفي الإصحاح التاسع عشر من متى في الفقرة الثامنة عشرة: لا تقتل، لا تزن، لا تسرق، لا تشهد بالزور، أكرم أباك وأمك، وأحب قريبك كنفسك. وفي الفقرة الواحدة والثلاثين والثانية والثلاثين من الإصحاح الثاني والعشرين من متى: أفما قرأتم ما قيل لكم من قِبَلِ اللَّهِ القائل: أنا إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب. وفي الفقرة السابعة والثلاثين والثامنة والثلاثين والتاسعة والثلاثين من الإصحاح الثالث والعشرين من متى يقول: يا اورشليم يا اورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين، إليها كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا. هو ذا بينكم يُترك لكم خراباً. لأنني أقول لكم إنكم لا ترونني من الآن حتى تقولوا: مبارك الآتي باسم الرب. وفي إنجيل مرقس في الإصحاح العاشر في الفقرة التاسعة عشرة: أنت تعرف الوصايا. لا تزن. لا تقتل. لا تسرق. لا تشهد بالزور. لا تسلب. أكرم أباك وأمك. وفي الإصحاح الثاني عشر منه في الفقرة السادسة والعشرين: أفما قرأتم في كتاب موسى في أمر العُلَيْقَةِ كيف كان الله قائلاً: أنا إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب. وفي الفقرة الثامنة والعشرين إلى الثانية والثلاثين منه: فجاء واحد من الكتبة وسمعهم يتحاورون، فلما رأى أنه أجابهم حسناً سأله: أيَّةُ وصيةٍ هي أول الكل؟ فأجابه يسوع: أن أول كل الوصايا هي: اسمع يا إسرائيل: الرَّبُّ إلهنا ربُّ واحد، وتحب الربَّ إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك، هذه هي الوصية الأولى، وثانيةٌ مثلها هي تُحِبُّ قريبك كنفسك، ليس وصية أخرى أعظم من هاتين، فقال له الكاتب: جيداً يا مُعَلِّم، بالحق قلت؛ لأنه الله واحدٌ وليس آخر سواه، وفي إنجيل يوحنا التقرير بأن الله واحد، وأن عيسى رسول الله حيث جاء في الفقرة الثانية من الإصحاح السابع عشر منه: وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته.

ولا شك أن هذه هي وصايا الأنبياء لم يتمكن شأؤول ولا المحرفون من اليهود والنصارى من طمسها، وهي المطابقة لما جاء به محمد ﷺ وعليها وعلى

نحوها يحمل قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحْكَمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّورَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْأَنْبِيَاءِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ [المائدة: ٤٧].
وفي نحوها يقول الله ﷻ في الوصايا العشر: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنٌ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكَُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١ - ١٥٣].

وقد أثر عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله ﷺ التي عليها خاتمه فليقرأ هؤلاء الآيات: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الثمانون

تابع: المسيح ﷺ

ذكرت في الفصل السابق أنه كانت هناك أُنَاجيل كثيرة، وكان لكل فرقة من فرق النصرى إنجيلها الخاص بها، حتى قامت الكنيسة في أوائل القرن الثالث الميلادي بالإبقاء على أربعة أُنَاجيل فقط، وهي متى ومرقس ولوقا ويوحنا؛ وإليكم نبذة تبين أن هذه الأُنَاجيل مختلف في تاريخ تدوينها وفي اللغة التي كتبت بها، وفي البلد الذي أُلِّف فيه وفي الذي قام بترجمتها، كما اشتملت على جملة من التناقضات فيما بينها؛ فإِنجيل متى منسوب لمتى الحواري أحد تلاميذ المسيح الاثني عشر، ويعرف بمتى العَشَّار، إذ كان قبل اتصاله بالمسيح ﷺ من جباة الضرائب للرومان، وكان جباة الضرائب يعرفون آنذاك بالعَشَّارين، وقد كان عمله في كفر ناحوم من أرض الجليل بفلسطين، وقد ذكر متى في إنجيله كيفية دخوله في دين المسيح إذ يقول في الإصحاح التاسع من إنجيله: وفيما يسوع مجتاز من هناك رأى إنساناً جالساً عند مكان الجباية اسمه متى، فقال له: اتبعني فقام وتبعه، وبينما هو متكئ في البيت إذا عَشَّارون وخطاة كثيرون قد جاؤوا واتكؤوا مع يسوع وتلاميذه، فلما نظر الفريسيون قالوا لتلاميذه: لماذا يأكل معلمكم مع العشارين والخطاة؟ فلما سمع يسوع قال لهم: لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى، اذهبوا وتعلموا ما هو؟ إني أريد رحمة لا ذبيحة، لأنني لم آت لأدعو أبراراً بل خطاة إلى التوبة.

وقد اختلف النصرى في تاريخ تدوين هذا الإنجيل، فبعضهم يدَّعي أنه أُلِّف عام ٣٩م، وبعضهم يدَّعي أنه أُلِّف عام ٤١م، وبعضهم يقول: إنه أُلِّف في عهد الإمبراطور قلووديوس ولم يحدد السنة التي أُلِّف فيها، علماً بأن قلووديوس حكم أربع عشرة سنة، ويقول هورن: إنه أُلِّف عام ٣٧ و٣٨ أو ٤١ أو ٤٣ أو ٤٨ أو ٦١ أو ٦٢ أو ٦٣ أو ٦٤م.

وقد تنازع النصارى كذلك في اللغة التي كتب بها هذا الإنجيل وفي البلد الذي أُلّف فيه، فمنهم من يقول: إنه كتب بالعبرية، ومنهم من يقول: إنه كتب بالسريانية، ومنهم من يقول: إنه كتب في أورشليم، ومنهم من يقول: إنه كتب باليونانية، وأجمعوا على أنه لم يعرف إلا باليونانية، واختلفوا في مترجمه إلى اليونانية، والمعروف أن متى لم يبق طويلاً في فلسطين بعد رفع المسيح ﷺ، بل جال في بلاد كثيرة يبشر بالمسيحية، واستقر بأرض الحبشة حتى مات عام ٧٠م ببلاد الحبشة، على أثر ضرب مبرح أنزله به أحد أعوان ملك الحبشة، وبعضهم يقول: إنه طعن بمرح بأرض الحبشة بعد أن قضى بها نحو ثلاث وعشرين سنة.

أما إنجيل مرقس فمؤلفه أصله من اليهود أيضاً وكانت أسرته تقيم بأورشليم في وقت ظهور المسيح ﷺ، لكنه ليس من الحواريين، بل هو تلميذ لبطرس كبير الحواريين، كما أنه تتلمذ على خاله برنابا أحد الحواريين كذلك، وقد كتب هذا الإنجيل باللغة اليونانية بطلب من أهالي رومية، في عهد الإمبراطور نيرون، وقد ذكر سعيد بن البطريق النصراني في تاريخه أن هذا الإنجيل كتبه بطرس رئيس الحواريين عن مرقس في مدينة رومية ونسبه إلى مرقس. وهذا أمر عجيب غريب، إذ كيف يروي رئيس الحواريين عن تلميذه هذا الإنجيل، ثم ينسبه إلى التلميذ، على أن بعض الرواة يقررون أن مرقس ما كتب إنجيله إلا بعد وفاة بطرس، وقد ذكر كتاب مروج الأخبار في تراجم الأبرار: أن مرقس كان ينكر ألوهية المسيح، هو وأستاذه بطرس الحواري، وقد جاء في هذا الكتاب عن مرقس أنه صنف إنجيله بطلب من أهالي رومية وكان ينكر ألوهية المسيح. وقد انتقل مرقس من بلد إلى بلد يبشر بالمسيحية حتى دخل مصر في منتصف القرن الأول من الميلاد، فأقام بها، وأخذ يدعو إلى المسيحية، فدخل فيها عدد كبير من المصريين، وقد كان يسافر من مصر أحياناً إلى رومية، وأحياناً إلى شمال إفريقية، غير أنه آثر الاستقرار في مصر إلى أن ائتمر به الوثنيون فسجنوه وعذبوه ثم قتلوه في عام ٦٢م.

أما إنجيل لوقا فمؤلفه ليس من الحواريين كذلك ولا من تلاميذ الحواريين، وإنما تتلمذ لبولس (شاؤول اليهودي) وأخلص له، وصار أخص أصدقائه، وقد

اختلف فيه فقيل: إنه أنطاكي ولد بأنطاكية، وقيل: بل روماني نشأ في إيطاليا، وبعضهم يقول: إنه كان طبيباً، وبعضهم يقول: إنه كان مصوراً. وقد أشار لوقا إلى سبب تأليفه إنجيله، فبدأ هذا الإنجيل بقوله: إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المتيقنة عندنا كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معانيين وخداماً للكلمة رأيت أنا أيضاً إذ قد تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق أن أكتب على التوالي إليك أيها العزيز ثاوفيلس لتعرف صحة الكلام الذي علمت به. وقد تنازع مؤرخو النصرانية في تاريخ تدوين هذا الإنجيل فقيل: إنه أُلّف عام ٥٣ أو ٦٣ أو ٨٤م وقيل غير ذلك.

أما إنجيل يوحنا فمؤلفه محل نزاع شديد عميق بين علماء النصرانية؛ فالكثير منهم يدعي أنه أحد الحواريين وهو يوحنا بن زبدي الصياد، وبعضهم يدعي أنه يوحنا آخر لا يمت إلى الأول بصلة، وقد أنكر بعض علماء النصرانية آخر القرن الثاني الميلادي نسبة هذا الإنجيل إلى يوحنا الحوارية في الوقت الذي كان يعيش فيه أرينيوس تلميذ بوليكارب تلميذ يوحنا الحوارية، ولم ينقل أحد أن أرينيوس سمع من أستاذه صحة تلك النسبة. وقد قال علماء النصرانية: إن كافة إنجيل يوحنا من تصنيف طالب من طلبة مدرسة الإسكندرية، كما جاء في دائرة المعارف البريطانية التي اشترك في تأليفها خمس مئة من علماء النصرانية النص التالي: أما إنجيل يوحنا فإنه لا مربة ولا شك كتاب مزور أراد صاحبه مضادة اثنتين من الحواريين بعضهما لبعض وهما القديسان يوحنا ومتى، وقد ادعى هذا الكاتب المزور في متن الكتاب أنه هو الحوارية الذي يحبه المسيح، فأخذت الكنيسة هذه الجملة على علاقتها، وجزمت بأن الكاتب هو يوحنا الحوارية، ووضعت اسمه على الكتاب نصّاً، مع أن صاحبه غير يوحنا يقيناً، ولا يخرج هذا الكتاب عن كونه مثل بعض كتب التوراة التي لا رابطة بينها وبين من نسبت إليه، وإنما لنراف ونشفق على الذين يبذلون منتهى جهدهم ليربطوا ولو بأوهى رابطة ذلك الرجل الفلسفي الذي أُلّف هذا الكتاب في الجيل الثاني بالحوارية يوحنا الصياد الجليل، فإن أعمالهم تضيع عليهم سُدى، لخبطهم على غير هدى. ١.٥هـ.

والى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الفصل الحادي والثمانون

تابع: المسيح ابن مريم ﷺ

ذكرت في الفصل السابق إنكار دائرة المعارف البريطانية أن يكون إنجيل يوحنا من تأليف يوحنا الحواري، وتقريرها أنه من تأليف كاتب مزور من الجيل الثاني. وقد اختلف في تاريخ كتابة هذا الإنجيل؛ فبعضهم يرى أنه كتب سنة ٩٥م أو ٩٦م أو ٩٨م وقيل غير ذلك.

وعامة مؤرخي النصرانية يقررون أن إنجيل يوحنا هو وحده الذي نص على ألوهية المسيح. مما يدل على أنه أُلّف لتقرير هذه الألوهية، وهذا يؤكد مذهب من يقول: إن مؤلفه أحد طلبة مدرسة الإسكندرية التي كانت تنزع القول بألوهية المسيح، مقررة لما أثرته عن بولس «شاؤول اليهودي».

وهذه الأناجيل الأربعة متى ومرقس ولوقا ويوحنا متناقضة في شكلها وموضوعها، فمن صور اختلافها في مظهرها العام أن إصحاحات (فصول) إنجيل متى ٢٨ إصحاحاً، ومرقس ١٦ إصحاحاً، ولوقا ٢٤ إصحاحاً، ويوحنا ٢١ إصحاحاً.

أما تناقض هذه الأناجيل في حقيقة المسألة الواحدة فيظهر فيما يأتي: إنجيل متى يقرر أن عيسى من أولاد سليمان بن داود، وإنجيل لوقا يقرر أن عيسى من أولاد ناثان بن داود، وإنجيل متى يقرر أن سلتائيل بن يكنيا، وإنجيل لوقا يقرر أن سلتائيل بن نيري، وإنجيل متى يقرر أن من داود إلى يسوع ستة وعشرين جيلاً، وإنجيل لوقا يقرر أن من داود إلى يسوع واحداً وأربعين جيلاً، كما أن إنجيل متى يقرر أن المرأة التي لحقت يسوع عند انصرافه إلى نواحي صور وصيدا كانت كنعانية كما جاء في الإصحاح الخامس عشر منه، وإنجيل مرقس يقرر أن هذه المرأة كانت أممية، وفي جنسها فينيقية سورية، كما جاء في الإصحاح

السابع منه، والعجيب أن يد التلموديين اليهود ظاهرة في صياغة هذه الأناجيل، إذ إن التلمود اليهودي يقرر أن الناس قسماً يهود وأمميون، وأن اليهود يفضلون الأمميين، كما يفضل الإنسان البهيمة، وأن الأمميين جميعاً كلاب وخنازير، وهذه التعاليم الخبيثة التي يأبأها من له أدنى مسكة من عقل تسبب الأناجيل التي بيد النصارى إلى عيسى ﷺ أنه كان يعتقد أنها - برأه الله مما قالوا -، ففي قصة المرأة التي لحقت عيسى ﷺ عند انصرافه إلى صور وصيدا تفوح هذه الرائحة الخبيثة التلمودية منه، ففي الإصحاح الخامس عشر من إنجيل متى في الفقرة الحادية والعشرين إلى ٢٨: ثم خرج يسوع من هناك وانصرف إلى نواحي صور وصيدا، وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت إليه قائلة: ارحمني يا سيد يا ابن داود، ابنتي مجنونة جداً فلم يجبها بكلمة، فتقدم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين: اصرفها لأنها تصيح وراءنا، فأجاب وقال: لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة، فأنت وسجدت له قائلة: يا سيد أعني، فأجاب وقال: ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب؛ فقالت: نعم يا سيد والكلاب أيضاً تأكل من الفتات الذي يسقط من مائدة أربابها، حينئذ أجاب يسوع وقال لها: يا امرأة عظيم إيمانك ليكن لك كما تريد، فشفيت ابنتها من تلك الساعة، ثم انتقل يسوع من هناك وجاء إلى جانب بحر الجليل، وصعد إلى الجبل وجلس هناك، فجاء إليه جموع كثيرة معهم عُرجٌ وعُميٌّ وخُرْسٌ وشُلٌّ وآخرون كثيرون. وطرحوهم عند قدمي يسوع فشفاهم، حتى تعجب الجموع إذا رأوا الخُرْس يتكلمون والشل يصيحون والعرج يمشون والعُمي يُبصرون، ومجدوا إله إسرائيل.

ففي هذا النص يزعمون أن عيسى وصف غير بني إسرائيل بأنهم كلاب، ونفس هذا الوصف موجود في الإصحاح السابع من إنجيل مرقس، وإن تعجب فعجب أن يصدق عاقل يؤمن بالأنبياء والمرسلين يصدق أن عيسى يصف من سوى الإسرائيليين بأنهم كلاب، نزهه الله وبرأه مما قالوا. وبالرغم من أنه بعد أن قامت الكنيسة في أوائل القرن الثالث الميلادي بالإبقاء على هذه الأناجيل الأربعة فقط فإن النزاع لم ينقطع بين أصحاب هذه الأناجيل الأربعة وبين أصحاب

الأناجيل الأخرى حتى دخل الإمبراطور قسطنطين في النصرانية، وقد رأى النصارى في غاية التنازع؛ فمنهم من يعتقد أن المسيح عبد الله ورسوله، ومنهم من يدعي أنه ابن الله له صفة الأزلية. ومنهم من يدعي أن الله ثالث ثلاثة؛ فقرر عقد مؤتمر في نيقية، وقد كان في مصر رجل لبيبي الأصل يقال له آريوس، وكان داعية قوياً يدعو إلى توحيد الله ﷻ، ويقرر أن عيسى عبد الله ورسوله، وقد أخذ يقاوم كنيسة الإسكندرية التي كانت تنشر بين الناس القول بألوهية المسيح فأخذ آريوس يحارب هذه الكنيسة.

قالت الكاتبة الإنجليزية ا - ل - بتشر في كتابها تاريخ الأمة القبطية الذي ترجمه إلى العربية رجل من الأقباط اسمه اسكندر تادرس وتولى طبعه وأشرف عليه تادرس شنودة المنقبادي صاحب جريدة مصر، وطبع في مطبعة مصر بالفجالة سنة ١٩٠١م؛ تقول هذه الكاتبة الإنجليزية في ص ١٩١ - ١٩٢ ج١: وقد ظهر في الإسكندرية بعد ذلك صديق وظهير لميليتيوس هو آريوس الهرطوقي المشهور وأصله من ليبيا، وقد سامه بطرس شماساً في الكنيسة. وتقول في ص ٢٠١: أما الحوادث التي أوجبت انعقاد مجمع نيقية وما تم في هذا المجمع فمعروفة عند الكثيرين، إذ أتى على ذكرها جماعة من علماء اللاهوت وشرحوها بالإسهاب فلا حاجة لسردها الآن، ولم تأت سنة ٣١٩م حتى زاد تدمير الإسكندرانيين وكثر لغظهم ضد البدعة التي كان آريوس يسعى في نشرها وتعليمها للآخرين، مما دعا البطريرك إسكندر أن يهتم لأخذ الاحتياط اللازم لصدها، ثم تقول في ص ٢٠٢: وأخيراً كتب البطريرك رسالة رعوية إلى آريوس وأتباعه يندرهم بترك طريق الضلالة التي ساروا فيها والرجوع إلى الطريق السوي، ولكنه عبثاً حاول إقناعهم. ولا بد أن بعض الباحثين يعرفون أن نقطة الخلاف هذه كانت فيما يختص بألوهية المسيح، ثم تقول: إذن فالذنب ليس على آريوس بل على فئات أخرى سبقته في إيجاد هذه البدع، فأخذ هو عنها، ولكن تأثير تلك الفئات لم يكن شديداً، كما كان تأثير آريوس الذي جعل الكثيرين ينكرون سر الألوهية حتى انتشر هذا التعليم وعمّ. ثم تقول في ص ٢٠٣: وكانت نتيجة هذا كله أن البطريرك إسكندر شكل

مجمعاً في سنة ٣٢٠م حكم فيه على آريوس بالحرمان من عضوية الكنيسة، وهو ثالث حكم صدر ضده في حياته، أما آريوس فلم يخضع لهذا الحكم ولم يعبأ، به بل غادر الإسكندرية قاصداً فلسطين حيثما جمع إليه أصدقاء أثر فيهم تأثيراً شديداً، إذ استمالهم إليه بكليتهم حتى إن يوساب أسقف نيكومديا الذي كان رفيقاً لآريوس في المدرسة اعتنق مذهب زميله كما هو، ومن ثم سعى بعد ذلك في استمالة الإمبراطور قسطنطين إلى هذا المذهب، وقد كان الإمبراطور المذكور صديقاً ليوساب يميل إليه كثيراً.

والى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الثاني والثمانون

تابع: المسيح ابن مريم ﷺ

أشرتُ في ختام الفصل السابق إلى ما ذكرته المؤلفة الإنجليزية بتشر في كتابها تاريخ الأمة القبطية من أن آريوس كان داعية قوياً إلى أن عيسى عبد الله ورسوله ليس إلهاً ولا ابن إله، وتستمر قائمة في بيان أسباب انعقاد مؤتمر نيقية: ولما غرس آريوس غرسه هذا في يوساب أسقف نيكومديا أب إلى فلسطين؛ حيث سمح له يوسيبوس أسقف قيصرية وأساقفة آخرون بأن يعقد جمعيات دينية في أبرشيات مختلفة ليعظ فيها، ثم تشير المؤلفة في ص ٢٠٤ و ٢٠٥ إلى انتشار دعوة آريوس، وأن الإمبراطور أرسل مكتوباً إلى البطريرك اسكندر وآريوس معاً لمحاولة إيقاف النزاع، وأنه لم يفلح في إيقاف هذا الشقاق عند حده، فأصدر قسطنطين أوامره باجتماع جميع الأساقفة في نيقية ليفحصوا هذا المُشكِل ويتوا فيه حكماً قاطعاً بكل صراحة وإمعان، وبناءً على ذلك التأم هذا المجمع الشهير سنة ٣٢٥م، وفيه كُتب أول نسخة من قانون الإيمان النيقاوي.

ثم تقول في ص ٢٠٧: وقد يظن البعض أن شقاق آريوس قد انتهى عند هذا الحد، والحقيقة أنه بدأ يستفحل، ثم تقول في ص ٢١٥: أما ميليتيوس وآريوس فلم يكونا يرضخان لحكم المجمع النيقاوي؛ ولذلك بدأت اضطرابات جديدة تقع في الكنيسة المصرية. ا.هـ. ويقول المعلق على هذا الكتاب وهو تادرس شنودة في هامش قرارات مؤتمر نيقية: جاء في القانون الذي وضعه المجمع النيقاوي أنه قرر أن يصلي النصارى قائمين بدل ما كانوا يصلون راكعين. ا.هـ.

هذا وقد كانت كنيسة الإسكندرية قائمة على قدم وساق للقضاء على آريوس ومذهبه، وزعم البطريرك بطرس أن المسيح لعن آريوس، وأنه يحذرهم منه، وقال

بطرس: إني رأيت المسيح في النوم مشقوق الثوب، فقلت له: يا سيدي! من شق ثوبك؟ فقال لي: آريوس، فاحذروا أن تدخلوه معكم.

هذا وقد ساق سعيد بن البطريق الطبيب النصراني المؤرخ الشهير وكان من أهل فسطاط مصر ومولده في يوم الأحد لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ٢٦٣هـ، وعُيِّن بطريك للإسكندرية في ٨ من صفر سنة ٣٢١هـ، وتوفي في رجب سنة ٣٢٨هـ، ساق ابن البطريق هذا في تاريخه في وصف المجتمعين في مؤتمر نيقية وعددهم ومذاهبهم، يقول ابن البطريق: بعث الملك قسطنطين إلى جميع البلدان، فجمع البطارقة والأساقفة فاجتمع في مدينة نيقية ثمانية وأربعون وألفان من الأساقفة، وكانوا مختلفين في الآراء والأديان، فمنهم من كان يقول: إن المسيح وأمه إلهان من دون الله، ومنهم من كان يقول إن المسيح من الأب بمنزلة شعلة نار انفصلت من شعلة نار فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية عنها، ومنهم من كان يقول: لم تحبل به مريم تسعة أشهر وإنما مرَّ في بطنها كما يمر الماء في الميزاب؛ لأن الكلمة دخلت في أذنها وخرجت من حيث يخرج الولد من ساعتها، ومنهم من كان يقول: إن المسيح إنسان خلق من اللاهوت كواحد منا في جوهره، وأن ابتداء الابن من مريم، وأنه اصطفي ليكون مخلصاً للجوهر الإنسي، صحبته النعمة الإلهية، وحلَّت فيه بالمحبة والمشية، ولذلك سمى ابن الله. ويقولون: إن الله جوهر قديم واحد وأقنوم واحد ويسمونه بثلاثة أسماء، ولا يؤمنون بالكلمة ولا بروح القدس، ومنهم من كان يقول إنهم ثلاثة آلهة لم تزل: صالح وطالح وعدل بينهما، ومنهم من كان يقول بألوهية المسيح، وهي مقالة بولس الرسول، «يعني شاؤول اليهودي». وهكذا أورد ابن البطريق صورة واضحة لعدد ومذاهب المجتمعين في مؤتمر نيقية عام ٣٢٥م لتقرير الديانة النصرانية. وقد نصر المذهب الأخير وهو القول بألوهية المسيح الذي كان ابتدعه شاؤول (بولس) ثمانية عشر وثلاث مئة أسقف، وخالفهم ثلاثون وسبع مئة وألف أسقف، والعجيب الغريب أن الإمبراطور قسطنطين لم يلتفت إلا لقول القائلين بألوهية المسيح، وعقد مجلساً خاصاً لأصحاب هذا الرأي يصفه ابن البطريق إذ

يقول: وضع الملك للثلاث مئة والثمانية عشر أسقفاً مجلساً خاصاً عظيماً، وجلس في وسطهم وأخذ خاتمه وسيفه وقضيبه فدفعه إليهم، وقال لهم: قد سلطتكم اليوم على مملكتي لتصنعوا ما ينبغي لكم أن تصنعوا مما فيه قوام الدين وصلاح المؤمنين، فباركوا الملك، وقلدوه سيفه وقالوا له: أظهر دين النصرانية وذب عنه، ووضعوا له أربعين كتاباً فيها السنن والشرائع منها ما يصلح للملك أن يعلمه ويعمل به، ومنها ما يصلح للأساقفة أن يعملوا به. ١.٥هـ.

ومن هذا التاريخ حُرمت مخالفة هذا المذهب وحورب مخالفوه وحُرِّم العمل بأي إنجيل عدا الأناجيل الأربعة: متى ومرقس ولوقا ويوحنا.

وقد أشار الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم إلى هذه المذاهب النصرانية المنحرفة عن دين المسيح ﷺ حيث يقول ﷻ في سورة مريم: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سَخِرْنَاهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٢٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٢٦﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٨﴾﴾ [مريم: ٣٤ - ٣٨].

ويقول ﷻ في سورة الزخرف: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ إِلَهِ ﴿٦٥﴾﴾ [الزخرف: ٦٣ - ٦٥].

على أن اليهود والنصارى مع إقرارهم في كتبهم بإله إبراهيم وإسحاق ويعقوب الإله الواحد الحق فإن اليهود عبدوا العزيز واتخذوا أحبارهم أرباباً من دون الله، وعبد النصارى المسيح واعتقدوه إلها وابن إله كما اتخذوا رهبانهم أرباباً من دون الله.

وفي ذلك يقول تبارك وتعالى في سورة التوبة: ﴿قَنِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ

عَزِيْرُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتْ النَّصْرَى الْمَسِيْحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِيُونَ
قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَنَالَهُمْ اللَّهُ أَنْفًا يُمْسِكُونَ ﴿٣٥﴾ اتَّخَذُوا أَعْبَادَهُمْ
وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيْحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا
إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ
اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ
رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٨﴾

[التوبة: ٢٩ - ٣٣].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الثالث والثمانون

تابع: المسيح ابن مريم ﷺ

ذكرت في ختام الفصل السابق ما ذكره الله ﷻ في كتابه الكريم عن اتخاذ اليهود والنصارى أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، وأنهم ما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون.

وقد أخبر رسول الله ﷺ أن اليهود والنصارى كانوا إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه صوراً، مشيراً إلى أن ذلك أوصلهم إلى عبادة غير الله، ولذلك حذر المسلمون من مثل عمل هؤلاء اليهود والنصارى، وحرّم اتخاذ المساجد على القبور، ولم تشغله سكرات الموت ﷺ عن التحذير من هذا العمل غير الصالح؛ فقد روى البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأيتها بالحبيشة فيها تصاوير، فذكرتا للنبي ﷺ فقال: «إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور، فأولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة».

وفي رواية للبخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث عائشة وابن عباس رضي الله عنهما قالوا: لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذر ما صنعوا. وفي رواية للبخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث عائشة رضي الله عنها أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبيشة يقال لها مارية، فذكرت له ما رأت فيها من الصور، فقال رسول الله: «أولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح أو الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور؛ أولئك شرار الخلق عند الله»، كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم

مساجد»، كما روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال في مرضه الذي مات فيه: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». قالت: ولولا ذلك لأبرزوا قبره، غير أنني أخشى أن يتخذ مسجداً. وفي لفظ مسلم: فلولا ذاك أبرز قبره، غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً. كما روى مسلم في صحيحه من حديث جُنْدُب رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله تعالى قد اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً، ولو كانت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً. ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد فلا تتخذوا القبور مساجد، إني أنهاكم عن ذلك».

وقد شنع الله تبارك وتعالى على من اعتقد أن الله ولدًا وبشع مقالتهم وسفه عقيدتهم، وأقام الأدلة القاطعة على بطلان مذهبهم وفساد مقولتهم في مواضع كثيرة من كتابه الكريم، وأنه تعالى: ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُؤَلِّدْ﴾ (١٣) ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٣ - ٤]، وأن جميع من زعم أنه ابن الله هو عبيد من عبيده، والعبد لا يكون ولدًا لسيدة وخالقه ورازقه وإلهه، وأن ادعاء أن الله ولدًا قول فظيع ومنكر شنيع تكاد السموات يتفطرن منه وتشق الأرض وتخر الجبال هدأً.

وأشار تبارك وتعالى إلى سخافة عقول بعض مشركي العرب إذ كانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله، ولما سئلوا: من أمهات الملائكة؟ فقالوا: سروات الجن، أي شريفات الجن، مع أن الواحد من هؤلاء كان إذا أنجب بنتاً اسودَّ وجهه وصار كظيماً يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّرَ به أيمسكه على هون أم يدهسه في التراب، فكيف ينسبون البنت إلى الله وهم لا يفرحون بها إذا ولدوها، وهذا من أقبح أخلاقهم وأسوأ معتقداتهم، وقد جعلوا بهذا المعتقد الفاسد بين الجنة وبين الله نسباً، ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون، أي لو كانوا أنسباء الله ما عذبهم، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

وفي ذلك كله يقول الله ﻋَﻠَﻴْﻜُﻢُ في سورة البقرة: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُۥٓ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قٰنِیْنٌ﴾ [البقرة: ١١٦].

ويقول في سورة يونس: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطٰنٍ بِهٰذَا أْتَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِيَّاكَ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكٰذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [يونس: ٦٨ - ٦٩].

ويقول ﷺ في ختام سورة الإسراء: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكِبْرُهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١].

ويقول في مطلع سورة الكهف: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِجَابًا ﴿١﴾ فِيمَا يُنزِرُ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّٰلِحٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّكِينٍ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَنُذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ١ - ٥].

ويقول تعالى في سورة مريم: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ «يعني منكرًا فظيعةً» ﴿تَكَادُ السَّمٰوٰتُ يَفْطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشُقُّ الْأَرْضَ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُنْتُمْ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتٰنَا الرَّحْمٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصٰنَهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ عَٰتِيهِ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٥].

ويقول في سورة الأنبياء: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْفِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ حَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِيَّاكَ اللَّهُ مِّنْ دُونِهِ فَذٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذٰلِكَ نَجْزِي الظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ - ٢٩].

ويقول في مطلع سورة الفرقان: ﴿تَبٰرَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ مَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيٰوةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ١ - ٣].

ويقول تعالى في سورة الزمر: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحٰنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤].

ويقول تعالى في سورة الجن: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾

[الجن: ٣].

ويقول في سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١ - ٤].

ويقول في سورة الصافات: ﴿فَأَسْتَفْتِيهِمْ آيَاتِكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَاتُوا بِكُتُبِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَابًا وَقَدَّ عَلِمْتَ الْجَنَّةَ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٤٩ - ١٥٩].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الرابع والثمانون

تابع: المسيح ابن مريم ﷺ

قد أشرت في الفصل السابق إلى ما قص الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم مما يثبت سخافة عقول من يتخذ لله ولداً، وقد سقت جملة كبيرة من هذه الآيات المنددة بفساد تصور هؤلاء، وأنهم قد انحدروا إلى الدرك الأسفل في التصور، وقد أشار الله تبارك وتعالى كذلك إلى أن من زعم أن الله ولداً فقد اتخذ الله شريكاً، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وتنزه عن الشريك والند والنظير والولد والصاحبة.

وفي ذلك يقول الله ﷻ في سورة الأنعام: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَفُوا لَهُمْ بَيْنَ وَبَيْنَ وَبَنَتِ بَعِيرٍ عَلِيًّا﴾ (أي اختلقوا له أولاداً وبنات بغير بينة ولا برهان) ﴿سُبْحٰنَهُ وَتَعَالٰى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (١٠٠) ﴿بَدِيعَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ اَنۢى يَكُوۡنُ لَهُۥ وَلَدٌۢ وَلَمْ يَكُنۡ لَّهُۥ صَاحِبَةٌۢ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْۡءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْۡءٍ عَلِيۡمٌ﴾ (١٠١) ﴿ذٰلِكُمۡ اللّٰهُ رَبُّكُمْ لَاۤ اِلٰهَ اِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْۡءٍ فَاَعۡبُدُوۡهُ وَهُوَ عَلٰى كُلِّ شَيْۡءٍ وَكِيلٌ﴾ (١٠٢) ﴿لَا تُدۡرِكُهُۥ الۡاَبۡصٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ الۡاَبۡصٰرَ وَهُوَ الۡلَطِيۡفُ الۡخَبِيۡرُ﴾ [الأنعام: ١٠٠ - ١٠٣].

ويقول تعالى في سورة النحل: ﴿وَقَالَ اللّٰهُ لَا تَخۡذَرُوۡا اِلٰهِيۡنِ اِنَّمَآ هُوَ اِلٰهُ وَّاحِدٌۢ فَاَتَىۡ فَاَرۡهَبُوۡنَ﴾ (٥١) ﴿وَلَمْ يَۡ مَا فِى السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَلَهُ الدِّيۡنُ وَاَصۡبَاۡ اَفۡغَرۡ اللّٰهُ نَفۡقُوۡنَ﴾ (٥٢) ﴿وَمَا يَكُمۡ مِّنۡ يَّعۡمِقٍۭ فَمِنۡ اللّٰهِ ثُمَّ اِذَا مَسَّكُمُ الضَّرُّۤهٗ فَاِلَيْهِ تَجۡعَرُوۡنَ﴾ (٥٣) ﴿ثُمَّ اِذَا كَشَفَ الضَّرَّ عَنْكُمۡ اِذَا فَرِيۡقٌ مِّنۡكُمۡ بِرَبِّهِنَّ يَشۡرِكُوۡنَ﴾ (٥٤) ﴿لِيَكۡفُرُوۡا بِمَاۤ اٰتٰنَهُنَّ فَمَتَّعُوۡا فِسُوۡفَ تَعۡلَمُوۡنَ﴾ (٥٥) ﴿وَيَجۡعَلُوۡنَ لِمَا لَا يَعۡلَمُوۡنَ نَصِيۡبًا مِّمَّا رَزَقۡنَهُنَّ تَاللّٰهِ لَشَتٰنٌ عَمَّا كُنۡتُمۡ تَفۡرَوۡنَ﴾ (٥٦) ﴿وَيَجۡعَلُوۡنَ لِلّٰهِ اَلۡبَنٰتِ سُبۡحٰنَهُۥ وَلَهُمۡ مَا يَشۡتَهُوۡنَ﴾ (٥٧) ﴿وَاِذَا بَسَّرۡۤ اَحۡدَهُمۡ بِالۡاٰنۡثٰى ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوًۢا وَهُوَ كٰظِمٌ﴾ (٥٨) ﴿يَنۡوَرۡنِىۡ مِنَ الْقَوۡمِ مَنۡ سَوَّۤا مَا بُشِّرۡ بِهٖۤ اَيۡمُسۡكِمُ عَلٰى هُوۡنٍ﴾ (أي على ذلة ومهانة) ﴿اَمۡ يَدۡسُهُۥ فِى التُّرَابِۙ اِلَّا سَاۡءَ مَا يَحۡكُمُوۡنَ﴾ (٥٩) ﴿لِلَّذِيۡنَ لَا يُؤۡمِنُوۡنَ بِالۡاٰخِرَةِ مَثَلُ السَّوۡۤءِ وَلِلّٰهِ الۡمَثَلُ

الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُوَاحِدُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَجِرُّونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذْبَ أَنْ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جِرْمَ أَنْ لَهُمُ النَّارَ وَأَنْتُمْ مُفْرَطُونَ ﴿النحل: ٥١ - ٦٢﴾.

ويقول تعالى في سورة الزخرف: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنْ الْأِنْسَانَ لَكُفْرًا مُبِينًا ﴿١٥﴾ أَمْ أَخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بِنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوْ مِنْ يَنْشَأُ فِي الْجِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكذِّبُ شَهَادَتَهُمْ وَيُسْتَلُونَ ﴿النزخرف: ١٥ - ١٩﴾.

ويقول تعالى في سورة الطور: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ﴾ [الطور: ٣٩].

وقد أخبر رسول الله ﷺ عن ربه في الحديث القدسي أن من ادعى أن لله ولداً فقد سبَّ الله وشتمه، ويا ويل من سبَّ الله وشتمه، وأنه لولا حلم الله لعاجلهم بالعقوبة، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «يقول الله: شتمني ابن آدم وما ينبغي له أن يشتمني، وكذَّبني وما ينبغي له، أما شتمه فقلوه: إن لي ولداً، وأما تكذيبه فقلوه: ليس يعيدني كما بدأني»، كما روى البخاري في صحيحه من حديث حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «قال الله: كذَّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فزعم أنني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي فقلوه لي ولد، فسبحاني أن أتخذ صاحبةً أو ولداً». كما روى مسلم في صحيحه من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله ﷻ، إنه يشرك به ويجعل له الولد ثم هو يعافيه ويرزقهم». وفي لفظ لمسلم من حديث أبي موسى الأشعري عبد الله بن قيس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أحدٌ أصبر على أذى يسمعه من الله تعالى، إنهم يجعلون له نِداً ويجعلون له ولداً، وهو مع ذلك يرزقهم ويعافيهم ويعطيهم».

ومع هذه الأدلة الكثيرة الصريحة المحكمة في كتاب الله تعالى مكية ومدنية، وفي أخبار رسول الله ﷺ الصحيحة الثابتة بأن الله تعالى منزه عن الولد والصاحبة، فإن نصارى نجران عندما وفدوا على رسول الله ﷺ في السنة التاسعة من هجرة رسول الله ﷺ حاولوا الاستدلال على أن عيسى ابن الله ببعض ألفاظ في كتاب الله، حاملين لها على غير ما أُريد بها، بسبب زيغ في قلوبهم ابتغاء الفتنة والصدِّ عن سبيل الله، فزعموا أن في القرآن دليلاً على أن عيسى ابن الله في قوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]. إذ حملوا لفظ (مِنْ) في هذه الآية على التبويض، فيكون عيسى بعضاً من الله وجزءاً منه، وتجاهلوا أن «من» في هذا المقام لا يُراد بها التبويض. وإنما يُراد بها ابتداء الغاية، أي أن عيسى روح من الأرواح التي ابتداءً الله خلقها، وتعاموا عن الآيات الكثيرة الصريحة في أن عيسى عبد الله وخلق من خلقه، والعبد لا يكون ولداً، وأن الله ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُؤَكِّدْ﴾ ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٣ - ٤].

ولا شك أن العرب يستعملون كلمة «مِنْ» في معانٍ كثيرة: منها ابتداء الغاية كهذه، ومنها بيان الجنس كقوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠]، أي اجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان، ومن معانيها التبويض كقولك: أكلت من هذا الرغيف، أي أكلتُ بعضه، إلى معانٍ كثيرة، فنصارى نجران تركوا المعنى الظاهر المتبادر المحكم ولجؤوا إلى المعنى غير المراد، مستغلين تشابه اللفظ، وقد أنزل الله تبارك وتعالى في شأنهم من أول سورة آل عمران إلى الآية الرابعة والثمانين منها ردّاً فيها باطلهم وأدحض شبهتهم، وبين أنهم بسبب زيغ قلوبهم يتبعون ما تشابه من القرآن ويتعامون عن المُحكّم الصريح الجلي المثبت أن الله لم يتخذ ولداً، إذ إن الله تبارك وتعالى جعل من القرآن محكماً وجعل منه متشابهاً، والمحكّم الواضح الجلي الذي لا يخفى علم المراد منه على العامة والخاصة، وأما المتشابه فهو اللفظ الذي يحتمل أكثر من معنى كلفظ (مِنْ) في قوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾، فأما أهل الإيمان فيردون متشابهه إلى مُحكّمه، ويحملون معنى (من) هنا على ما أُريد منها، وهو ابتداء الغاية، وأما الذين في قلوبهم زيغ

فيحملونه على المعنى غير المراد، ﴿وَالرَّاسِحُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِء كُلُّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، فكلامه لا يتناقض ولا يتضارب، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وقد ذكر الله تبارك في هذا المقام من سورة آل عمران أدلة جليّة بأنه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ٢]، وأنه أنزل على محمد ﷺ القرآن بالحق، كما أنزل التوراة على موسى والإنجيل على عيسى هدىً للناس، ﴿مِن قَبْلُ هَدَى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٤ - ٦].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الخامس والثمانون

تابع: المسيح ابن مريم ﷺ

بعد أن قرر الله تبارك وتعالى في صدر سورة آل عمران أنه رب كل شيء وأنه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقرر رسالة موسى وعيسى ومحمد ﷺ وهو يقتضي أن عيسى عبد من عبيد الله ورسول من رسله ليس إلهاً ولا ابن إله حيث يقول ﷺ:

﴿الْم ١﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ مِنْ قَبْلِ هَذِي لِنَّاسٍ لَذُنَّ الْفُرْقَانُ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾ [آل عمران: ١ - ٦].

شرح في إبطال شبهة نصارى نجران ومن على شاكلتهم من الذين يتركون المحكم الجلي الواضح القطعي الدلالة الذي لا يحتمل إلا معنى واحداً، ويستدلون بالألفاظ المتشابهة المحتملة لمعانٍ كثيرة، ويتعلقون ببعض المعاني غير المرادة منها، مع أن هذه المعاني المتشابهة لا يمتاز بعضها عن بعض في الأصل لو كانت هذه الألفاظ مفردة غير واردة في سياق الكلام؛ لأنها إذا كانت واردة في سياق كلام فإن هذا السياق يحدد المراد منها، وهذا أمر معروف في معاني الحروف، لكن الذي في قلبه زيغ وميل عن الحق إلى الباطل يتتبع المتشابهات ويترك الواضحات الجليات، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (أي هن الأصول والقواعد التي يُرجع إليها عند الاختلاف والاشتباه لقطعية دلالتها، وعدم احتمالها إلا لمعنى واحد)، ﴿وَأُخْرَى مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧] (أي تحتمل أكثر من معنى ابتلاء واختباراً، وإن كان

سياق الكلام يحدد المراد منها) ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: ٧] (أي فأما الذين في قلوبهم ميل عن الحق والاستقامة إلى الأهواء الباطلة، المنحرفون عن سنن الرشاد، المصرون على الشر والفساد والعدا، فإنهم لا يتعلقون بالمحكمات الجليات وإنما يتعمدون الألفاظ المشتبهات لا تحريماً للحق بل لطلب فتنة الناس عن دينهم بالتشكيك والتلبس والتأويل الباطل حسبما يشتهون من التأويلات الفاسدة، والآراء الزائغة، وهم ليسوا أهلاً لتأويل كتاب الله، فتأويله يعلمه الله ﷻ ومن وفقه من عباده الراسخين في العلم الذين ثبتوا على الحق وتمكنوا فيه ولم يتزلزلوا عن الهدى، ولذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧]، أي والثابتون على الحق المستقرون على العلم والهدى، يسارعون إلى الإيمان بمحكم الكتاب ومتشابهه، ويردون متشابهه إلى محكمه ويقولون: المحكم والمتشابه من القرآن كله من عند الله منزل بالحق لا يتناقض ولا يتعارض ولا يتضارب ولا يتضاد ولا يختلف)، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وعندما لم يسارع نصارى نجران إلى الإيمان بالحق والتصديق بأن عيسى عبد الله ورسوله ليس إلهاً ولا ابن إله طلب الله تعالى من رسوله محمد ﷺ أن يباهلهم، بعد أن بين لهم أن ﴿مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ [آل عمران: ٥٩]، فكما أن الله خلق آدم من غير أب ولا أم بل من تراب فقد خلق عيسى من غير أب للدلالة على أن الله على كل شيء قدير، لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض، فقال ﷻ:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٥٩)
 الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ ﴿٦١﴾ (أي نتضرع في الدعاء) ﴿فَنَجْعَلِ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (٦١) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ

يَأْهَلُ الْكِتَابِ تَمَلَّؤُوا إِلَى كَلِمَةِ سَوَامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿آل عمران: ٥٩ - ٦٤﴾.

وعندما طلب الله تعالى من رسوله محمد ﷺ أن يباهلهم بادر رسول الله ﷺ إليهم، وقرأ عليهم آية المباهلة، فخافوا أن يباهلوا رسول الله ﷺ، وأيقنوا أن ما جاء به هو الحق، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث حذيفة رضي الله عنه قال: جاء العاقب والسيد صاحبنا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعنا، قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل فوالله لئن كان نبياً فلاعتنا لا نفلح نحن ولا عقبتنا من بعدنا، قال: إنا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلاً أميناً ولا تبعث معنا إلا أميناً، فقال: «لأبعثن معكم رجلاً أميناً حق أمين»، فاستشرف له أصحاب رسول الله ﷺ فقال: «قم يا أبا عبيدة بن الجراح»، فلما قام قال رسول الله ﷺ: «هذا أمين هذه الأمة». وفي لفظ للبخاري من حديث حذيفة رضي الله عنه قال: جاء أهل نجران إلى النبي ﷺ فقالوا: ابعث لنا رجلاً أميناً، فقال: «لأبعثن إليكم رجلاً أميناً حق أمين» فاستشرف له الناس، فبعث أبا عبيدة بن الجراح. وقد روى مسلم في صحيحه من حديث حذيفة رضي الله عنه قال: جاء أهل نجران إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله؛ ابعث إلينا رجلاً أميناً فقال: «لأبعثن إليكم رجلاً أميناً حق أمين، حق أمين». قال: فاستشرف لها الناس، قال: فبعث أبا عبيدة بن الجراح. وفي رواية لمسلم من حديث أنس رضي الله عنه أن أهل اليمن قدموا على رسول الله ﷺ فقالوا: ابعث معنا رجلاً يُعلمنا السنة والإسلام، قال: فأخذ بيد أبي عبيدة فقال: «هذا أمين هذه الأمة».

هذا وقوله تعالى لعيسى عليه السلام: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥] يفيد أن الله تبارك وتعالى قضى أن من آمن بعيسى عليه السلام وصدقه وأقر أنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه يُعزه الله تعالى ويرفع منزلته فوق كل كافر في الحياة الدنيا، فما بالك بما أعدَّه الله للمؤمنين في الآخرة، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]، وكقوله

تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، وكفوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]، وكفوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَنَامَنَّا طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عُدُوِّهِمْ فَأَصْحَبُوا ظَهْرَهُنَّ﴾ [الصف: ١٤].

ولا شك أنه بعد إرسال محمد ﷺ فقد نسخ الله بشريعته الشرائع السابقة، ولا يقبل من أحد إلا أن يتبع محمداً ﷺ، كما أثر في الحديث القدسي: «وعزتي وجلالي لو جاؤوا من كل طريق واستفتحوا من كل باب ما فتحت لهم إلا أن يجيئوا من طريقك» كما ذكره ابن القيم.

ولا شك أن الإيمان بمحمد ﷺ يقتضي الإيمان بعيسى وجميع الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، على حد قوله تعالى: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

وكفوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٨٤) وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٤ - ٨٥].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل السادس والثمانون

تابع: المسيح ابن مريم ﷺ

أشرت في ختام الفصل السابق إلى قوله تعالى لعيسى ﷺ: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وسقت نظائرها من كتاب الله تعالى، ولا يتنافى ذلك مع ما قد يحدث للمؤمنين من أن يهزموا في حرب، أو أن يمسه قرح، فإن الله تبارك وتعالى قد يبتلي عباده المؤمنين لِيَمْحُصَ ﴿اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكُفْرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١]، فإن المؤمن عزيز بالله في حالة النصر وفي حالة الهزيمة؛ ولذلك كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يفرحون إذا نالوا من عدوهم. ولا يجزعون إن نال منهم عدوهم، وفي ذلك يقول كعب بن زهير في قصيدته بانت سعاد وهو يصف أصحاب رسول الله ﷺ:

ليسوا مفاريح إن نالت رماحهمو قوماً وليسوا مجازيعاً إذا نيلوا
وكتقول حسان رضي الله عنه:

نسموا إذا الحرب نالتنا مخرابها إذا الزعانف من أظفارها خشعوا
لا يفخرون إذا نالوا عدوهمو وإن أصيبوا فلا خور ولا هلع
كانهم في الوغى والموت مكتنع أسدٌ بحلية في أرساغها فدع

وقوله: والموت مكتنع أي قريب مشاهد، فإنهم لا يهابون أسباب المنايا، ولم يعرف أن واحداً من أصحاب رسول الله ﷺ قتل وهو مدبر؛ ولذلك يقول كعب بن زهير:

لا يقع الطعن إلا في نحورهمو وما لهم عن حياض الموت تهليل

وقوله: وما لهم عن حياض الموت تهليل أي لا يفرون من موارد الهلاك وساحات القتال ولا يتأخرون عنها، ونصر الله لعباده المؤمنين وإعزازه لهم حاصل على كل حال.

ولنضرب لذلك مثلاً من قصة أصحاب الرجيع رضي الله عنهم، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعث النبي صلى الله عليه وسلم سرية عيناً وأمر عليهم عاصم بن ثابت، فانطلقوا حتى إذا كانوا بين عُسْفَانَ ومكة ذكروا لحي من هذيل يقال لهم: بنو لحيان؛ فتبعوهم بقريب من مئة رام فاقترضوا آثارهم حتى أتوا منزلاً نزلوه، فوجدوا فيه نوى تمر تزودوه من المدينة، فقالوا: هذا تمر يثرب، فتبعوا آثارهم حتى لحقوهم، فلما انتهى عاصم وأصحابه لجؤوا إلى فدغد «أي رابية مشرفة»، وجاء القوم فأحاطوا بهم فقالوا: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم رجلاً، فقال عاصم: أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر، اللهم أخبر عنا نبيك، فرمواهم حتى قتلوا عاصماً في سبعة نفر بالنبل، وبقي خبيب وزيد ورجل آخر، فأعطوهم العهد والميثاق، فلما أعطوهم العهد والميثاق نزلوا إليهم، فلما استمكنوا منهم حلوا أوتار قسيهم فربطوهم بها، فقال الرجل الثالث الذي معهما: هذا أول الغدر فأبى أن يصحبهم فجرروه وعالجوه على أن يصحبهم فلم يفعل، فقتلوه، وانطلقوا بخبيب وزيد حتى باعوهما بمكة، فاشترى خبيبا بنو الحارث بن عامر بن نوفل، وكان خبيب هو قتل الحارث يوم بدر؛ فمكث عندهم أسيراً حتى إذا أجمعوا قتله استعار موسى من بعض بنات الحارث ليستحد بها «أي ليستطيب بها ويزيل شعر عانتة» فأعارته، قالت: فغفلت عن صبي لي، فدرج إليه حتى أتاه، فوضعه على فخذه، فلما رأيته فرعت فرعةً عرف ذلك مني، وفي يده موسى، فقال: أتخشين أن أقتله، ما كنت لأفعل ذاك إن شاء الله، وكانت تقول: ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب، لقد رأيته يأكل من قطف عنب، وما بمكة يومئذٍ ثمرة، وإنه لموثق في الحديد، وما كان إلا رزق رزقه الله، فخرجوا به من الحرم ليقتلوه، فقال: دعوني أصل ركعتين، ثم انصرف إليهم، فقال: لولا أن تروا أن ما بي جزع من الموت لزدت، فكان أول من سنَّ الركعتين عند القتل، ثم قال: اللهم أحصهم عدداً، ثم قال:

ولست أبالي حين أُقتل مسلماً على أي شقِّ كان لله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلوي ممزَع

ثم قام إليه عقبة بن الحارث فقتله، وبعثت قريش إلى عاصم ليؤتوا بشيء من جسده يعرفونه، وكان عاصم قتل عظيماً من عظمائهم يوم بدر، فبعث الله عليه مثل الظلة من الدبر «أي مثل السحابة من الزنابير أو ذكور النحل لحمايته من أن يمثلوا بشيء من جسده» فحمته من رسلهم فلم يقدروا منه على شيء.

وقد زعم بعض الناس أن المراد من قوله تعالى: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران: ٥٥] أن المراد من الذين اتبعوه هم النصارى والذين كفروا هم اليهود، وهذا قول غير سديد، فإن من زعم أن عيسى إله أو ابن إله أو أن الله ثالث ثلاثة لا يكون من أتباع عيسى ﷺ، بل يكون من أعدائه، فمن أفرط في عيسى من النصارى كمن فرط فيه من اليهود، فكلهم أعداء الله، وأعداء المرسلين، ولذلك حذر رسول الله ﷺ المسلمين أن يغلوا في رسول الله ﷺ كما غلت النصارى في المسيح ابن مريم. فقد روى البخاري في صحيحه من طريق ابن عباس رضي الله عنهما أنه سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول على المنبر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تطرُوني كما أطرتِ النصارى عيسى ابن مريم وإنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله».

وبين رسول الله ﷺ أن الجنة لا يدخلها أحد ممن جاء بعد عيسى ﷺ إلا إذا أقر بأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل».

وقد حكم الله تعالى وقضى أن من ادّعى أن عيسى إله أو ابن إله أو أن الله ثالث ثلاثة فهو كافر مشرك يُحرم الله عليه الجنة، حيث يقول ﷺ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنَىٰ إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ [المائدة: ٧٢ - ٧٣].

والى الفصل القادم ان شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل السابع والثمانون

تابع: المسيح ابن مريم ﷺ

ذكرت في ختام الفصل السابق أن الله تعالى حكم بكفر من ادعى أن المسيح ابن الله، أو أنه الله، أو أن الله ثالث ثلاثة، وسقت صريح القرآن الكريم في ذلك، وقد بين الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم مشهداً من مشاهد الحق يسأل فيه عيسى ابن مريم للتنديد بمن عبده وأمه مع الله ﷻ، حيث يقول: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩].

ثم يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ هُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٦ - ١١٨].

وليس في قوله تعالى هنا: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] ما يفهم أنه من مات على الشرك قد يغفر له؛ لأن الكلام منصب على جملة من جاءهم عيسى ﷺ، وفيهم من آمن به على أنه عبد الله ورسوله، ومنهم من كفر به في حياته بينهم، ومنهم من كفر به بعد رفعه، إذ زعم أنه إله أو ابن إله، والمقصود من السياق يفيد أن عيسى ﷺ ما قال لهم إلا ما أمره الله ﷻ به أن اعبدوا الله وحده لا شريك له، وأنه يشهد لمن أجابه مدة حياته بينهم، ويشهد على من عصاه مدة حياته كذلك، فلما رفعه الله إليه ارتفع علمه عن أحوالهم. وكان الله وحده هو الرقيب عليهم، لا يعلم عيسى من أمرهم شيئاً سواء في ذلك من اتبعه على الهدى أو ضل عن سواء السبيل، فَمَرَدُّ الجميع إلى الله

يعذب من يشاء من العصاة عدلاً، ويشيب ويغفر لمن يشاء فضلاً؛ لأن الجميع عباده وهو العزيز الحكيم، وقد روى مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول الله وَعَلَىٰ فِي إِبْرَاهِيمَ: ﴿رَبِّ إِنِّي هُنَّ أَضَلَّلَنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ يَبْعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وقال عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِن تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] فرفع يديه وقال: «اللهم أمتي أمتي وبكى» فقال الله وَعَلَىٰ: ﴿يَا جِبْرِيلُ! اذْهَبْ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ - وَرَبِّكَ أَعْلَمُ - فَسَلِّمْ عَلَيْهِ مَا يَبْكِيكَ؟﴾ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بِمَا قَالَ، وَهُوَ أَعْلَمُ، فَقَالَ اللَّهُ: ﴿يَا جِبْرِيلُ! اذْهَبْ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ فَقُلْ: إِنَّا سَنَرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسْؤُوكَ﴾.

ولا شك أنه بقي إلى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان يعرف من النصارى أن عيسى عبد الله ورسوله بسبب امتداد دعوة آريوس ومن تبعه، ولذلك لما قرأ جعفر بن أبي طالب على النجاشي ملك الحبشة بعض سورة مريم مما اشتمل على قصة ولادة المسيح وكلامه في المهد بأنه عبد الله آتاه الكتاب وجعله نبياً بكى النجاشي حتى اخضلت لحيته، وصرح بأن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم في توحيد الله يخرج هو والذي جاء به عيسى من مشكاة واحدة.

فقد قال ابن إسحاق في السيرة النبوية: حدثني محمد بن مسلم الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي عن أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جارٍ النجاشي، أمناً على ديننا، وعبداً لله تعالى لا نؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشاً، ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جلدتين، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يُستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم، فجمعوا له أدماً كثيراً، ولم يتركوا من بطارقتة بطريقاً إلا أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص، وأمروهما بأمرهم، وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلمنا النجاشي فيهم، ثم قدما إلى النجاشي هداياه ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن

يكلّمهم، قالت: فخرجا حتى قدما على النجاشي ونحن عنده بخير دار عند خير جار، فلم يبق من بطارقتة بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلّمنا النجاشي، وقالوا لكل بطريق منهم إنه قد ضوى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم، وجاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردوهم إليهم، فإذا كلّمنا الملك فيهم، فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلّمهم، فإن قومهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم، فقالوا لهما: نعم، ثم إنهما قدما هداياهما إلى النجاشي فقبلها منهما، ثم كلّمنا فقالا له: أيها الملك، إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدين ابتدعه لا نعرفه نحن ولا أنت. وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائهم لتردهم إليهم فهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه، قالت: ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشي، قالت: فقالت بطارقتة حوله: صدقاً أيها الملك قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم إليهما فليرداهم إلا بلادهم وقومهم. قالت: فغضب النجاشي ثم قال: لاها الله إذن لا أسلمهم إليهما، ولا يكاد قوم جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنّت جوارهم ما جاوروني، قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما علمنا وما أمرنا به نبينا ﷺ كما في ذلك ما هو كائن. فلما جاؤوا وقد دعا النجاشي أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله سألهم فقال لهم: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل، قالت: فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب، فقال له: أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء

الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآبائنا من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم. وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً. وأمرنا بالصلاة، والزكاة والصيام، قالت: فعدد عليه أمور الإسلام فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرّم علينا، وأحللنا ما أحلّ لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيّقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك، ورجبنا في جوارك ورجونا أن لا تُظلم عندك أيها الملك. قالت: فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ فقال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي فاقرأه عليّ فقرأ عليه صدرّاً من سورة مريم.

قالت: فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يكادون... إلخ الحديث.

والى الفصل القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الفصل الثامن والثمانون

تابع: المسيح ابن مريم ﷺ

ذكرت في الفصل السابق أنه قد بقي إلى زمان رسول الله ﷺ من كان من النصرارى يعرف الدين الحق، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وذكرت قصة النجاشي ملك الحبشة مع المهاجرين إلى الحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ وﷺ، وأن النجاشي عندما سمع صدر سورة مريم من جعفر بن أبي طالب ﷺ بكى حتى اخضلت لحيته، وبكى من معه من القيسيين والرهبان حتى أخضلوا مصاحفهم، وقد أشار الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم إلى بكاء بعض القيسيين والرهبان عندما سمعوا القرآن، وذكر أن هؤلاء الذين عرفوا الحق هم أقرب الناس مودة للذين آمنوا وفي ذلك يقول الله ﷻ في سورة المائدة: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرْتُكَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ فَتَيَسَّرَ لِرَهْبَانَانَا أَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ رَأَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَأَمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَنْبَأَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿المائدة: ٨٢ - ٨٥﴾.

ويقول في سورة الإسراء: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَجِرُونَ لِلْآذِقَانِ سَجْدًا ﴿١٧٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٧٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْآذِقَانِ يَبْكِوْنَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿الإسراء: ١٧٧ - ١٧٨﴾.

ويقول في سورة القصص: ﴿الَّذِينَ ءَانَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِئُ الْجَاهِلِينَ ﴿القصص: ٥٢ - ٥٥﴾.

وقد أخبر رسول الله ﷺ أن من آمن من أهل الكتاب بنبيه ثم آمن بمحمد ﷺ يؤتية الله أجره، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ثلاثة لهم أجران: رجلٌ من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد ﷺ، والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه، ورجلٌ كانت له أمةٌ فأدبها فأحسن تأديبها، وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها فتزوجها فله أجران.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِيَّسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢] ليس ثناء على كل قسيس أو راهب وليس مدحاً لهذين الوصفين، إنما الثناء على من كان قسيساً أو راهباً، ثم عرف أن دين محمد ﷺ هو الدين الحق، وأنه دين الإسلام، وأن من ﴿يَبْتَغِ عَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] فسارع إلى الدخول في الإسلام واستمسك بشرائعه؛ ولذلك لا يوصف أحد من هؤلاء بعد الدخول في الإسلام بأنه قسيس أو راهب، كما لا يوصف اليهودي أو النصراني إذا دخل في الإسلام بأنه يهودي أو نصراني.

والقسيس والقِسُّ والقِسُّ هو رئيس النصارى في العلم والدين، وأصله في اللغة تتبع الشيء وطلبه، قال رؤبة بن العجاج يصف نساء عفيفات لا يتبعن النمام: يتبعن النمام:

يُضْبِحْنَ عَنِ قَسِّ الْأَذَى غَوَافِلًا

ويقال تَقَسَّسْتُ أصواتهم بالليل أي تسمعتها. والرهبان جمع راهب وهو من كان من النصارى يتعبد في الصوامع ولا يخالط الناس من الرهبانية والترهب، وهو التعبد في الصوامع مع اعتزال النساء، وقد ابتدع النصارى الترهب وشددوا على أنفسهم فيه على حد قوله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧] وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ استثناء منقطع، أي لم يفرضها عليهم لكنهم ابتدعوها من قبل أنفسهم اجتهاداً منهم في طلب مرضاة الله، فصاروا كمن أجهد نفسه في السير وأثبت فلا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى، ولذلك كان رسول الله ﷺ ينهى عن التشدد والتنطع في الدين، ويأمر بالرفق وبالتيسير؛ ولذلك لما بلغه أن بعض أصحابه تأثروا من

خطبة لرسول الله ﷺ فاجتمعوا في بيت بعض الصحابة وعزموا أن لا يأكلوا اللحم ولا يقربوا النساء ولا يمسوا الطيب فنهاهم عن ذلك أشد النهي.

وكذلك قصة الثلاثة الرهط الذين أتوا بيوت رسول الله ﷺ يسألون عن عبادة رسول الله ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالؤها، فقالوا أين نحن من رسول الله ﷺ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فقال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبداً، وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال الآخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال: «أنتم الذين قلتُم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني».

هذا وقد أكثر الله تبارك وتعالى من ذم اليهود والنصارى وبين أن قلوبهم مليئة بحقد بعضهم على بعض، وأن كل طائفة منهم ترمي الأخرى بأنها ليست على شيء، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]، أي قالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً وليس معهم برهان سوى الأمانيات الكاذبة.

ويقول ﷻ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة: ١١٣].

ويقول ﷻ: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَى حَتَّى تَبِيعَ بِلْتَمِهِمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ أُتْبِعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصْرَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥].

ويقول ﷻ: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ

كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ [البقرة: ١٤٠].

ويقول تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٥﴾ هَاتَمْتُمْ هَؤُلَاءِ حُجَجَكُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٨﴾ [آل عمران: ٦٥ - ٦٨].

هذا ولما نزل قوله تعالى في مشركي مكة ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَتْ هَؤُلَاءِ ءَالِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٨ - ١٠٠]. قالوا: إذا نرضى أن تكون آلهتنا مع عيسى ابن مريم في النار؛ لأن عيسى عبد من دون الله، وهم يجهلون أن من عبد من غير الله وهو لم يدع الناس إلى عبادته ولا هو راض أن يُعبد من دون الله فإنه لا يضره ذلك، فأنزل الله قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ لَكِئْتًا فِي الْأَرْضِ يَخْتَفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمُرَّتْ بِهَا وَأَنْتُمْ عَنْ هَذَا صَرِطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صَرِطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَأَخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمِ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾ [الزخرف: ٥٧ - ٦٥]، سلام على عيسى في المرسلين ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصفات: ١٨٢].

وبهذا ينتهي كتاب قصص الأنبياء، وقد تم الفراغ منه في ضحي الخميس الموافق

لرابع من ربيع الأول لعام ١٤٠٧ من هجرة سيد المرسلين ﷺ

بمنزلنا بمدينة الرياض، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٥	* مقدمة الكتاب
٧	الفصل الأول
١٣	الفصل الثاني
١٩	الفصل الثالث
٢٤	الفصل الرابع: حاجة الناس إلى النبيين والمرسلين
٢٨	○ آدم ﷺ
٤٧	○ نوح ﷺ
٧٤	○ قصة هود ﷺ
٨٢	○ قصة صالح ﷺ
٨٩	○ إبراهيم ﷺ
١١١	○ لوط ﷺ
١١٩	○ إسماعيل ﷺ
١٢٣	○ إسحاق بن إبراهيم ﷺ
١٢٧	○ يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ﷺ
١٣١	○ يوسف الصديق ﷺ
١٦٠	○ شعيب ﷺ
١٦٨	○ أيوب ﷺ
١٧٢	○ إدريس وإلياس ﷺ
١٧٦	○ يونس بن متى ﷺ
١٨٧	○ اليسع وذو الكفل ﷺ
١٩١	○ موسى ﷺ
٢٥٢	○ داود وسليمان ﷺ
٢٧٩	○ زكريا ويحيى ﷺ
٢٨٣	○ المسيح ابن مريم ﷺ

هذا الكتاب منشور في

